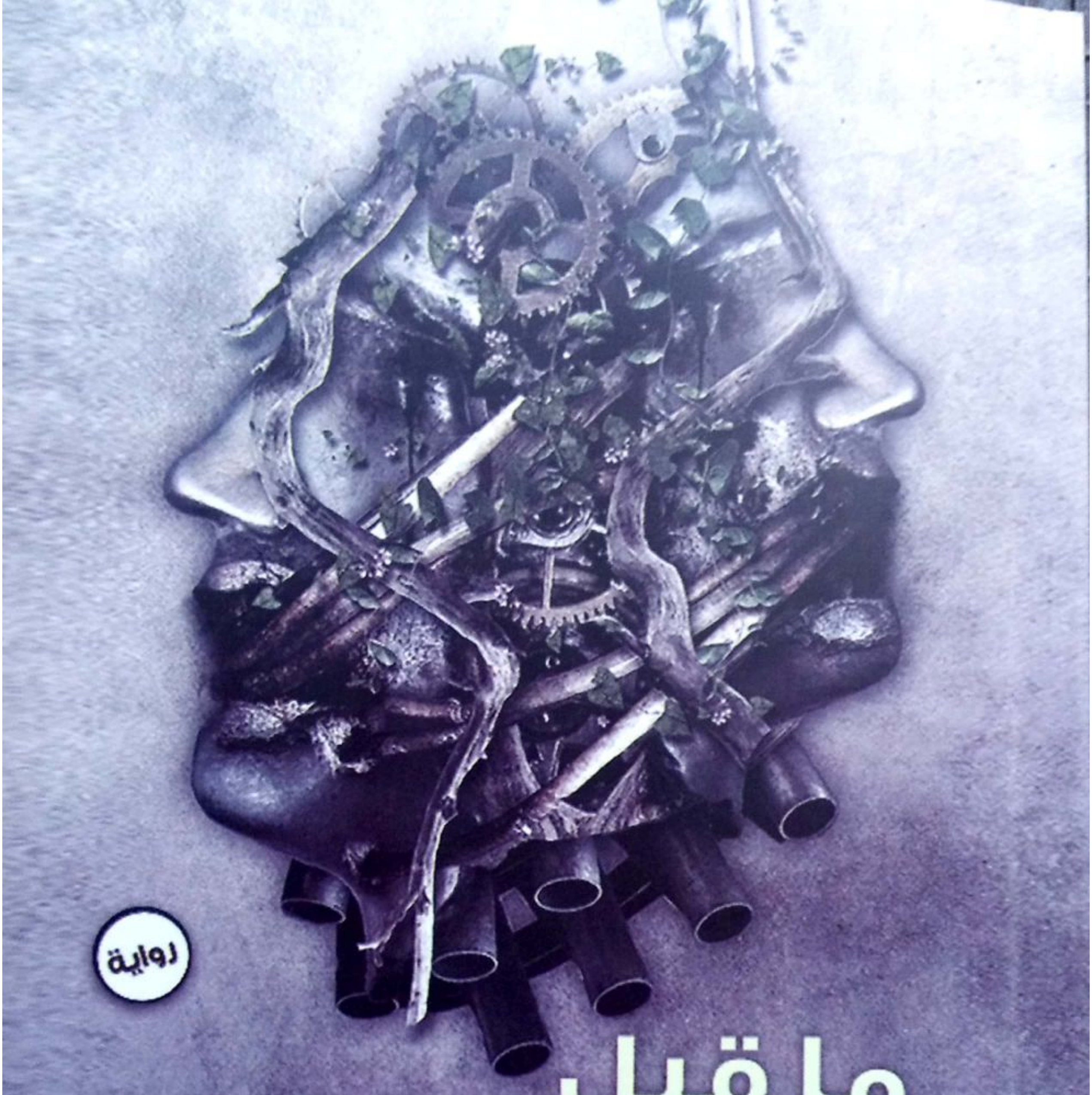

رواية

ما قبل اليوم الأخير

رضا سليمان

سما للنشر والتوزيع
المجموعة الدولية للنشر والتوزيع

Scanned by CamScanner

رواية

ما قبل اليوم الأخير

رضا سُليمان

سما للنشر والتوزيع

Scanned by CamScanner

ما قبل اليوم الأخير

رضا سليمان

الطبعة الأولى: يناير
1439هـ 2018م

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية
دار الكتب المصرية
سليمان ، رضا
ما قبل اليوم الأخير
رضا سليمان - القاهرة: سما للنشر والتوزيع، 2018
320 ص: 15,5x13,7سم - (ما قبل اليوم الأخير)
ردمك 978-977-781
1 - القصص العربية
أ. العنوان 813
رقم الإيداع 2018/
ردمك 978-977-781-

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
لدار سماء للنشر
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب
بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير
أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

سما

دار سما للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
15 ش يوسف الجندي متفرع من شارع البستان - باب اللوق - القاهرة
تليفون: 24517100 202+ - 01271919100 2+
email: samasaher@yahoo.com
publishing@sama-publishing.com

التوزيع
المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع

80 ش طومان باي - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية
تليفاكس: 24518068 202+ - 01019998240 2+
email:eldawlea.group10@yahoo.com

التنفيذ الفني
درج
eldaraj-eg.com

ما قبل
اليوم الآخير

رضا سُليمان

Scanned by CamScanner

إهداء

إلى

شرفاء هذا الوطن ..

إليكم بعضًا من الـ ....

فاحذروه ..

رضا سُليمان

Scanned by CamScanner

ما قبل البداية

وكأننا في قلب آلة تسافر عبر الزمن، تنطلق بسرعة مثل شهب يظهر ويختفي في لمح البصر، نعود إلى عمق الزمان ..

صحراء مترامية الأطراف، رمالها مشتعلة من وهج شمس تكاد تلامسها، لفحات هواء كأنها خارجة من نافذة جهنم، لا توجد شجيرة صبر واحدة، صخور حادة، صفير رياح يلقي برعب حقيقي إضافة إلى ما تلقيه باقي تفاصيل المكان. منذ آلاف السنين وهذه الأرض على حالها، حتى اللحظة التي يحدث فيها أمر غريب.

فجأة وبدون أيّ مقدمات .. تملأ السماء غيوم سوداء، لقد حل الليل في منتصف النهار، تختفي الشمس، رعدٌ صوته يهز الأرض، وتنتفض له الجبال حتى تحول بعضها إلى فتات.

Scanned by CamScanner

يهطل مطر وكأن عين السماء قد فُتِحت، لحظات وتتوارى الرمال ثم الصخور الحادة ومن بعدها الهضاب وجذوع الجبال الصامدة، تحت الماء الهادر.

تصنع مياه الأمطار مجرى عظيمًا.. ينطلق مثل وحش أسطوري .. يتلوى عبر أميال لا تحصى .. يلقي بفيضه يمينًا ويسارًا ..

يُحلق طائر عظيم .. يضرب الهواء بجناحيه مصدرًا صوتًا رعديًا، يطوف فوق المكان في دائرة كاملة، من بين مخالبه تسقط «بذرة» قرمزية اللون، يرحل في هدوء، وكأنه أتى كي يتركها في هذه الأرض .. ينسحب كمن أنهى مهمته بنجاح ..

تغوص «البذرة» تحت طبقات الأرض الأولى .. ترتوي بماء المطر..

سنوات تمر وتنمو شجرة كبيرة تحمل من الثمر عددًا عظيمًا.. إنهن بنات بذرة واحدة. لقد مُهِدت الأرض وطابت تربتها، زالت حدتها وخف لهيب شمسها.

من بعيد .. عبر مجرى الماء الرهيب يأتي رجل ذو جسد عظيم .. خلفه تسير في هدوء ودعة سيدة نحيلة الجسد مقارنة به، تتأمل المكان .. يبدو أنهما يبحثان عن مستقر، لقد مرت عليهما السنوات وهما يبحثان، يشاهد الشجرة الكبيرة بثمارها العظيمة، يشير الرجل نحو الشجرة وعلى وجهه ترتسم ملامح الراحة بعد طول عناء، بلا كلمات تفهم السيدة أن هنا المستقر ..

تهرول نحو الشجرة .. تتناول ثمرة .. تتأملها في راحة يدها .. تتذوقها بهدوء ثم تأكلها بنهم .. ضاحكة تستدعي زوجها، تلقي نحوه بالثمار .. تضحك بسعادة .. يأكلون .. أيام تمر .. كثيرة الثمار بنات نفس البذرة .. لكل ثمرة روعة خاصة، تُعيد إلى وجهيهما النضارة وإلى جسديهما القوة .. بُنيت الأجساد .. انتفخت بطن السيدة بحملها.

تتكاثر الأشجار .. تتزايد أعداد الأبناء والأحفاد .. و..

بعد آلاف السنين يصل النسل عشرات الملايين..

لكل نفس منهم رغباتها وأطماعها وإن كانوا لا يدركون أنهم جميعًا طعموا ثمار بذرة واحدة.

***

Scanned by CamScanner

ومثل الشهب في سرعتها نعود من عمق الزمن

إلى زماننا هذا

و لكن بالتحديد

قبل ستة أشهر من ذلك اليوم الرهيب

اليوم الأخير

Scanned by CamScanner

1

تُلقي شمس هذا اليوم بأشعتها لتغمر المكان، تنشر البسمة على الوجوه، نسمات صيفية رقيقة تصافح المارة، ترفرف طيور مختلفه فوق صفحة النهر القريب، سيارة فارهة ذات نوافذ زجاجية سوداء تقف أمام مبنى قناة «الأمل» الفضائية، يُفتح الباب ببطء، يشاهد مَن يسير بالقرب في هذه اللحظات ساق بيضاء ملتفة بسيور سوداء رقيقة ممتدة من الحذاء وحتى الركبة ثم تعقبها الساق الأخرى، يُفتح الباب عن آخره كاشفًا عن جمال غير عادي، فإن رفع المار نظره ليرى ما فوق الساقين شاهد قطعة من ثياب سوداء تُبرز في تنافر لذيذ جمال اللون الأبيض، تُواري هذه القطعة تفاصيل ظاهرة في منطقة الوسط لضيق شديد مقصود، بعد ذلك يظهر صدر مكشوف إلا من خصلات رقيقة متناثرة من شعر أسود لامع.

كانت هذه هي «هناء السعيد» المذيعة في قناه الأمل الفضائية، عُرف عنها تلك العادة في ارتداء الثياب التي تُظهر جمالها وإن كانت

Scanned by CamScanner

في الصباح.. وهذه الملابس بالتحديد هي نفسها التي سوف ترتديها في ذلك اليوم الرهيب .. اليوم الأخير .. وما أقربه لو تعلم.

يتعاون أكثر من فرد من رجال أمن القناة في مساعدة هناء السعيد، يحمل أحدهم حقيبة أوراقها، يسير آخر إلى جوارها ليحدثها في أي شأن، بينما يسير خلفها ثالث وهو لا يدري لماذا يسير هكذا، عمومًا كان هدفهم جميعًا واحدًا، وهو التواجد إلى جوارها.

الحقيقة أن هناء تدرك ذلك، بل وتسعد به، تعتبره شيئًا من تفاصيل حياة المشاهير ونجوم المجتمع،كثيرًا ما كان ذلك يُرضي بداخلها نزعات ما، ويروي ظمأ طالما حُرمت منه.

كثيرًا ما كانت تقف أمام مبنى القناة وحولها دائرة بشرية تزداد اتساعًا رويدًا رويدًا، ودائمًا تكون لبنات هذه الدائرة من الرجال، يتحدثون إليها بشأن قضايا عامة أو خاصة وهي تنصت لهم باهتمام ظاهري. أما عن داخلها في مثل هذه الدقائق، كانت تشرد بعيدًا لتشاهد هذه الطفلة التي لم تتخطَّ الثامنة من عمرها.

«هناء السعيد» طفلة ترتدي قميصًا متسخًا، ممزق الياقة، بنطلونًا أسود به عدة ثقوب تُظهر أجزاء من جسدها الأبيض، لم تكن تعلم في طفولتها أن مثل ذلك البنطال الممزق سوف يتحول إلى أحدث صيحة في عالم الأزياء، وأن الثقوب سوف تصنع بعناية كي تُظهر أجزاء بعينها من أوراك الفتيات.

الوقت شديد الحرارة، تقف الطفلة، بشعرها المرسل في خصلات ملتصقة من أثر الاتساخ بأتربة الشوارع، في إشارة المرور تعرض بضاعتها من المناديل الورقية تستعطف هذا وتتباكى أمام آخر حتى تنطلق الإشارة. تذهب كي تلتقط أنفاسها في ظل شجرة صغيرة توقف نموها عند هذا الحد منذ سنوات، فإن رأت أحد المارة وقفت أمامه تعرض عليه ما تحمله وهي تتمتم بعبارات مبهمة في مجملها تشير إلى رغبتها في الحصول على طعام وشراب .

ذات يوم كانت تستريح أسفل تلك الشجرة تتأمل المارة وتتذوق طعم حبيبات عرقها، يمر طفل في مثل عمرها حاملًا على رأسه طاولة مصنوعة من الجريد عليها عدد من أرغفة الخبز الأسمر، يشرد الصبي لحظات، يتعثر في حجر ملقى، وما أكثر الأحجار الملقاة في شوارعنا، يسقط وتتناثر الأرغفة على الأرض، تقف الطفلة بسرعة وقد وضعت حملها من المناديل بجوار الشجرة، تجمع الأرغفة وتناولها للولد الذي يحبس دموعه خوفًا من عقاب منتظر، يضعون الأرغفة على طاولة الجريد، تعاونه حتى يضعها على رأسه بلا كلمات، يقف لحظة مفكرًا ثم يمد يده أعلى طاولته ليسحب رغيفًا، يمد يده برغيفه إلى الطفلة التي كانت تلتفت عائدة إلى بضاعتها الملقاة أسفل الشجرة، يناديها فتلتفت، تشاهد الرغيف، تمد يدها بإشارة رفض وعلى وجهها ابتسامة هادئة ممتنة، يلح الفتى صامتًا أن تأخذ رغيفه، تأبى هي صامتة وترد يده، لم يتحدثا بكلمة، يبتسمان، يرحل الصبي، تعود إلى بضاعتها. يتحاشى أحد المارة كسرات الخبز المتخلفة عن سقوط الطاولة، بعد أن يخطو

Scanned by CamScanner

خطوتيـن يعود لينحني كـي يجمع فتات الخبز، يجمعه في يده كي يُلقيه في جانب خشـية أن تدوسه الأقدام، لكنه بعد ثلاث خطوات يعدل عن فكرة إلقاء الكسرات في جانب، يرفع يده إلى فيه، يمضغها في هدوء.

الحقيقـة كانـت هناء تمتلك شـيئًا خفيًا لـم تكن تدركه آنـذاك، ولم تدركه أمها التي كانت تدفعها لتسـرح بين إشـارات المرور بعد عودتها من المدرسة التي ألحقتها بها بعد إلحاحها.

هـذا الشـيء الخفي يجعـل الفرد دائمًا يشـعر بصدق هناء السـعيد، وكان ذلك سببًا مباشرًا لعودتها في نهاية كل يوم بمبلغ من المال يصل إلى أضعاف ما يُحصِّلُه أقرانها.

نمـا هـذا الشـيء بداخلها مـع نموها، ففي الدراسـة كانت تسـتطيع بمجرد حديث بسيط مع المدرسين أن تحظى باهتمامهم الكامل، حتى إن بعضهـم كان يدعوهـا للـدرس الخصوصـي مجانًـا، الجميع يعرف ظروفها المادية التي لم تسـتح أبدًا من سـردها أمامهم، حيث تقف برقة حزينة ونظرات كسـيرة كي تحكي، ببراعة حكاء، مأساة أمها في تربيتها هـي وإخوتها بعدما هجرهم الأب، مما اضطـر الأم للعمل في المنازل كي تستطيع تربيتهم.

يسـتمر الحال على هذه الصورة طوال السنوات التالية في حياة هناء السعيد حتى نهاية المرحلة الثانوية، هنا بالضبط تحولت هناء تحولًا بدا وكأنه وليد المصادفة، لكن الحقيقة أن هناء كانت تخطط له من سنوات طويلة، وكان أول ما فعلته هو الابتعاد بشـكل كامل عن حياتها السابقة،

ففضلت الالتحاق بجامعة إقليمية وسـكنت في مدينتها الجامعية، ومع بداية مرحلة الجامعة، بدأت مرحلة جديدة من حياة هناء السعيد و...

يخرجهـا من ذكرياتها هـذه أحد الواقفيـن حولها أمام مبنـى القناة، يناديها بأن عليها الصعود فسـوف تتأخر عن إذاعة الهواء، تضحك هناء موزعـة ضحكتها على من حولها وهي تسـتأذن في الصعود مجيبة على بعـض الأسـئلة بإجابات عامـة كلها وعـود بحل كل المشـكلات التي عُرضت عليها، سـوف تتحدث إلى المسؤولين في هذا الشأن، الحقيقة التي لا يعلمها هؤلاء أن هناء لم تع ولو كلمة واحدة عن مشاكلهم، فهي لـم تنصت لهم، وإن حدث وسـألها أحدهم مـرة أخرى عن طلبه، فإنها تَعِده مرة أخرى ثم تنسى، وهكذا حتى ييأس تمامًا، وإن لم يحدث مثل هـذا اليأس ويلح الرجل، تخبره هناء بـأن الأمر في طريقة للحل وذلك بعـد أن تحدثـت مع المسـؤولين، وبطبيعة الحال يسـأل هـذا الفرد عن اسـم ذلك المسـؤول الذي تتحدث عنه هناء، بلباقتها المعهودة المزينة بابتسامة تتهرب من الإجابة؛ لأن ذلك يعتبر من الأسرار الشخصية التي يحرص هذا المسؤول على عدم إفشائها، وقد يحدث أن تُحل المشكلة لأي سـبب من الأسباب فيأتي الرجل شاكرًا هناء على جهودها في حل المشـكلة والتـي غالبًـا لا تتذكرها، لكنها تعلمت من خـلال تكرار مثل هـذه الأمـور أن تجيـب بإجابات عامة «لا شـكر على واجـب». يعيش صاحب المشـكلة لحظات سـعادة، بعد أن حُلت مشـكلته، ينشر الخبر بين الجميع بأن هناء السـعيد هي سـبب سـعادته، تزداد بعد ذلك شهرة وصيتًا، ذاك يشبع بداخلها رغبات.

Scanned by CamScanner

حدث منذ فترة ليست ببعيدة حينما أنهى السباك بعض أعمال الصيانة في حمام شقتها، تُقدم له هناء المبلغ المتفق عليه حينما همَّ ليرحل، الرجل لم يكن يعلم مع مَن يتعامل لحظة الاتفاق عبر الهاتف، أما الآن وقد علم مَن هي هناء وكيف هي علاقاتها من خلال ما سمعه منها وهي تتحدث إلى آخرين عبر الهاتف، كان صوتها وضحكاتها يصلانه بوضوح، تمتلك جرأة الواثق صاحب الأرصدة، والأرصدة ليست في البنوك فقط، قد تكون في القلوب وفي العقول وفي رغبات وشهوات الكثير. يرفض السباك أن يتقاضى المال، بنظرات كسيرة كلها أمل يطلب منها أن تتوسط لابنه في دخول كلية الشرطة، لقد أنهى دراسته الثانوية هذا العام، لكن لابد من وسيط ولابد من مبلغ كبير، وهو لا يملك المال أو يعرف وسيطًا من الكبار، لكن القدر وضعها في طريقه، وهي صاحبة القلب الكبير وابنة الأصول والتي لن ترفض مساعدته هو وابنه ولن تتركهم يتجرعون مُر الذل حتى نهاية العمر. يُكثر الرجل من كلمات الاستعطاف والمدح حتى لا تجد هناء مفرًّا من أن تأخذ بيانات ابنه، تَعِده بأنها سوف تتحدث إلى أحد كبار قيادات الشرطة، وقد يتاح لها لقاء مع السيد وزير الداخلية قريبًا وسوف تعطيه هذه الورقة التي تحمل بيانات ابنه.

يعود الرجل سعيدًا إلى منزله ليخبر زوجته ويبشر ابنه، يمتلئ البيت بسعادة مستمدة من مستقبل زاهر لهذا الابن الذي يسحب ملف التقديم

للكلية وبداخله يقين لا نهائي بالنجاح، ولِمَ لا ومنتظر وصول بياناته كاملة إلى السيد وزير الداخلية.

تمر أيام الاختبارات ثقيلة مرعبة، رائحة التوتر الممزوج بالأمل تملأ منزل السباك، حتى يأتي يوم إعلان النتيجة النهائية، ينجح ابن السباك ويلتحق بكلية الشرطة، بعد أن تنتهي الأم من الزغاريد والرقص على عتبات المنزل وهي توزع المشروبات المثلجة على الجميع تعود بصوت مبحوح إلى زوجها، تقول:

- يجب أن تذهب إلى الأستاذه المذيعة «هناء» لتشكرها.

يجيبها بأنه سيفعل ذلك في الصباح، مشكلتهم كانت في الهدية التي يجب أن يحملها معه، بعد طول تفكير اتفقا على أن يحمل «قفص مانجو» فاكهة الموسم.

كانت الساعة التاسعة صباحًا وهناء غارقة في نوم مثقل بالأحلام المزعجة بعد سهرة مع أشخاص ثِقال الظل وجوههم كالحة لا يميزهم بين بني البشر غير دفاتر شيكاتهم، تصحو هناء على صوت جرس الباب فتذهب بأقدام ثقيلة، وهي تضم الروب على قميصها الوردي الشفاف، تفتح الباب وقد ركنت رأسها على حافته لتفاجأ برجل يحمل على كتفه «قفص مانجو» وعلى وجهه ابتسامة باتساع الكون، علامات الاستفهام تتراقص على وجه هناء، مَن الذي يرسل لها هذه الفاكهة كهدية مبكرًا؟

نعم .. لم تتذكر وجه السباك، لقد نسيته بعد أن خرج من عندها، فقد أغلقت خلفه الباب وعادت إلى تليفونها المحمول باحثة عن أحد

Scanned by CamScanner

ضباط الشرطة، بعد فترة بحث وجدت أكثر من اسم كانت تتبادل معهم الأرقام لحظة اللقاء ثم تنسى مع الأيام، اختارت أحدهم لتتصل به وتخبره عن أمنية السباك في إلحاق ابنه بكلية الشرطة، يأتيها صوت الضابط ممزوجًا بضحكات ساخرة وهو يخبرها:

- ابن السباك يكون سباك .. إحنا عندنا أزمة سباكين في البلد يا هناء هانم.

بعد حديث في أمور كثيرة بعيدة عن السباك وابنه تُنهي المكالمة وتلقي بالورقة التي تحمل البيانات في سلة المهملات في المطبخ، وتلقي بالموضوع في سلة مهملات ذاكرتها.

الآن تتساءل أكثر:

- ماذا تريد؟

تتوارى الابتسامة لحظة على وجه الرجل، لكن سعادته الغامرة تجعله يلقي باللائمة على نفسه، كان يجب أن يتصل مسبقًا ليحصل على موعد، أو لا يأتي مبكرًا هكذا. لكن فرحته قد أنسته ما يجب أن يكون. عمومًا تعود الابتسامة إلى وجهه وهو يضع حمله على الأرض في المنطقة الفاصلة بينه وبين هناء، يخبرها بنجاح ابنه والتحاقه بكلية الشرطة وأن الفضل يعود لها.

تتذكر هناء السباك وابنه دفعة واحدة، تصعقها المفاجأة، نجح الابن والتحق بكلية الشرطة؟! كيف؟! هي لم تتصل بأحد، وها هو الرجل يؤكد أنها الوحيدة التي تدخلت من أجل ابنه، ولم يدفع مالًا، كيف

تحققت تلك المعجزة ونجح الابن؟! هناك حالات نادرة الحدوث وظواهر خارقة للطبيعة تحدث كل فترة من الزمن، يبدو أن نجاح ابن السباك كان إحدى تلك الحالات النادرة ويُعد من الظواهر الخارقة للطبيعة.

تمط هناء شفتيها ولا تجد ما تقوله، هي لن تخبر الرجل بما حدث، ولن تقول بأنها لم تتدخل من أجل ابنه، إنما رسمت ابتسامة بدت واهية وهي تبارك له، ما فعلت غير الواجب وما يمليه عليها ضميرها، هو رجل طيب وابنه يستحق النجاح؛ لأنه اجتاز الاختبارات بدرجات مرتفعة. تطلب من الرجل أن يحمل فاكهته إلى المطبخ ثم يغادر مصحوبًا بتهنئة حارة تستطيع هناء أن ترسم تفاصيلها على لوحة وجهها ببراعة، ينصرف الرجل الذي يُمحى من ذاكرة هناء حتى وهي تلتهم فاكهته.

دلفت هناء إلى المصعد ملقية تحية الصباح إلى عامله بشكل آلي، تتأمل تسريحة شعرها وتفاصيل المكياج في المرآة، حاولت رسم ابتسامة جديدة، لاحظت جمالها فعضت على طرف شفتها السفلى فازدادت جمالاً وأنوثة، فقررت أن تكون هذه الابتسامة مصحوبة دائمًا بعض الشفة السفلى، لكن عليها فقط أن تحدد الوقت والمكان المناسبين لاستخدام هذه الابتسامة الأنثوية الطاغية ..

ابتسمت وقررت أن تفكر في مثل هذا الأمر في فترة الظهيرة، فلديها الوقت الكافي لترتيب مثل هذه الأمور.

***

Scanned by CamScanner

2

وكأن هناك نشاط آخر تمارسه أرواحنا حال ذهاب الأجساد في نومها العميق، تلهو الأرواح، تتفاعل، تمارس تفاصيل لا علم لنا بها، بالكاد نشاهد القليل من طقوس أرواحنا بشكل مبهم مطموس، ذاك ما نطلق عليه الأحلام.

فإن كانت رحلة الروح إلى أرض خوف ورعب استيقظ صاحبها مفزوعًا، أما إن كانت رحلتها تتسم بالحيوية والنشاط فصاحبها يستيقظ على أفضل حال.

ذاك ما حدث مع «فؤاد هاشم» هذا الصباح حينما استيقظ ليجد بداخله طاقة غير معهودة، يخرج بنشاط غير عادي من تحت الغطاء، يقف مرة واحدة، حالة النشاط هذه سوف تلازمه خلال الشهور القليلة المتبقية .. وسوف تكون طاقته تلك، لها نتيجتها العظيمة خلال ذلك اليوم الرهيب.

يُلقي نظرة سريعة على نفسه في المرآة، لم يتأمل طويلًا، فقد جذبت زوجته، التي ما زالت تغط في سباتها، اهتمامه. عيناها ليستا مغلقتين بشكل تام، شعرها الذهبي مبعثر على وجهها وجزء كبير من الوسادة، أنفاسها كانت في هذه اللحظات غير منتظمة الإيقاع ففطن أنها تحلم، يركز في ملامح وجهها محاولًا أن يستشف طبيعة الحلم الذي يراود زوجته، كثيرًا ما كان يوقظها إن كانت قسمات وجهها توحي بنوع من الألم، أما إن كانت هناك ابتسامة أو حتى هدوء في عضلات الوجه فكان يتركها لتكمل حلمها.

في هذه المرة كانت زوجته هادئة الملامح، يتركها ويتناول جاكت البيجامة من فوق شماعة خلف الباب، دائمًا ما يفضل النوم بملابسه الداخلية فقط حتى في أكثر الأيام برودة. يخرج من حجرة النوم إلى الصالون حيث النافذة التي يُفضل الوقوف أمامها دقائق يستنشق هواء الصباح المعطر بروائح النباتات المختلفة، يبتسم وهو يلقي تحية الصباح دون أن ينطق بها على هذه الشجرة التي يشعر دائمًا بأنها تبادله التحية والابتسامة،إعجابه بها ينبع من شموخها، وإن كان لا يدري مبعث هذا الشعور لكنه ارتاح لذلك فتعامل معه راضيًا.

تمطى فاردًا ذراعيه إلى أعلى مالئًا صدره بالهواء، يزفر بهدوء وقد شعر بانتعاش، يمد يده ليغلق النافذة لكنه يتوقف عندما يشاهد غرابًا يهبط بهدوء فوق غصن الشجرة بالقرب منه، يتأمل الغراب في هبوطه الهادئ وتناسق ألوانه الرمادية الممزوجة باللون الأسود، يبتسم له

Scanned by CamScanner

لحظة ثم يمط شفتيه متعجبًا من هذا الكم من الأقوال التي نُسِجَت حول الغراب من الشؤم وغيرها، يقال إن صوته قبيح، لكنه لا يجد فيه أي قبح، مجرد صوت تم ربطه بالغراب نذير الشؤم فكان الصوت قبيحًا، والغراب شكله جميل، ترى لو كان لونه أبيض بدلًا من تلك الألوان القاتمة، هل كان سيُعامل بنفس المعاملة؟! كثيرون يحملون صفات أسوأ مما يُنعت بها الغراب، بينما يرتدون أردية بيضاء.

راقته فكرة أن يكون هناك غراب أبيض، يبتسم ولم يشعر بنفسه وهو يرفع يده ليلقي بالتحية مودعًا بها الغراب كي يغلق النافذة، لكن الغراب تلقى التحية بمفهوم آخر فيطير هاربًا تاركًا المكان، يغلق فؤاد النافذة، يقول في نفسه:

- قد يأتي يوم تفهم فيه تحيتي.

لا يدري لماذا توجه ناحية جهاز الكمبيوتر، يفتحه .. يتركه لحظات يجهز فيها مشروب النسكافيه المفضل لديه صباحًا، يعود إلى الكمبيوتر ليتوغل إلى عقل العالم عبر شبكة الإنترنت، يكتب في بحث google "الغراب" في لحظة واحدة تظهر أمامه مئات المواقع التي تحمل معلومات عن الغراب، يختار من بينها موقعًا بدا مألوف الاسم، يفتح الموقع ثم يقرأ بعينيه سريعًا الكثير من المعلومات عن الغراب، أكثر ما جذب انتباهه، حتى إنه كان يحتسي مشروبه بدون أن يشعر بلذته، دراسة كاملة عن الغراب، تحتوي على فقرة بعنوان "محكمة الغربان" .. يقرأ بعينيه السطور الأولى حتى يفاجأ بمعلومات كثيرة لم يتخيلها

من قبل عن الغربان التي تعيش في جماعات لها قوانينها وأنظمتها، وأن لها محاكم تلتزم قوانين العدالة الفطرية، تحاكم الجماعة فيها أي فرد يخرج على نظامها، مثل محاولات التعدي على حرمات غراب آخر من أنثى، أو فراخ، أو عش، أو طعام، ولكل جريمة عند جماعة الغربان عقوبتها الخاصة بها، ففي حالة اغتصاب طعام الفراخ الصغار تقوم جماعة الغربان بنتف ريش الغراب المعتدي حتى يصبح عاجزًا عن الطيران كالفراخ الصغار قبل اكتمال نمو ريشها. وفي حالة اغتصاب العش أو تهدمه في مراحل الدفاع عنه تكتفي محكمة الغربان بإلزام المعتدي ببناء عش جديد لصاحب العش المعتدى عليه، وقد يتبع ذلك الطرد من الجماعة إذا تكررت الأخطاء من هذا النوع، وفي حالة اغتصاب أنثى غراب آخر فإن جماعة الغربان تقضي بقتل المعتدي ضربًا بمناقيرها حتى الموت، وتنعقد محاكم الغربان عادة في حقل من الحقول الزراعية أو في أرض فضاء واسعة، تتجمع فيه هيئة المحكمة في الوقت المحدد، وينحو الغراب المتهم تحت حراسة مشددة، وتبدأ محاكمته فينكّس رأسه، ويخفض جناحيه، ويمسك عن النعيب اعترافًا بذنبه، هذا يثبت مما لا شك فيه أن الغربان طيور ذكية،لا تقبل الظلم لأفراد مجتمعها حتى لو كان المعتدي فردًا من هذا المجتمع.

يمط شفتيه وقد أثارته تلك المعلومات .. لو أن القانون يُطبق بمثل هذه الدقة بين بني البشر، لما وصلنا إلى ما نحن عليه، لكن .. وهنا ترتسم على ملامحه علامات حزن لا تجد بداخله قوة ترتكن إليها، .. لكن القانون الموجود بالفعل هو قانون مطاطي، يهدهد فئة ويقسو على فئات أخرى.

Scanned by CamScanner

يغلق الكمبيوتر .. يحاول الخروج من تلك الدوامة، يستخرج ملابسه بهدوء من الدولاب ويرتديها في الصالة.

ينتهي من طقوسه الصباحية اليومية، يتعطر، يخرج في هدوء تام كي لا يوقظ زوجته، يدرك بحكم العادة أنه ما إن يصل إلى الشارع حتى يسمع صوتها الناعس الحالم يأتي من فتحة صغيرة من النافذة:

- الأكل يا فؤاد ؟
- أكلتُ وشربت .. أكملي نومك .. سلام ..
- لقد صحوت ..(تتثاءب)

تودعه بحركة ناعسة من يدها اليمنى بينما اليسرى تغلق النافذة، ينطلق في طريقه مدركًا أنها سوف تعاود النوم، تغرق في أحلامها، وعندما يعود من عمله سوف تخبره بأنها ما ذاقت للراحة طعمًا منذ أن استيقظت في الصباح، بعدها تحدثه عن حلمها الذي لم يكتمل، عبر ابتسامة توحي بجمال الحلم:

- ليته اكتمل ..

ثم تتوقف لحظة منتظرة أن يسألها عن حلمها، لكنه لن يسألها، فتكمل حديثها بشكل طبيعي وترسم على وجهها علامات حالمة وكأنها فراشة تلهو بين وريقات الزهر:

- لم يكتمل .. لكنه كان جميلًا .

كانت تود أن يسألها كي تخبره بكل التفاصيل الدقيقة، فؤاد يدرك طبيعتها هذه وأن مثل ذلك يشعرها بنوع من الرضا النفسي، فكان يفعله عن طيب خاطر إذا كان معتدل المزاج، فيسألها محاولًا أن يواري

ابتسامته العريضة بينما هي تحاول أن تجعل إجاباتها على أسئلته هي نفسها ما كانت تريد أن تحدثه به، وأكثر من مرة استطاع أن يُمسك ولا يسألها شيئًا ألبتة، فكانت تحول دفة الحديث، أي حديث، نحو ما تريد أن تخبره به، لكن بشيء من الضيق يعكر صفو الروح المرحة السعيدة التي تنتابها إذا هو سألها، هذا ما كان يجعلها بعد وقت قصر أم طال أن تنفعل قليلًا، قد يزداد هذا الانفعال ويتحول إلى شجار، لذا كان فؤاد يفضل ألا تصل زوجته إلى هذه المرحلة، فيسألها ليتقي شر انفعالها.

يصل فؤاد إلى عمله، يوزع ابتسامات الصباح، يضع متعلقات يده فوق سطح المكتب ثم يتوجه إلى الحمام المجاور، يحمل حفنات الماء ليغمر بها وجهه أكثر من مرة، يشعر بعدها بهدوء شديد.

يعود إلى مكتبه، يجلس دقائق حتى تنتظم أنفاسه يكون خلالها مصطفى، ساعي مكتبه، قد أتاه بقهوة الصباح، يضعها مستفسرًا هل من طلبات أخرى، يشكره فؤاد بابتسامة عريضة وهو يرتشف أولى دفقات القهوة ويملأ صدره برائحة البن النفاذة.

يعود مصطفى إلى مقعده أمام باب حجرة المكتب، يُخرج تليفونه المحمول ليعبث به ويستمع إلى نغماته، قلما يتصل به أحد، حتى إن أيامًا تمر دون أن يسمع له حسًّا فيجلس هكذا ويشغل نغماته مشاهدًا ردود أفعال المارة من أمامه ..

تدلف في هذه اللحظات، إلى حجرة المكتب، صفاء هلال زميلة فؤاد في العمل، يرتجف قلب فؤاد لحظة، يتأمل في ثناياها الدقيقة من

Scanned by CamScanner

أمام ومن خلف مستنشقًا عطرها الرائع الذي لم تستح أبدًا من إغراق نفسها به كل صباح، يغمرها بابتسامة عريضة متمنيًا للحظة أن يغمرها بقبلاته، يضمها إلى صدره، يذوب فيها.

يعود إلى الواقع على نقر تحيتها التي تكررها للمرة الثانية أو الثالثة بابتسامة توحي بأنها تدرك ما يفكر فيه الآن، تُشعره من خلال ابتسامتها أنها توافق بشكل مبدئي على أفكاره نحوها، يشعر بها تتوجه إليه برسالة فكرية، جملة بلا كلمات تقول فيها: أوافق طالما كانت أفكارًا ولم تتجسد على أرض الواقع.

تتوجه إلى مكتبها محاولة أن تعطيه الفرصة المناسبة كي يلتهمها من الخلف بنظراته الملتهبة. مثل هذا الإطراء ولو بمجرد النظرات، كثيرًا ما كان يرضي غرور صفاء هلال، في أحيان أخرى كانت تُعرض عنه تمامًا وتنهمك في عملها، في دقائق متفرقة على مدار اليوم أو على مدار الشهر ووفقًا لحالتها النفسية، كان هذا الإطراء الهادئ لا يشبع غرورها، فكانت تطلب المزيد وإن وصل إلى حد الغزل المحسوس فتتصنع أي موقف يجعل فؤاد، وفؤاد بالذات، أن يمس أي جزء من جسدها، بدون قصد بطبيعة الحال، ثم تشاهد بسعادة لا توصف أثر ذلك عليه ومحاولته التمادي مفتعلًا حركات أخرى أو ...

في هذا الصباح كانت صفاء هلال تحتاج إلى مثل هذا الإطراء الجسدي، سعادتها بلغت قمتها حينما وصلت إلى حجرة المكتب وألفت فؤاد وحيدًا، شعرت بارتعاشة لذيذة تسري في جسدها، دبيب ووخز

هادئ، نظرتْ نحو فؤاد تتفرسه، يزداد الدبيب والوخز و..

خارج حجرة المكتب كان يجلس العامل مصطفى منهمكًا في العبث بتليفونه المحمول ومحادثة أقرانه في أمور عامة وخاصة، يتأمل المارة أمامه في الطرقة الطويلة خاصة حينما يستمع إلى دقات حذاء حريمي تقترب فيذهب بنظره إلى مصدر الصوت، يتفحص القادمة من أمام حتى تمر به، ثم يتبعها من خلف بشوق وحسرة، يمصمص شفتيه معبرًا عن شهوات داخليه كامنة، وإذا كانت المارة من أمامه من المشاهير، يقف لتحيتها، يحاول بأية طريقة التحدث إليها، تصل سعادته إلى ذروتها إن هي أجابته من قبيل المجاملة أو خوفًا من أن يُقال عنها أنها متعجرفة، لكن مصطفى يأخذ هذا الحديث على أنه لشخصه وأنه يستحق مثل هذا الاهتمام،يتحدث عن ذلك باستمرار، عندما يعود في نهاية اليوم، أمام زوجته، أولاده، أمام رواد مقهى الساحل الذي يذهب إليه مساء كل يوم، يبذل جهدًا كي يدير دفة الحديث ناحية تلك السيدة المشهورة التي تحدث معها اليوم، جاعلًا الأمر وكأنه قد حدث بشكل عفوي فيتمطع ويعلق بلامبالاة مصطنعة بأن هذه النجمة كانت معه في الصباح.

يكون في منتهى السعادة عندما يهتم الآخرون بمثل هذا الحديث ويطلبون منه المزيد حيث يفتح أحدهم الباب أمام مصطفى ليتمادى في كذبه فيسأله عن النجمه «فلانة أو علانة». ينظر مصطفى في عدة اتجاهات قبل أن يجيب وكأنه يستجمع الإجابة، الواقع أنه كان يحبك كذبة جديدة ينسجها في خياله، فهو لم يقابل هذه أو تلك، يأبى أن يقول

Scanned by CamScanner

الحقيقة، فيحكي أنه التقى بهذه النجمة التي كانت تتعامل معه من عل، لكنه استطاع بأسلوبه الخاص أن يجعلها تحترمه وتقدره وتسأل عنه في حال غيابه، كان يؤكد صدق حديثه هذا من خلال بعض الهدايا الموجودة في حوزته من قبيل نتائج وأجندات تحمل توقيع النجمات والتي تظل في حوزته طوال العام كشاهد، أما عن حقيقة الأمر فكان دائمًا ما يُلح في طلب مثل هذه الهدايا.

ينتبه مصطفى وبشكل مفاجئ إلى أنه لا يسمع أي أصوات داخل المكتب، يعتدل واقفًا، يفتح باب الحجرة دون أن يطرقه ويدخل، كانت صفاء هلال تجلس خلف مكتبها تنظر في مرآة صغيرة أخرجتها من حقيبة يدها. الأستاذ فؤاد يجلس خلف مكتبه هو الآخر، وإن كان قد ظهر عليه أثر الإرهاق لاطلاعه على العديد من الأوراق خلال المدة الماضية ومحاولته التركيز الشديد لوضع خطة لبرنامج جديد.

يبتسم مصطفى في داخله، في لحظات ينسج قصة سريعة سوف يستعين بها الليلة ليؤكد هيبته وسعيه الدائم من أجل الحفاظ على الشرف، تجري الجمل على لسانه بسرعة شديدة حتى إنها لم تخرج وإنما استمع إليها في خياله وكانت:

- لو تركتهم أكثر من ذلك ..ربنا وحده أعلم بما كان سيحدث أكثر مما حدث؟! الهانم تجلس أمام المرآة لتعدل من وضعها وكأن شيئًا لم يكن، والثاني يجلس ووجهه أحمر من الانفعال .. ويتأمل الأوراق وكأنه يعمل بجد. هذا ما قرر مصطفى أن يتحدث به الليلة

وقد تكون للقصة أوجه أخرى عندما يأتي المساء، ليفعل خياله ما يريد.

يشعر فؤاد بوجوده فيطلب كوبًا من الشاي، يضحك مصطفى وهو يلقي بجملة تخيل أنها ستوضح أمام الجميع بأنه على علم بكل ما يحدث، فليس هو ذلك الشخص المغفل الذي لا يرى ما يحدث خلف الأبواب:

- كوب ليمون أفضل يا أستاذ فؤاد ؟

يرتاب فؤاد للحظة في مغزى الجملة التي ألقاها مصطفى لكنه لم يصل إلى المعنى الحقيقي الذي كان يرمي إليه، يتخطى لحظة الريبة هذه خاصة عندما يكمل مصطفى:

- حضرتك .. شارب قهوة حالًا ..

يوافق فؤاد على الليمون، يشير بحركة من يده راسمًا بها على الهواء نصف دائرة تبدأ من ناحية صفاء ثم تنتهي أمام مصطفى:

- صفاء .. ليمون؟

لا تجيب بكلمات، إنما بإيماءة خفيفة من رأسها ثم تستمر في متابعة تأنقها أمام المرآة، يخرج مصطفى ليأتي بالمطلوب وهو يقول لنفسه: لا تجد قدرة على النطق بكلمة واحدة، داخلها مشتعل.

يترك فؤاد الأوراق أمامه لحظات، يتابع صفاء في حركاتها الدقيقة وهي تمسح بيدها على وجنتيها في رفق ثم تسحبها فوق الحاجبين الدقيقين، تكرر هذه الحركة أكثر من مرة، تزم شفتيها فتبدوان مخمليتان

Scanned by CamScanner

كما وريقات الزهر القرمزي، يتعجب لحظة حينما يتذكر أن هذا اللون القرمزي الرائع، الذي تطلي به صفاء شفتيها لتجعلهما قبلة لوله مثله، مأخوذ من دودة حرشفية تدعى «قرمزية».

يشرد لحظات وما تزال عيناه معلقتين باللون القرمزي على شفتي صفاء، تلتفت نحوه بحركة خفيفة عفوية، تلاحظ نظراته المصوبة إليها، تبتسم ابتسامة عذبة غير خجلى، ولمّا لم يغير فؤاد نظراته كرد فعل لابتسامتها أدركت أنه شارد رغم نظراته إليها فباغتته:

- فؤاد .. فؤاد ..؟!

يرتبك فؤاد للحظة، يبحث عن الكلمات ليصوغ منها جملة معبرة، تاهت الكلمات بين سطور قاموسه، فأتت غير مستقرة:

- أنا .. أنتِ .. سرحان .. ماذا لديكِ اليوم من أعمال؟

تغمره صفاء بابتسامة حمّلتها معنى كاملًا، مضمونه ألا يخجل، عليه أن يتحدث بكل ما يشعر به، هي تفضل مثل هذه الأمور ولكن إلى حدود معينة، بالنسبة لفؤاد كانت تدرك تمامًا أنه يعرف الحدود ويتوقف عندها أو إن أردنا الدقة فهي تعرف تمامًا أن قدراته وشطحاته مهما كانت، لن تصل إلى هذه الحدود التي تضعها صفاء لنفسها، لذا لم تكن تخشى نظراته المتفرسة، بل تطلب المزيد منها إن أتيحت الفرصة، ومثل هذه الفرصة قد حانت في هذه اللحظات فوقفت صفاء وسارت بخطوات هادئة حتى اقتربت من مكتب فؤاد وانحنت في مواجهته تحدثه في أمور عملها، وتأخذ رأيه في أمور بديهية.

لم يلحظ فؤاد أن هذه الفتحة الصغيرة التي شاهد منها أعلى نهير صدر صفاء، قد صنعتها بعناية وإتقان حتى تبدو وكأنها جاءت عن طريق الصدفة، وهذا ما جعله بشكل عفوي يرتفع بنظره ليشاهد من خلال هذه الفتحة أقصى عمق في هذا النهر، لكنه استعاد رباطة جأشه وأبعد سهام نظراته شاعرًا بخجل عظيم عندما تخيل أن صفاء سوف تلاحظ نظراته نحوها المتلصصة، فمن اللائق أن ينظر إلى وجهها وهي تحدثه لا أن ينظر إلى أسفل هكذا، صفاء لم تدع له هذه الفرصة كي يفلت منها فسألته عن اتجاه نظراته بأسلوب يوحي بأنها قد تضايقت من إشاحته عنها بوجهه.

يشعر فؤاد مع كلماتها بلهيب رغبتها يمس وجنتيه ويداعب أوتارًا خفية جعلته يرتجف للحظة، فها هي تنهره عندما رفع نظراته عن صدرها، يبتسم ثم يقف ويستدير حول المكتب على أمل أن تعتدل صفاء وتواجهه ليكملا حديثهما، لم تعتدل متعمدة أن يشاهدها كاملة من الخلف .. تشعر صفاء فعلًا بنظراته الدافئة التي تحمل نيران الرغبة تغمرها.

قبل أن تقرر الوقوف لمواجهته تذكرت في لحظة خاطفة إعراض زوجها عنها ليلة أمس، هو بالضبط لم يكن إعراضًا بشكل مباشر، إنما كانت بين يديه، هي تريده، لكنها تمنعت ليطلبها أكثر، عندما طلبها أكثر تمنعت أكثر، لم يكن أمام زوجها إلا أن يأخذها عنوة وهذا ما خشيه الزوج فرفض أن يقدم على مثل هذه الخطوة لئلا يضايقها، فآثر الابتعاد.

Scanned by CamScanner

مـن ناحيتهـا هي لـم تطلبه أبـدًا وتتركه يحتـار في أمرهـا، لا يعرف متى تريـده ومتى لا تريده فكان يطلبها عندما يريدها، هذا العيب تدركه صفاء في نفسها، ولم تستطع يومًا أن تغيره حتى وإن باتت ليلتها ملتهبة المشـاعر مكـدرة الصفو، وهـذا ما حـدث تقريبًا ليلة أمـس فلم يطلبها زوجها أكثر وأكثر ولم تعرض نفسها رغم رغبتها المتأججة.

الغريب أن صفاء تعلم جيدًا أن الأمر غاية في البسـاطة، ما عليها إلا أن تطلـب زوجهـا فيحقق لها كل ما تريده ويشـبعها حبًا، وهذا ما أجلته إلى مسـاء هذا اليوم وإلى أن يأتي هذا المسـاء وجدت نفسها تفعل مثل هـذه الحركات مع فـؤاد زميلها في العمل، حاولت الإمسـاك بأي لذة، شـعرت أنهـا مُقـادة إلى ذلك علـى غيـر إرادة منها لا تعـرف لماذا ولا تعرف متى النهاية؟! تشـعر بألم بسـبب هذا التضـارب الذي يعتمل في داخلهـا، تنحدر منها دمعة واحدة تمسـحها بظهر يدهـا برفق .. تحاول الابتسام، استغرقت وقتًا إضافيًا قبل أن تلتفت لتواجه فؤاد.

يعتقد فؤاد أنها تسـتعرض جسـدها أمامه، ما يحـدث يفوق قدراته، أقصـى مـا يمكنـه فعله في هـذا المجـال هو الكلمـة أو التلميـح، لكن المداعبـة من الخلف مثلًا وهي منحنية هكذا تعرض نفسـها عليه تعتبر أمرًا مسـتحيلًا، هـو أجبن من أن يفعل ذلك، يعلـل إحجامه هذا بخوفه مـن اللـه، مـن الناس، يخشـى أن يفعل ذلـك لأنه يتنافى مـع الأخلاق وحفاظًا على زوجته.. كان يرضى بهذا التفسير ويرتاح إليه.

الحقيقة أن مثل هذا التفسير كان يُخفي عدم امتلاكه للجرأة، ماذا لو كان جريئًا مثل بعض أقرانه وخاصة توفيق مراد؟ ماذا كان يفعل في مثل هذا الموقف؟

سأل نفسه هذا السؤال ذات مرة وكانت الإجابة ببساطة:

- أفعل ما أفعله الآن خوفًا من الله عز وجل وأحافظ على أهل بيتي.

تقـف صفاء، تواجهه لحظـة قبل أن تتحرك إلى حقيبـة يدها لتخرج المـرآة مـرة أخرى كي تشـاهد التغير الذي طرأ بعد هـذه الدمعة الفارة. يدخل العامل مصطفى حاملًا أكواب الليمون فوق صينية متسخة عليها قطـرات الماء المتخلف عن غسـيل الأكواب، يضع لهما المشـروبات وهـو يواري ابتسـامة، كان يدرك فـي أعماقه أنـه الآن يقف ليحل محل الشيطان فيكون هو ثالث الثلاثة، يضحك وهو يقول في نفسه:

- أخرج ليدخل شوشو ..

حتى الشـيطان لم ينجُ من سـخرية مصطفى فينعته باسم «شوشو» .. يخـرج ليجلس أمام باب الحجـرة وهو على يقين بـأن الأمور بالداخل مشتعلة جدًا.

***

Scanned by CamScanner

3

مهما كانت الرغبات، فإنها تتحقق، إن آمن صاحبها بأنه سوف يُحققها، لكن أمر تحقيقها يختلف من شخص لآخر، هناك من يتلمس أفضل الطرق، فإن صادفته أية عقبات انتظر راضيًا. وهناك من يبحث، مستميتًا، عن أية وسيل يحقق بها رغباته، مهما كانت تلك الوسائل.

من ذلك الصنف من البشر كان هذا الشاب المدعو «ممدوح يعقوب» شاب ريفي ناقم، يرفض كل ما يحوط به، يبذل قصارى جهده كي ينتقل إلى القاهرة .. العامرة بكل ما يتمناه، ينجح في ذلك، ينتقل إلى القاهرة، يعاني في البداية بسبب ارتفاع نفقات المعيشة، لكنه يتحمل.

قسوة الظروف تمر على مَن يرغبها، يُمرر يومه بلقيمات قليلة، يقتصد حتى يجد ما يدفعه لمسكنه وملبسه، عائلته في قريته «البندراية» لا تنتظر منه أي مساعدة بعد ما مر به من أحداث، اعتماده على ذاته والتحاقه بهذه الوظيفة يكفي، لا يريدون منه مقابلًا على ألا يريد هو منهم، لفظته عائلته فشعرت براحة تسري.

أما ممدوح الذي يشعر بهذا الكم الرهيب من المهانة، يُسقط قريته بكاملها من حساباته، لكنه لا يعلم أنه سوف يعود إليها مستقبلًا، بل سوف يطلب ود أهلها عندما يكتشف أنهم يملكون من الكنوز الكثير. بل إن أهم أحلامه لن يحققها له غير شخص من هذه القرية.

يستقر ممدوح، في وظيفته في القاهرة، بجسده المتوسط الطول، المتناسق،ملامحه رغم قساوتها تبدو على قدر كبير من الوسامة، يتعجب مَن يقترب منه، كيف يمتلك النقيضين!! يستطيع بجسده هذا، بعد فترة من تردده إلى عدد من مقاهي وسط البلد، أن يعقد صداقات مع عدد من الفتيات، وبجوارهن بالطبع فتية ممن يسعدون بالتواجد ضمن شلل المقاهي.

الفتاة الوحيدة التي استطاع أن ينفرد بها ليقضي معها لذته، كانت فتاة أقل بكثير من المستوى الذي يحلم به، لكنها الوحيدة المتاحة أمامه، لا ضير إذن من الاستفادة مما هو متاح الآن. يتكرر اللقاء بينهما حتى تألفه الفتاة وتبحث عنه، بل وتقدم له العطايا حتى تكسب وده، لم يطلبها غيره من قبل، والحقيقة أنها كانت تبحث عمن يؤكد لها أنها أنثى مطلوبة، فكان ممدوح يعقوب.

من خلال فتاته يتعرف على الكثير من أسرار الأخريات، بهدوء شديد يستطيع استغلال هذه الأسرار، بل يحصل على مزايا مقابل الإفصاح ببعضها أو التهديد ببعضها.

Scanned by CamScanner

لا يمتلك ممدوح تلك العقلية المفكرة التي تضع الخطط وتبحث عن أفضل النتائج، تفكيره المحدود الذي لا يتناسب مطلقًا مع هيئته وحماسة الشباب، جعله شخصًا نمطيًا، يكرر باستمرار .. يتعلم مما يشاهده في الأفلام، المسلسلات، من الأصدقاء، زملاء العمل .. ثم يطبق .. هو ناقل فقط بدون إضافات أو إبداع.

كم تمنى أن يجد ذلك الشخص الذي يسير في ركابه، يكون تابعه .. سوف يقبع بالقرب منه في انتظار أوامره لينفذها بمنتهى الدقة، فرد يحمل عنه عناء التفكير وتدابير الحياة، لكنه في الوقت عينه لابد وأن يكون شخصًا صاحب قدرات وإمكانيات خاصة ليحمل عنه أيضًا أعباء الحياة، يوفر له كل ما يتمناه بدون عناء.

ترى مَن يكون هذا الشخص ومتى يلتقي به ؟! هو لا يعلم .. لكنه يمتلك ذلك الإيمان بداخله من أن هذا سوف يحدث .. وقد يحدث في القريب العاجل.

نعم ..

سوف يحدث .. سوف يقتنص ممدوح الفرصة حينما تأتي .. لكنه لم ولن يدرك أن ذلك الشخص الذي ينتظره، ليرتقي به كي يحقق طموحاته، هو نفسه ذلك الشخص الذي يعجل بنهايته.

***

4

الوجوه مرآة تعكس على صفحتها ما تحمله القلوب، لكن .. وجوه كثيرة تعلمت ألا تكون مرآة، وجوه تدربت على التحول، على التغير، وجوه استطاعت عبر تدريب طويل أن تمتلك القدرة على التلون مثل حرباء، تظهر بأي لون ألِفت نفسها بداخله، مهما كان لون البيئة المحيطة بها تلونت به في الحال.

تترك هناء السعيد قناع الطيبة الساذجة والمحبة المفرطة الذي كانت تتعامل به مع جمهورها منذ قليل، تكسو ملامحها بجدية غير عادية في اللحظة التي وصلت فيها إلى مكتبها، كان معد البرنامج ومخرجه يقفان في انتظارها، كالعادة تعتذر عن التأخير بسبب الزحام في الشوارع ومضايقات المعجبين الذين لا يتركونها تسير في هدوء، تتحدث بحزن المجبر.

تدخل ستديو الهواء، تقدم الفقرات بابتسامة عريضة تستأثر بالقلوب، الحقيقة أنها وصلت إلى درجة الاحتراف في هذه المهنة،

Scanned by CamScanner

ما تفعله كان يخرج منها بشكل تلقائي بعدما قضت في هذا المكان ما يقرب من عشر سنوات.

عشر سنوات بالنسبة لمذيعة لامعة مثل هناء السعيد تعتبر فترة قصيرة جدًّا للوصول إلى هذا المستوى من النجومية، لكن أشياء كثيرة في حياة هناء كان لابد من أن تتحقق بسرعة، منها هذه النجومية، لكن كيف بدأت مثل هذه الأمور في حياة هناء السعيد؟

بمعيار الصدق والأمانة نجد أن الطفلة هناء قد عانت كثيرًا كي توفق بين عملها كبائعة أو كمتسولة في إشارات المرور وبين دراستها .

منذ أن وعت وحتى في أثناء المرحلة الإعدادية وهي تقف في إشارات المرور بلا خجل أو إدراك لأحلامها التي تتنافى تمامًا مع هي فيه، أما في المرحلة التالية فكانت تحتال وتتنكر كي لا يعرفها أحد عند وقوفها لبيع المناديل، حتى إنها في البداية كانت تتعجب من خجلها هذا الذي يدفعها إلى التنكر، لكنه فيما يبدو نما مع نمو جسدها، أصبح جزءًا من تكوينها الجسدي تشعر به مثلما تشعر بثدييها النابتين على صدرها مثل ليمونتين.

كان الليل يأتي على أمثالها للراحة من عناء يوم طويل، لكن ليل هناء كان بداية عناء جديد حيث تبدأ في استذكار دروسها بجد ونشاط يتعارض مع حالتها من الإرهاق، ثم تنام قليلًا لتصحو قبل الفجر للمذاكرة مرة أخرى حتى موعد المدرسة، وبعد الظهر بين الإشارات، حتى انتهت من دراستها الثانوية وكان عليها أن تدخل الجامعة، اختارت

جامعة إقليمية، سكنت مدينتها الجامعية، تعاملت بحذر مع كل من يحيط بها، حديثها فقط أنها يتيمة الأب من أسرة متوسطة الحال، كانت تجعل جمالها الذي بدأ يلفت الأنظار هو مفتاحها لأي شخصية تريد اقتحامها بشكل جعلته يبدو غير مقصود، تتحدث عن الفتيات الجميلات وكأنها ليست جميلة حتى قيل لها ذات يوم من زميلاتها «أنتِ أجملنا»، لم تبدِ أي رأي فيما قالوه .. صمتت تتأمل نظراتهم الحانية، تستمد قوة إضافية ترتقي بها درجات جديدة على سلم حياتها الطويل المضني.

في قاعات الدراسة كانت تتعامل بشكل عفوي منظم، ففي حال كان المحاضر سيدة أو رجلًا كهلًا تكون هناء في مؤخرة الحاضرين أو لا تحضر على الإطلاق، أما في حال أن يكون المحاضر شابًّا وسيمًا، متزوجًا كان أو غير متزوج، كانت تجلس في المقدمة، تحصد نظراته واهتمامه، تشاهد علامات الغيرة والاشمئزاز على وجوه زميلاتها، غيرة منها واشمئزازًا من ذلك المحاضر المتصابي، كن يصدرن تعليقات شديدة اللهجة تعبيرًا عن امتعاضهن، لكنهن في الوقت عينه لا يكرهن هناء، هي لم تفعل شيئًا خارجًا عن المألوف، أعين المتصابين هي التي تبحث عنها وتستقر على صدرها.

لم تدرك الفتيات ما بداخل هناء إلا مؤخرًا، خصوصًا بعدما شاهدن ما فعلته مع الدكتور أيمن نور الدين، ففي محاضرته كانت صارمة الملامح تتململ منه بدون افتعال، الوحيد الذي لم تستطع أن تواري انفعالها أمامه، كانت تمقت أصحاب السيارات الفارهة في إشارات

Scanned by CamScanner

المـرور خاصة إذا كان هناك كلبًا يمد رأسـه من نافذة السـيارة الفارهة، كانـت تمقتهـم إلى حد أنه لو كان في يدها سـلطة إصدار القرار لأمرت بإعدامهـم جميعًا في ميدان عـام عقوبة لهم على إذلالهـم للفقراء بهذا الشكل الفظ، مع ذلك كانت تتحكم في انفعالاتها وتبتسم في وجوههم لتحصـل منهـم على أيـة نفحة، أمـا مع الدكتـور أيمن كانـت لا تطيقه، الوحيدة الشـاردة عن القطيع بشكل يلفت الأنظار وزاد الأمر تعقيدًا في يوم كانت تتحدث إلى زميلاتها:

- محاضرة أيمن، ثقيلة على قلبي جدًّا.

لم تلحظ أي منهن الدكتور أيمن الذي كان يمر في هذه اللحظة، لم يلتفت إليهن، أوحى للجميع بأنه لم يسـمع شـيئًا، لكنه سـمع الصوت جيدًا وعلم مَن هي صاحبته، وبدأ ينتبه إليها، مع الوقت بدأ يسـأل عنها إذا لم تحضر وإذا حضرت يجعلها بؤرة حديثه ويضرب باسمها الأمثال في الشـرح «لو افترضنا أن هناء على سـبيل المثال فعلت.... لو أن هناء ذهبت إلى المصدر لتحصل على خبر و... لو أن هناء تعثرت في حفرة وتلطخـت ثيابهـا بالطين وكانت على موعد مع شـخصية بـارزة .. هل تعتـذر لـه أم تذهـب ملطخة بالطيـن؟ » تتوالى التعليقـات ومنها الكثير محمل بالسخرية والضحكات المكتومة بشكل يكاد يشعل داخل هناء، كونها محور حديثه كان يضايقها جدًّا، ما بالنا وقد جعلها مادة للسخرية.

أيمن فعل ذلك في البداية من كبرياء، كاد أن يهان، ورغبة في اقتحام هذه الطالبة التي سخرت منه كي يثبت لنفسه قدرته الفائقة على الانتصار على من أمامه، وإن كانت مجرد طالبة وليست منافسة.

شـعر بنوع من السعادة من ممارسة هذه اللعبة مع هناء السعيد «لعبة القط والفأر» أو بالأحرى سعادة العنكبوت الذي يصنع شباكه في هدوء للإيقاع بفريسته، كان فعلًا ينسج خيوطه مستغلًّا موقعة كأستاذ جامعي، هنـاء عنيدة شرسـة في هذا المجـال مما جعله يزيد من جرعاته بشـكل عام، ولما لم يسـتطع أن يلف حولها خيوطه استغل مركزه، وبدأ يسألها فـي نقاط المنهج وهنا لم يُجدِ عناد هناء نفعًا، فكانت تتكسـر حصونها الدفاعية وتعتذر بينما هو يزداد انتفاخًا لانتصاره عليها.

مـع مرور الوقت شـعر أيمن فعلًا بأنـه ينتظر المحاضـرة ليرى هناء السـعيد، ولم يدرك أو لم يرد أن يدرك أنه بدأ يميل إليها شـاعرًا بسعادة من عنادها وبسعادة أكثر من انتصاره عليها، في بعض الأحيان كان يصل حد النشوة إن هي انتصرت عليه، يتعجب لتضارب داخله ولا يفصح.

أمـا هـي، هناء السـعيد، كانت حقًّـا لا تطيقه، في حجرتهـا بالمدينة الجامعيـة وبيـن زميلاتهـا تقلـده وهـو يشـرح ثـم وهـو يسـألها، تعلو ضحـكات الزميلات وهي تنهـي حديثها عنه بجملة واحـدة «دمه تقيل بشكل» وترسم على وجهها علامات التقزز، وكأنها تشاهد شيئًا عفنًا.

أكثر ما كانت تخشـاه هو أن يستغل أيمن مكانته ويضايقها، في نهاية العـام، في المـادة التي يدرسـها لها، تذاكرهـا بجد ونشـاط يفوق باقي

Scanned by CamScanner

المـواد. حتـى نهاية العـام كان تقديرها في جميع المـواد جيد جدًّا عدا مادة الدكتور أيمن فقد حصلت فيها على تقدير امتياز.

هـذا الأمر كان مدعـاة فخر أيمن أمـام الجميع في العـام التالي فقد أحبت مادته وطريقة شرحه لذا انفردت بالحصول على هذا التقدير، أما هي فكانت تقسم بأنها ما حصلت على هذا التقدير حبًّا في المادة وإنما خوفًا، لكن هذا القسـم كان لا يؤتي ثماره خاصة بعد هذه الابتسـامات والغمزات من الزميلات.

و كانـت المفاجـأة التـي هبطـت علـى رأس الجميـع كالصاعقة .. بدأت عندما استدعى الدكتور أيمن هناء السـعيد إلى مكتبه، في البداية رفضت، ثم استعانت بموافقة عدد من زميلاتها على الذهاب، تحركت تجـر قدميهـا مثل المدفـوع إلـى زنزانة الحبـس الانفرادي، تشـعر بأن نظـرات الجميـع مسـلطة عليها، تقرر عـدم الذهاب ولكنها لم تسـتطع التوقف، حتى ألفت نفسـها داخل حجرة المكتب. تجلس مترددة على طـرف المقعد، تنظـر إلى الأرض بترقب حذر، ينظـر إليها طويلًا بدون أن ينطق، يطلب لها مشـروبًا مثلجًا، ثم يفاتحها في الموضوع مباشـرة، يطلبها زوجة له.

***

5

فـي هذا الصباح لم يكن هادئًا كعادته، بل كان عصبي المزاج متوترًا وقت دخوله مكتبه منذ نصف السـاعة، ظهر ذلك على خطواته السـريعة، نظراته المسـلطة نحو الأرض متجاهلًا كل مَن حوله.

منـذ أن تولـى «توفيق مراد» منصبه كمدير لهـذه القناه الفضائية، منذ حوالـي عام ونيف، وهو صاحب همة ونشـاط لا يفتران، ابتسـامه تعلو وجهه باستمرار، يحاول بقدر ما يمتلك أن يجعلها ابتسامة ودود. يحقق ما يريد برباطة جأش وبدون أية انفعالات.

تلـك الابتسـامة كانت القنـاع الذي يرتديـه ليخفي به هـذا الكم من المكـر والدهـاء اللذين يتمتع بهما، هما ما سـاعداه علـى الوصول إلى هـذا المنصـب متخطيًـا مـن هم أقـدم منـه، كثيرًا مـا كان يغلـف دهاءه بالمداعبات حينًا وبالشدة المغلفة بالابتسامة حينًا آخر.

مرت السـنوات القليلة من عمله في هـذا المجال وهو يرتب أوراقه للصعود إلى هذا المنصب، يدرس كل الشخصيات حوله، يتعرف على

Scanned by CamScanner

أدق التفاصيل سواء كان ذلك بشكل مباشر من أصحابها أو بشكل غير مباشر عن طريق وسيط ثرثار وما أكثر هؤلاء في مثل هذه الأماكن التي حرفتها الكلام.

إدراكه لنقاط ضعف، أو مواطن قوة الآخرين كان يجعله يدرس خطاه من كل الجوانب، لا سيما مَن كان يعتبرهم عقبات في طريقه. تلك هي طبيعته، يتعرف على الجميع ويحاول التقرب منهم والتودد إليهم ومشاركتهم في همومهم إن لزم الأمر، والحق يقال أنه نجح بشكل كبير في الوصول إلى أعماق الأغلبية وليس الجميع لأن هناك مَن فطن لطموحه وأدرك أنه جواد جامح يدوس بأقدامه أي شيء كي يقتنص هدفه.

يستغل توفيق مراد كل الفرص المتاحة كي يغوص في أعماق الآخر حتى وإن كان هذا الآخر من فريق الأعداء الذين يدركون شخصيته جيدًا، يقترب منهم بجرأة (تعلب) تجعلهم يشكون في أنفسهم، رجل يعلم أنه مكشوف أمام هؤلاء عليه أن يتحاشاهم وأن يبتعد عن طريقهم، لكن ها هو يتقدم ويتخطى مرحلة البوح عن مكنونه ويتحدث مباشرة فيما يريد.

زادت الأمور جرأة من ناحيته وخمول ويأس ممن يعرفونه جيدًا بعد هذه الترقية التي تخطى فيها من تخطاهم. لقد أصابهم الإحباط وقنع كثير منهم بأنه لا فائدة ترجى من مقاومة تلك النوعية من البشر والتي يمثلها توفيق مراد، إنهم سوف يحققون ما يحلمون به وأكثر رغم

داخلهم الأسود، نعم .. لقد أصبح هذا زمانهم .. وليس أمامهم سوى أن يتجنبوهم.

كيف استطاع أن يقتحم البعض؟ تم ذلك عندما كانوا يصارحونه .. يتحدثون معه .. يُفضون أمامه بأدق التفاصيل وهم غير سعداء!! هذا التناقض كثيرًا ما كان يدعو إلى الدهشة، غالبًا ما يشعر الفرد حال بوحه براحة عظيمة، لكن العكس تمامًا ما كان ينتاب هؤلاء بعد حديثهم الصريح أمام توفيق، لا توجد تلك الراحة النفسية المنتظرة، فلماذا إذًا يتحدثون ويفرغون ما بداخلهم ؟! تلك كانت من إحدى مواهب توفيق مراد، يمتلك قدرة رهيبة على إشعارك بأنه صديق قريب إلى قلبك، فتفضي إليه بما تريد، أما كيف ينخدع هؤلاء مرات أخرى رغم معرفتهم به من خلال تجارب سابقة؟ فهذا ما يبرره بعضهم بأنها مصارحة لابد منها مع الرئيس في العمل لتخطي حواجز الدرجات، أو مهما كانت طبيعة شخصيته فهو صاحب مكانة تجعله يستطيع تقديم يد العون، هذا ما كان يستغله توفيق مراد الذي يتحول خلال جلسات التصارح هذه إلى صديق حميم، وبعدها، وهذا ما كان يُدهش له البعض، يعود توفيق إلى طبيعته متناسيًا أنه كان بمثابة الصديق بالأمس، بل قد ينسى محدثه تمامًا.

يستغل توفيق معلوماته عن الأفراد بعناية تامة، يدق دائمًا على أوتار تمس حياتهم، إن كانت سيدة تعشق المغازلة كان لها نعم الرجل الذي قد يداعبها في أماكن حساسة تزداد عمقًا مع الأيام، وإن كان رجلًا

Scanned by CamScanner

يحتاج إلى المادة بحث له توفيق عن مصدر ليزيد به دخله، لكنه لم يساعد أحد على الإطلاق من ماله الخاص، الزيادة بحساب، يُشعر الآخر بأن مفتاحها في يده هو، فيضمن الولاء.

عبر أمور أتقنها ونفذها بهدوء ومهارة، استطاع توفيق مراد أن يستميل أغلبية من حوله، يكوّن قاعدة عريضة ليواجه بها معارضيه ويُثبّت من خلالهم أقدامه فيستمر في منصبه هذا على العكس تمامًا مما كان منتظر له وقت ترقيته حيث انتظر الكثيرون سقوطه بعد أيام قلائل.

إن كانت هذه آمال الآخرين نحوه فكان له هو آمال أخرى، منها ذلك الطموح الذي يداعب خياله إلى مناصب أعلى كان أهمها على الإطلاق كرسي الوزارة، هذا الكرسي الذي كان يرتعد من فرط النشوة حالما يتخيل نفسه جالسًا عليه.

من بين هؤلاء الذين دعموا توفيق مراد باستمرار هناء السعيد، والتي كان ينتظر أن تنتهي من فقرات برنامجها على الهواء بفارغ صبر، يشاهدها على شاشة التليفزيون أمامه ثم يرفع عينيه إلى ساعة الحائط مستاء من عقاربها التي تعانده على ما يبدو، لم يتمالك نفسه للحظه فصرخ فيها بأن تنهي هذا العبث .

- ألا تنتهين ؟

يشرد قليلًا متذكرًا رغبته الأخيرة، تعلو الابتسامة وجهه لحظة أن تخيل نفسه وقد حقق مراده. لقد ظل يفكر في أفضل شخص يقوم بهذه المهمة ويحقق النتيجة التي يريدها، وفي نفس الوقت لا يكون لهذا

الشخص أهداف أو أطماع شخصية تحول بينه وبين تحقيق هدفه. هذا دائمًا حال توفيق مراد، يبحث كافة التفاصيل، يدرسها بعمق محاولًا أن يضفي عليها دائمًا صبغة المصلحة العامة، لكن الحقيقة الكاملة أنه دائمًا ما تكون له أهداف خاصة تقف خلف كل الأمور بشكل يتناسب دائمًا مع طموحه الذي لا حدود له. كان بارعًا حقًّا في صياغة طموحاته، وإن اقترح أحدهم ذات يوم أمر فيه فائدة عامة فعلًا، ولن تعود تلك الفائدة على توفيق مراد بالنفع بشكل مباشر كان يرفض، لكن بأسلوب خاص به حيث يبدأ بإبداء إعجابه بالفكرة ويطري صاحبها، بل ويطلب منه أن يكتب ما يريد في طلب ويقدمه له بشكل رسمي، وإلى أن يتم ذلك يكون قد درس الأمر باحثًا عن أي فائدة قد تعود عليه، فإن كان الأمر يحتوي على أي مكسب له وافق وإلا فلا، يبرر رفضه بأن رئيس مجلس إدارة الشركة المالكة للقناة، الذي لم يكن يعلم شيئًا عن هذا الأمر، هو صاحب الرفض، بطبيعة الحال لا يوجد من يمتلك الجرأة ليصل إلى رئيس مجلس الإدارة كي يسأله عن سبب رفضه.

هكذا كانت تسير الأمور في قناة الأمل تحت قيادة توفيق مراد الطموح الذي يتحدث عن مكاسبه الخاصة وكأنها إنجازات للقناة ولجميع العاملين فيها.

الكلمات لها سحر خاص، ما بالنا وإن كانت كلمات رنانة تتحدث عن الفقراء، عن أصحاب المظالم، عن إعادة توزيع رأس المال بما يكفل عدالة اجتماعية. الأغلبية لا تستطيع أن تقف أمام مثل هذا الكلام

Scanned by CamScanner

المعسول الذي يلهب مشاعرهم، لا يستطيع أحدهم بأي حال أن يتخطى الحديث عن الصالح العام ويطلب تحقيق مصلحة شخصية له، ذلك ما كان يستغله توفيق مراد. أما المقربون منه، والذين ينالهم القليل من المكاسب، فلا يقف أحدهم أمامه أو يعرقل خطاه وإن علموا بعض جوهره، يستفيدون منه مثل نبات عليق.

يخرج من بحر أفكاره مع نهاية برنامج هناء السعيد، يقف ملقيًا ما في جوفه من هواء مشتعل، يتقدم ناحية الباب على الرغم منه ليستقبلها، يتماسك، يعود إلى مكتبه، يرسم ابتسامة بليدة على وجهه، يبدأ التوقيع على بعض الأوراق منتظرًا دخول هناء السعيد .

***

6

إدراك الغاية يستوجب تقديم الكثير من الجهود، لكن هناك مَن يود لو يدرك غايته مباشرة بدون عناء، يود لو يدركها مباشرة في اللحظة التي يتمنى فيها، وهناك مَن ينتظر على نيران غضبه تحقيق غايته، قد يسلك في فترة انتظاره طريقًا منافيًا لكل القيم المعروفة، وقد يلجأ إلى اتخاذ شيم العظماء، يعتمد على تاريخ من صنع خياله.

في اللحظة التي ينتهي فيها فؤاد هاشم من مطالعة أوراقه، يعتدل كي يخاطب صفاء هلال، يدخل زميلهم في العمل «مختار محفوظ» ملقيًا التحية كاملة.

لمختار محفوظ طريقة خاصة في إلقاء التحية، فدائمًا يلقي بتحية الإسلام كاملة وبشيء من الضغط على الألفاظ ثم يمد يده ليصافح من أمامه، إن كانت لديه الرغبة في مصافحته، أما إن كان لا يريد مصافحة أحد فيلقي التحية ثم يتوجه إلى مكتبه ليجلس واضعًا ساقًا فوق

Scanned by CamScanner

الأخرى. في حالة المصافحة يمد مختار يده على طولها، وهي طويلة بشكل ملحوظ، عائد بجزعه إلى الخلف للحظة.

يمد مختار يده ليصافح فؤاد، يتوجه إلى مكتبه بعد أن يبتسم لصفاء بدون أن يصافحها. لمختار محفوظ منهج خاص يتبعه، نجح فيه أيما نجاح، لذا لا تجده يحيد عنه مهما حدث، ذلك لاقتناعه التام بصوابه وأيضًا لأن أحدًا لم يستأ ذات يوم من سلوك ما، لكن الحقيقة أن هناك من فطن بشكل كامل لمكنون مختار محفوظ وعلى رأس هؤلاء توفيق مراد، فأصبح يتعامل مع مختار محفوظ من خلال الحجم الطبيعي له والذي يقل كثيرًا عما يضعه الآخرون فيه، إدراك توفيق مراد لباطن مختار محفوظ، جعل الأخير يتوقف عند هذه الدرجة من سلم الترقيات لا يتخطاها، لم يجرؤ مختار أن يطلب الدرجة التالية، فكان يرى داخله واضحًا في نظرات توفيق مراد نحوه، إلا أن الأمر لم يمر هكذا إنما استغله مختار حيث ارتدى ثوب ضحية مسكينة من ضحايا توفيق مراد، يرتاح إلى هذا الوصف ويعيش عليه طوال العام المنصرم.

لكن ما هو المنهج الذي يتبعه مختار محفوظ والذي فهمه رئيس القناة؟

إنه يعيش وفقًا لتعاليم الإسلام، يغزل حديثه العذب مستعينًا بآيات من القرآن الكريم، أحاديث عن الرسول الكريم، أقوال السلف الصالح نثرًا وشعرًا، الحقيقة أنه كان متميزًا في ذلك، لديه قدرات خاصة في الحفظ والاستشهاد وقتما يلزمه ذلك، بهذه الأدوات كان يتمكن من

إقناع مَن أمامه، ولما كانت مهنته، كمذيع، مادتها الكلمة، فمعظم معاركه كانت كلامية، غالبًا تنتهي الجولات الكلامية لصالحه.

كان ذلك مختار محفوظ بشكل عام، أما إن أردنا التغلغل بين ثنايا شخصيته فسوف نجد الكثير، رغم كونه يعيش وفق التعاليم السمحة، إلا أنه كان يختار منها ما يتفق مع مصالحه الخاصة، لا يقدم على عمل قط ما لم يجنِ من خلفه الأرباح، يتعامل مع الأمر وكأنه واجب يفعله من أجل الصالح العام. لم يكن بمقدور أحد أن يواجهه بكلمة واحدة عن المصلحة المادية خاصة أنه كثيرًا ما يتحدث عن أنه لا يبتغي إلا مرضاة الله.

إن استجمع أحدهم شجاعته، ليتحدث عن الفائدة المادية، واعتبرها مختار إشارة يُلقي بها المتحدث نحوه، يقف مختار بطوله الفارع وسط الحجرة، سائرًا خطوتين أو ثلاث، يحرك يديه في الهواء ثم يقسم بأن الأرزاق مكتوبة عند الله عز وجل قبل أن يولد الإنسان وأن السعي خلفها بهذا الشكل ما هو إلا تكالب على الدنيا، والقابض على الدنيا كأنه قابض على الجمر، هنا لا يستطيع أن يستمر في مواجهته أحد، فينسحبون بهدوء.

لكن هناك من يرى أن سعي مختار الدائم خلف مصلحته الشخصية، هو سعي مشروع، ما دام لم يأت بما يغضب الله،يساعد على ذلك اختيار مختار لموضوعات في عمله بعيدة عن الشبهات، تميل معظم الميل إلى الجانب الديني. لكن الذي لا يدركه أنصار هذا الرأي أن

Scanned by CamScanner

مختار محفوظ يسعى إلى مثل هذه الموضوعات لأنها تستطيع غزو النفوس فيحقق بهدوء وبراعة أهدافه الخاصة.

غالبًا ما يترك الحلبة والصراع،نظريته في ذلك أن المتصارعين إن اقتسموا ما بين أيديهم لن ينال الفرد منهم أكثر مما يناله هو عندما يأخذ القليل منفردًا. يضاف إلى ذلك أن هؤلاء قد بذلوا الجهد والمال أثناء الصراع أما هو ما يزال يحتفظ بطاقته كاملة، بالإضافة إلى دور البطولة الذي يتقمصه حال ابتعاده عن حلبة الصراع، أخيرًا كان دائمًا ما يتم اختياره لدور الحكم بين المتصارعين فيحكم من خلال مصالحه الخاصة لكن بشكل متزن.

لكن السؤال المُلح هل لا يدخل مختار محفوظ في صراعات من أي نوع ؟

بالطبع لا يستطيع فرد ما أن ينزع نفسه انتزاعًا من دوائر الصراع خاصة في هذا الوسط. كان ذلك منذ أن تولى توفيق مراد رئاسة القناة حيث قرر أن برامج مختار محفوظ لم تعد تجد القبول المطلوب لدى الجماهير، يؤكد ذلك إعراض المعلن عن طلبها، توفيق يتابع بهدوء وبدون أن يُشعر أحد بذلك لمدة شهر ثم كان القرار في النهاية رفع أحد أهم برامج مختار من خريطة القناة، فوجئ الجميع بالقرار وثار مختار ثورة عارمة لم يسبق أن شاهده عليها أحد من قبل.

يدلف إلى مكتب توفيق مراد وكأنه جسد من نار، يحاول أن يكظم غيظه، يبدو هدوؤه مصطنعًا، عله يستطيع إقناعه بالعدول عن قراره،

ولما يفشل ويجد تصميمًا، ثم يلحظ ابتسامة ماكرة يحاول توفيق وأدها، يقف مختار مشيرًا بيده في وجه توفيق متوعدًا إياه:

- لن أتركك يا توفيق لتهنأ بمقعدك هذا ..

هنا بالضبط يبتسم توفيق مراد لأنه استطاع أن يشاهد جوهر مختار الحقيقي، يبتسم لأن إدراكه لجوهر مختار كان إدراكًا صائبًا.

يخرج مختار مهددًا بأنه سوف يذهب إلى السيد رئيس مجلس الإدارة، يحاول عدد من الزملاء تهدئته، يتماسك قدر الاستطاعة حتى ينتهي اليوم وكأن شيئًا لم يكن، بل يعقب مختار:

- فليذهب البرنامج إلى الجحيم .. مئات البرامج تُلغى ويأتي غيرها، لكن لي حق عنوى أريده.

تلك الجمرة بداخله لم تخمد، يسعى خلال الأيام القليلة التالية لمقابلة رئيس مجلس الإدارة عن طريق بعض الوسطاء، ينتظر تحديد موعد اللقاء، يختار الكلمات وينتقي الجمل التي سوف يتحدث بها عن توفيق، تتزايد آماله ويعلو سقف طموحاته وهو يتخيل رئيس مجلس الإدارة وقد وقف بعد سماعه ليصافحه ويصدر قرارًا بعزل توفيق وتنصيب مختار مكانه. مرت عدة أيام حتى أتاه الرد .. لقد قوبل طلبه بالرفض، حتى المقابلة رفضها الرجل .. يعود مختار إلى مكتبه منكسرًا وعلى لسانه إجابة واحدة:

Scanned by CamScanner

- لن أسعى خلف الدنيا، ولن أذهب إلى رئيس مجلس الإدارة لأن الأمر ببساطة مجرد رزق، والرزق ليس في يد توفيق مراد أو السيد رئيس مجلس الإدارة إنما بيد الله عز وجل.

هنا يقتنع الجميع بهذا الرأي ويطلقون جملة واحدة:

- ربنا يعوض عليك يا أستاذ مختار ..

بذلك كان يرتدي مختار محفوظ أردية الشهداء، مما يؤدي بالبعض إلى محاولة تعويضه وإن اقتطع جزءًا من دخله ليتركه إلى مختار.

صفاء هلال من الذين يقفون دائمًا إلى جانب مختار في مثل هذه القضايا، لصفاء طبيعة خاصة هادئة تتفق مع أنوثتها الطاغية التي تفر منها دائمًا إلى أحضان العمل، كانت تحتاج إلى رفيق في العمل لديه قدرات حقيقية وملتزم بعض الشيء، أو بالأحرى كانت تحتاج قوة توجهها، تستغل قدراتها المحدودة، ترتفع بها، لم تجد من المحيطين بها غير مختار محفوظ، استمدت منه دعمًا كاملًا سواء في تفاصيل العمل أو بتواجدها معه، هو ليس موضع شبهات، كي يضفي على سلوكها نوعًا من الوقار والاعتدال، تركت له دفة سفينتها أثناء تواجدها في العمل. لكن ماذا كانت تمثل هي لمختار محفوظ ولماذا وافق بشكل غير معلن على أن تكون شريكته في العمل؟

الحقيقة أن مختار كان يشعر دائمًا باحتياجه في مجال عمله إلى فرد، يظهر أمامه بمظهر الأستاذ، يتميز هذا الفرد بالهدوء والطاعة، ما إن وجد رغبة لدى صفاء هلال حتى تحول إليها بكل طاقاته، كأنها المأوى

الظليل في صحراء قاسية، مارس كل عناصر القيادة معها بشكل هادئ متزن فكانت متنفسًا يفرغ على أعتابه رغباته، يشعر معها براحة عميقة.

هناك في أعماق أعماقه، بالتحديد في زاوية الرغبة الجنسية ترقد صفاء عارية تمامًا، يحتويها في جانب مظلم يكاد لا يعلم أنه موجود، يفترسها في أحلامه، جسد غير واضح المعالم، جسد يحمل روح صفاء، روح قد تتلبس زوجته في ظلام ليلة جنس، ليلة نادرة الحدوث .. بعد الشهقة الأخيرة.. بعد أن تهدأ الصدور .. تتأمله زوجته بإعجاب ثم تلقي برأسها على صدره العاري متسائلة بحروف مبعثرة:

- كنتَ رائعًا اليوم يا مختار.

تتخلل أصابعه خصلات شعرها، يغمرها بنظرات تبحث في الحقيقة عن سبب الروعة، يزوم لحظات بينما زوجته ترفع عينيها كي تلملم من شروده كلمات، يضمها قائلًا:

- روعة اليوم .. بسببكِ .. لقد استدعيتِ شيطانة الجنس لتتلبس جسدكِ ..كنتِ رائعة.

تجلس مقطبة جبينها، في الأصل لإنهاء الموقف .. فعندها غسيل يجب أن تنتهي منه، تتصنع الغضب اليسير وهي ترتدي قطع ثيابها المتناثرة، تقول:

- لا تقل شيطانة الجنس .. إنها مليكة الحب.

هذا بالضبط هو مختار محفوظ، يريد أن يأمر فيطاع، استشعر الراحة مع صفاء واستشعرت هي الراحة معه، فكونا فريقًا متميزًا لسنوات.

Scanned by CamScanner

أحيانًا ما يؤرق صفاء وإن كانت تتغاضى عنه هو أن مختار لا يتمادى معها، جدار الوقار الذي يحيط به نفسه جدار منيع يصعب عليها اجتيازه، لا تستطيع أن تمارس معه شقاوتها ودلالها، لم يحاول مداعبتها ولو بكلمة، يدرك أن مثل هذه الأمور على المدى البعيد تترك آثارًا سيئة لدى الآخرين، لا يريد أن يقال عنه كلمة تمس سمعته التي يستمد منها قوته، يكره أن تكون له نقاط ضعف وإن كانت جميلة مثل صفاء هلال، ثم إنه متزوج ولديه أطفال ويستطيع أن يفرغ طاقاته المشتعلة في فراش الزوجية ..

رغم كل ذلك لم يكن الأمر مع صفاء يخلو من مغازلة ولو بكلمة إعجاب حول ملابسها أو مكياجها عندما يكونان بمعزل عن الناس، مثل هذه الكلمة كانت تسعد صفاء لندرتها ولأن مختار كان يستطيع بمهارة القائد أن يختار الوقت المناسب والذي يستشعر فيه مدى احتياج صفاء إليه.

حينما دخل مختار حجرة المكتب وصافح فؤاد توجه إلى صفاء، لاحظ في عينيها لحظة حزن وانكسار فجلس إلى جوارها بشكل جعله يبدو طبيعيًا ونظر نحو فؤاد الذي كان يلملم أوراقه.

يُخرج مختار مسبحته التي طالت عن سابقتها وأعمل فيها يده متمتمًا بكلمات مبهمة، يلقي فؤاد تحيته ثم يخرج، يتوجه مختار نحو صفاء كاسيًا صوته بمسحة ود وهو يسألها:

- فؤاد خرج بسرعة؟!

تنظر نحوه باحثة عبر تعبيرات وجهه إن كان يرمي إلى شيء ما أم لا.. فشلت كعادتها أن تستشف من ملامحه أية معلومات، أجابته بكلمات بسيطة وصوت ضعيف كالهمس:

- مؤكد عنده عمل .
- على ملامحِك .. علامات ضيق؟
- أبدًا .
- مستحيل، نظرتي لا تخيب يا صفاء .

ابتسمت لحظة ولم يشعر غيرها بتلك الرعشة التي سرت بداخلها مثل عفريت يخرج من مصباح صغير ليتمدد عملاقًا، فردتْ ظهرها، تنفست بقوة وهي تواجهه متسائلة بخبث:

- تحدث مباشرة يا مختار .. ماذا تقصد؟

يمط شفتيه ليخفف من وقع كلماته الآتية .. هو يسأل لا يتغزل .. يقول:

- أين روحك الجميلة ونظراتك العذبة؟

تبتسم صفاء، تفرد ساقيها على طولهما وتباعد بينهما لحظات قبل أن تضمهما بقوة أسفل المكتب، تعود بظهرها أكثر إلى مسند مقعدها، قررت أن تناقش مختار محفوظ في بعض التفاصيل .

***

Scanned by CamScanner

7

قد يكون الفعل واحد، لكن طريقة عرضه تختلف من شخص لآخر، بل إن طريقة الاستيعاب نفسها وهي تعتمد بقدر كبير على طريقة العرض، تختلف من فرد لآخر، فلا يجب ذكر الفعل في حد ذاته، إنما يجب تفهمه كاملًا في ذلك الإطار العام المحيط به، الخلفيات الكاملة لكل من المصدر والمتلقي. طوبى لمن يدرك ذلك.. أما مَن لا يستطيع فعليه أن يتحمل تبعة سطحيته وتعجله.

تصل هناء السعيد إلى مكتب توفيق مراد رئيس القناة، لهجته في التليفون عندما طلبها تنذر بأمر عظيم، توقعت هناء أن يستدعيها مرة أخرى فور انتهاء البرنامج، لكنه لم يفعل، ذهبت إليه متوقعة أن تشاهده في انتظارها قلقًا متوترًا، لكنها ألفته حال دخولها هادئًا مبتسمًا خلف مكتبه، انزلقت نظارته إلى ما فوق أرنبة أنفه القرمزية وهو يتصفح بعض الأوراق أمامه:

- هناء .. تفضلي..

قال ذلك واستمر في فحص أوراقه متعمدًا إشعارها بهدوئه، طالعت هناء شهادات التقدير المعلقة على الجدار المواجه لها، رغم أنها قد قرأتها قبل ذلك أكثر من مرة إلا أنها تابعت قراءتها هذه المرة أيضًا متذكرة أسماء الأشخاص الحقيقيين أصحاب الأعمال التي نال «توفيق مراد» عنها بدلًا منهم شهادات التقدير هذه، فكان دائمًا ما ينسب النجاح في أي عمل لنفسه، يبذل قصارى جهده كي تُمنح الشهادات له هو، لا أن تمنح إلى صاحب العمل، تتذكر هناء القيادات التي كانت تحقق لتوفيق ذلك!! كيف يتعاملون مع الأمر بهذه البساطة؟! هذه الشهادة تعني لصاحبها الكثير .. أهم لحظة هي لحظة تسلمها خاصة في الاحتفالات أمام الكاميرات. توفيق يسلبهم اللحظة ليتربع هو.

ينحّي توفيق أوراقه جانبًا ويخلع نظارته، يقف .. يتحرك بهدوء مستديرًا حول المكتب، يجلس في مواجهة هناء مباشرة. تدرك أنه لا يستدعيها على هذا الشكل إلا لأمر مهم لكن إن كان قد تعامل معها بهذا البرود فلتقابله هي ببرود مماثل، ففي اللحظة التي أدركت فيها أنه استجمع قوته ونحّى كبرياءه وصلفه ليبدأ حديثه، أشارت نحو برواز معلق على الحائط قائلة:

- برواز جميل..

تعمدت أن تشتت تفكيره، أن تمزق الغلاف الزائف، تحدثت عن البرواز وتصميمه الفني ولم تتطرق إلى الشهادة الموجودة داخل

Scanned by CamScanner

البرواز تحقيرًا منها جعلته يبدو بشكل عفوي، وكانت قد أعدت الإجابة للسؤال التقليدي المنتظر والذي سأله توفيق فعلًا:

- البرواز ..؟! وماذا عما بداخله؟

تجاهلت ضيقه، أجابته وهي تخفي ابتسامة تدل على مدى سعادتها بصدق حدسها:

- شهادة التقدير؟ شاهدتها من قبل ..

هنا فقط يدرك توفيق مراد ما ترمي إليه هناء، يواري غيظه، يغلف وجهه بابتسامة كاذبة متخطيًا اللحظة ليدخل في الأمر الذي استدعاها من أجله:

- برنامج جديد .. يكون ضيفه الدائم السيد الوزير.

تأملته دقيقة كاملة، تمط شفتيها فتبدوان أكثر جمالًا يشتهيان قبلة لا نهاية لها، تشاهد توفيق عاريًا إلا من قطع قليلة من ثياب زرقاء، لا تعلم لماذا شاهدته مثل قرد يتأرجح، نفضت عن رأسها تلك الصورة التي ستجعلها تضحك بلا شك، قالت:

- نفس الفكرة تم تقديمها من قبل ورفضتها أنت؟!
- اختيار توقيت البرنامج من عوامل نجاحه .. والآن التوقيت مناسب؟

تغتاظ هناء من تزايد سلطة توفيق مراد، فها هو يصنع الظروف وفقًا لهواه، تركت مقعدها الذي أزاحته على بلاط الحجرة مصدرًا صوتًا كان كما طلقات الرصاص في رأس توفيق، توجهت بهدوء نحو ثلاجة

صغيرة في جانب الحجرة خلف توفيق، تناولت مشروبًا مثلجًا، التفتت عائدة .. إلا أنها توقفت خلف توفيق لحظات، وكأنها المرة الأولى التي تشاهده فيها، شعره المسحوب على مؤخرة رأسه، أذناه الكبيرتان تظهران من الخلف أكثر من ظهورها من الأمام، نتوء غير ملحوظ في ظهره يذكرها بأحدب نوتردام.

يستشعرها تتفحصه من الخلف، يعلم جيدًا أن هناء وغيرها لا يحبونه، لا يحملون نحوه أي شفقة، هو محق دائمًا حينما يتعامل معهم بحذر، يستفيد بقدر الإمكان ولا يأمن لأحدهم أبدًا .. يتصنع اللامبالاة .. بلغة جسده يرسل لها إشارات بأنه يتقبل كراهيته له لأنه صاحب قلب كبير يتغاضى عن أخطاء البشر، هو قديس يتلقى الصفعات مبتسمًا .. يتركها تُفرغ كل ما في جوفها من حنق وغضب، يريدها هادئة، ينتظرها حتى تعود لتجلس أمامه قائلة:

- هل أشارك في تقديم البرنامج؟

يتصنع التفكير لحظة حتى يبدو ما سيقوله وكأنه منحة لا حق:

- ممكن ..

تترك زجاجة العصير من يدها فوق المنضدة الصغيرة التي تتوسطهم، بضيق مغلف بابتسامة شرسة تقول:

- يبدو أنني لم أكن في الخطة مطلقًا ..؟!

هنا يقف توفيق ليعود إلى كرسيه الضخم، يتعمد أن يفصلهما مكتبه، مكتب قائد المكان، يقول:

Scanned by CamScanner

- فكـرة البرنامج مبنية على حلقة نقاشـية بيني أنا وبين السـيد الوزير تدور حول موضوعات تهم الجماهير.
- والمطلوب؟
- إقناع معالي الوزير ..
- أنا؟!

قالتها بشـدة واستغراب جعلته يقف ويدور حولها متحدثًا بود أكثر، لـه طريقة خاصة في الحديث حيـث التعثر في بعض الحروف والبحث عـن ألفاظ بعينها، دائمًا ما يتصنع هذه الطريقة وقتما يريد أن يُشـرك من أمامه في الحوار ليجعله يبحث معه عن الكلمة التي يريدها ثم يثني عليه في حال العثور على الكلمة المناسبة مما يجعل محدثه يشعر بشيء من السـعادة لمسـاعدته لرئيسـه، وبذا يصل توفيق إلى ما يريد حيث يشتت انتباه فريسـته فتكون سـهلة الصيد، واجه هناء السـعيد ناظـرًا في عينيها مباشرة:

- إنتـي تقدري توصلي للوزير وتقنعيـه من أجل الصالح العام فـأنتِ تمتلكين الـ الـ ..
- اللباقة والقدرة على الإقناع ..
- بالظبط ..
- تقصد أمتلك إمكانيات الإقناع.

قالت ذلك ووقفت تتحسـس بيديها جسـدها بداية مـن كتفها مرورًا بصدرهـا النافر وحتـى خصريها، ارتبـك للحظة ثم ابتسـم ليواري هذا

الارتبـاك الناتـج عـن هجومها المباشـر وهو يتابـع يديهـا الهابطة فوق تضاريس جسدها البض، قائلًا:

- فعـلًا .. تمتلكيـن إمكانيـات الإقنـاع .. ولازم نسـتغلها لتحقيـق المصلحة العامة.
- و أنا هاستفيد إيه؟
- مصلحة القناة هي مصلحتك يا هناء.
- أكيد .. عمومًا سوف أطلب مقابلة السيد الوزير.. ونتظر.
- لازم يوافق ..

وضعت زجاجة المشـروب من يدها، حملت حقيبة يدها وتوجهت ناحية الباب، التفتت لتلقي نحوه نظرة أخيرة، كان يقف متصنعًا البراءة، وقـد تهـدل كتفـاه وحمّل نظراتـه آيات من الاسـتعطاف، ابتسـمت له، تشجع واقترب منها مودعًا:

- مع السلامة .. بالمناسبة صرفتِ المكافأة الأخيرة ؟
- مكافأة إيه؟
- كلمـت رئيس مجلس الإدارة عن نشـاطك الملحوظ، وطلبت منه مكافأة كبيرة.. فوافق.

خرجـت هناء السـعيد وجلس مراد سـعيدًا بما حققه مـن نجاح، ثم رفع سماعة داخلية متحدثًا إلى سكرتيره:

- اصرف مكافأة نصف شهر لهناء السعيد .. ولتكن بتاريخ سابق.

***

Scanned by CamScanner

8

تحتوي الفرد حالات لا عهد له بها من قبل، يندهش .. فلا علاقة له بمثل هذه الأفكار .. يجد نفسه مسوقًا بقوى خفية، تُلقي به إلى أرض غريب عنه أهلها، يعلم .. بعد فترة .. أن هنا، في هذه الأرض، ينتظره ما كان يتمناه في عقله الباطن، هو هنا الآن يحقق ما يحلم به في نومه ويقظته وإن لم يدرك ذلك.

يقرر سيد المليجي أن يبدأ في تنفيذ الفكرة التي هبطت على قلبه ليلة أمس بدون ترتيب، يبحث عن عم مصطفى جاره، لم يجده قد عاد من عمله في القناة الفضائية .. يغتاظ ويتوعده بشدة، يقرر أن ينتظر عودته في المساء .

سيد شاب في الخامسة والعشرين، تميل بشرته إلى السمرة مع وجه مدبب القسمات وشعر قصير خشن، تفوح منه دائمًا رائحة عفنة، ذلك أنه يكره من صغره الاستحمام بالصابون الذي يحرق عينيه، فيدخل للاستحمام بالماء فقط ويخرج مسرعًا بجسد لزج.

سيد دائمًا ما يثير المشاكل، العراك هو الحل الوحيد أمامه، غالبًا ما تكون النتجة دماء غزيرة يكون هو مصدر أكثرها، كان ذلك طريق شهرة سيد وسط الحارة. فعل كل ما طالته يداه، شرب السجائر، ارتدى الثياب بكل أنواعها، ترك شعره مرسلًا، تعامل مع الشباب المتعلم، أطلق لحيته وارتدى الجلباب الأبيض القصير.

في غضون شهور كان قد تلون بكل الألوان، لم يجد نفسه إلا في الفتونة والدراع. الحقيقة أنه لم يكن يمتلك من مقومات الفتونة إلا الجرأة والصوت المرتفع وحصيلة من الألفاظ البذيئة، لذا كانت الأغلبية تخشى الاحتكاك به، البعض كان لا يستطيع التحكم في أعصابه فيضربه بلا رحمة فيجري سيد ملتقطًا حجرًا من الأرض، لا يقذف به خصمه .. إنما يشج به رأسه حتى ينزف دمه غزيرًا، بعدها يهرول إلى قسم الشرطة طالبًا تحرير محضر ضد مهاجمه، تستدعي الشرطة الخصم وسين وجيم وتتحول إلى قضية، لمثل ذلك كانوا يخشونه ويبتعدون عنه فتحقق له ما أراد من سطوة.

لم يجد من يجالسه غير من كانوا على نفس شاكلته، لهؤلاء طبيعة وطقوس خاصة حيث السجائر المحشوة بالبانجو المهرب في أجولة عن طريق بعضهم بين الأغنام في العربات القادمة من العريش ..

البداية كانت عندما سافر سيد مع أحدهم واستطاع العودة بجوالين كاملين من البانجو، ظل يروج فيهما بأسعار أقل من السوق، جمع مبلغًا أنفقه ببذخ على محترفات البغاء، شقق مفروشة لها شهرتها، يحلم بها

Scanned by CamScanner

سنوات، حتى أتيحت الفرصة .. يذهب نهمًا .. فقد سئم من فتيات الشوارع القذرات ..

ما إن نفدت نقوده حتى حاول الكرَّة، جوال بانجو جديد يُصلح الأحوال فترة ما، ولسوء حظه، كما قال بعد ذلك، قبض عليه، أُلقي ثلاثة أشهر بسجن أبو زعبل،يخرج بعدها أكثر شراسة وجبنًا، يتمنى لو يمتلك القوة لينتقم بها من هذا المجتمع الذي لا يوفر له وسائل الرفاهية. أكثر جبنًا لأنه لا يرغب مطلقًا في العودة إلى أبو زعبل.

ظل يستجدي معتمدًا على تاريخه في مجال التشرد، عمله في ورشة للحام الكاوتشوك لا يفي بمتطلباته، ذات يوم أفرغ همه أمام سائق ميكروباص في الورشة، وفر له هذا السائق فرصة عمل إضافي في وردية ليلية مع العاملين بموقف سيارات الأجرة.

لم تكن مؤهلات سيد الجسدية تؤهله كي يكون بلطجيًا في موقف السيارات،لكن جرأته وميله إلى القيادة جعلاه يتفوق ويصل إلى مكانة مرموقة، فقد انتشر عنه أنه «بايع نفسه» أُشيعت عنه حكايات عن قدراته الخاصة في استخدام السلاح الأبيض وماء النار لحرق الوجوه.

أما عن شخص سيد فكان على قناعة تامة بأنه ضعيف ولابد له من حماية من فئة يستطيع أن ينمو في أرضها الخصبة، أن يتواجد بين البلطجية يحتمي بهم، وتواجده بين بلطجية الموقف الذين ينالون الرعاية من رجال الشرطة جعلته يبالغ في شطحاته.

كانت طبيعة عمله هي التواجد بين اثنين من الشباب أصحاب العضلات، يقفون إلى جانبيه كمصدري قوة، يتقدم بهدوء ناحية السيارة التي تتوقف ليستقلها الركاب، يضع سيد يده على حافة نافذة السيارة ناظرًا إلى الناحية الأخرى متعمدًا إظهار إهماله وتجاهله للسائق، يرسم على وجهه علامات اشمئزاز وتقزز، لا مجال لأي ابتسامة .. في أحيان أخرى يخرج المحمول ويُجري اتصالًا وهميًا متحدثًا بعصبية ويكون محور حديثه أنه سوف يقضي عليه « أي شخص» وما هي إلا خبطة واحدة من قرن الغزال في وجهه لتجعله يدفع كل ما عليه من أموال .. إلى غير ذلك من أحاديث من شأنها أن تبث الرعب في قلب السائق الذي يخرج الإتاوة بهدوء خشية أن يثير غضبه.

يتناول سيد الإتاوة، فإذا كانت كما يريد وهي على أقل تقدير الربع مما يتقاضاه السائق من الأجر الكامل من راكبي السيارة. رفع يده عن نافذة السيارة وتكون هذه إشارة كي ينطلق السائق في أمان دون أن يتعرض له بلطجي آخر، أما إن كانت القيمة المدفوعة أقل من المطلوب، يكورها سيد في قبضته ويلقيها في وجه السائق مهما كان سنه ووقاره، ويطلب منه المزيد ولا يتنازل عنه مهما كثرت توسلات السائق وتابعه.

حدث ذات مرة وخرج السائق عن هدوئه قبل أن يركب سيارته، بالتحديد في اللحظة التي يمد يده اليمنى ليفتح باب السيارة، يده اليسرى تعطي سيد ما يراه منطقيًا، لكن سيد يرفض، يثور السائق

Scanned by CamScanner

بكلمات تنم عن غضب شديد، يقذف سيد المبلغ في وجهه تعبيرًا عن رفضه له، احمر وجه السائق واشتاط غضبًا، لاحظ نظرات الشفقة من ركاب سيارته، شعر بتداعي كبريائه، وخز في كرامته، كيف يحدث له ذلك وهو قائد هذه المركبة التي تقل هؤلاء على اختلاف مراكزهم وهم يدينون له بالطاعة الكاملة فترة ركوبهم معه، كيف يُهان بهذا الشكل؟ ينزل من سيارته رافعًا صوته في وجه سيد بأنه لن يدفع كل هذه الإتاوة، يظهر سيد تماسكه ويدفع السائق في كتفه متوعدًا إياه بأن ما يفعله ليس في صالحه ويجب عليه الدفع بهدوء، يعترض السائق يد سيد، بل ويدفعه هو الآخر في كتفه.

في مثل هذه اللحظات تظهر جرأة سيد حيث يقوم بحركة مباغتة تتسم بالقوة، فقد جمع قبضته وأطلقها بقوة هائلة في أنف السائق وكأنها إشارة البدء حيث يقترب ثلاثة من البلطجية لينهالوا على السائق ضربًا، يحاول السائق الفرار، لكن سيارته خلفه أعاقته والبلطجية أمامه يتناوبون دفعه، ومن أثر ضربة قوية يرتمي السائق ليرتطم بزجاج سيارته فيهشمه، تطايرت شظاياه في أوجه الركاب داخل السيارة الذين دفعوه عن أنفسهم برفق صامت وهم ينكرون ما يرونه في داخلهم بعبارات ذليلة، فلم يكن أكثرهم جرأة بقادر على التصدي لهؤلاء.

يقف سيد مراقبًا حتى يرى أن خصمه قد وصل إلى مرحلة الخضوع التام فيأمر رفاقه بالتوقف ثم يمسك السائق من ياقة قميصه الممزق

طالبًا الإتاوة كاملة، يطلبها بلا رحمة، لا ينظر إلى الخسائر التي لحقت بالسائق.

صاغرًا يدفعها السائق ثم ينطلق بسيارته، هو يمسح دماء أنفه بظهر يده وكم قميصه،تنكسر نظراته مثل فتاة ضبطت حاملًا سفاحًا .

إن تقابل سيد وهذا السائق في مكان ما على انفراد كانت الغلبة للسائق جاعلًا من سيد دمية مهترئة، وهذا ما كان يدركه سيد لذا لم يقدم على مثل هذه الأفعال إلا في وجود البلطجية، هؤلاء كُثر في مواقف السيارات حيث يتقاضون مبالغ كبيرة مما يحصلون عليه من إتاوات تتعدى الآلاف في اليوم الواحد، يجمعها رئيسهم ويوزعها إلى عدة أقسام، الأول إلى إدارة المواقف في مبنى المحافظة وذلك مقابل «أرضية الموقف» والقسم الثاني إلى رجال شرطة المرور الذين يتواجدون في المنطقة للحفاظ على سير المرور ونصيبهم هذا مقابل غض الطرف عما يحدث من ترك السيارات تخالف كافة القواعد ما دامت تدفع الإتاوة، أما إن رفض سائقوها دفع الإتاوة ظهر رجال المرور ليطبقوا قوانينهم التي سريعًا ما تعود إلى قمقمها إذا أسرع السائق ودفع المطلوب، الجزء الثالث من هذه الأموال اليومية يذهب إلى رجال الشرطة في القسم وذلك مقابل تجاوزهم عن المشاكل التي يثيرها فتوات الموقف وينصرونهم دائمًا، فإن حدث وذهب السائق الذي ضربه سيد ورفاقه ليحرر محضرًا بتهمة الاعتداء عليه وتحطيم أنفه وزجاج سيارته، تعامل معه رجال الشرطة كمتهم مخالف للقوانين،

Scanned by CamScanner

بل يعنفونه بسبب تواجده في هذا المكان، يطلبون منه رخصه وخط سيره المختوم يوجهون إليه أكثر من تهمة مثل الوقوف في الممنوع وطفاية الحريق وحزام الأمان ومخالفة تعليمات المرور وهي جريمة مبهمة. غالبًا ما يكون هناك شيء ناقص، المهم أن يتحول المظلوم إلى مجرم ويلقى في الحجز ويعرض على النيابه بأي تهمة وهذه ما أبسطها عندهم، لمثل هذا ينالون هذه المبالغ اليومية من فتوات الموقف، وهو بعد تقسيمه عليهم يكون نصيب الفرد في اليوم ما يعادل ربع مرتبه في الشهر، أما الجزء الأخير من الإتاوة فهو لبلطجية الموقف، فيصرفونه بغباء عند نهاية الوردية حيث البانجو والبحث عن فتيات البغاء فلا يعود أحدهم إلى منزله إلا باليسير.

يستمر سيد في عمله بموقف سيارات الأجرة عدة شهور، يزيد جبروته بمعاونة البلطجية، يتحول عمله خلالها لعنف متزايد، ضربه للسائقين والتعدي على الركاب بألفاظه القبيحة تسليته حتى زاد عدد الناقمين.

إلى يوم كان يقف فيه «سيد» وسط الطريق، المجاور للموقف، بين السيارات يشير لهذه وتلك، يحصل على المبالغ المفروضة عليهم، تأتي ميكروباص مسرعة، يقف سيد ليعترض طريقها معتقدًا أن سائقها سيقف كالعادة، لكن السائق كان ممن يحملون آثار العنف على وجوههم مثل نقش على صخر، يتذكر ما فعله سيد معه، يشاهد نفسه ملقى على الأرض تحت أقدامهم يئن، يدافع بما لديه من قدرات،

شاهد من بين أقدامهم تدهسه كونستابل المرور فوق دراجاته البخارية يسير غاضًا الطرف، تذكر السائق كل ذلك فأسرع أكثر كي يقتل سيد بسيارته.

هناك تعليمات من رئيس الموقف لتحذير رجاله من حدوث أمر مثل هذا، ذلك ما تذكره سيد في اللحظة الأخيرة، طار في الهواء ليتفادى الاصطدام لكن السيارة لحقت بساقه، هرب السائق وحُمل سيد إلى المستشفى، وُضعت ساقه في الجبس مدة شهر، عند عودته لم يجد مكانه في الموقف، سريعًا ما حل محله آخر.

عاد إلى الحارة يُلقي بمصائبه على هذا وذاك، كل ما كان يعكر صفوه في هذه الأيام هو إشباع رغباته من الكيف والجنس، الكيف كان يستطيع بالبلطجة أن يحصل عليه في المقاهي أو ضبط أطفال الشوارع أسفل الكباري أو بالقليل من المال الذي يأخذه عنوة من والديه أما رغباته الجنسية، لم يستطع العودة إلى فتيات الشوارع بعد تذوقه لذة المحترفات، يبحث عن بديل يشبع رغباته ولا يكلفه المال، تطول مدة بحثه .. لكنه لم ولن ييأس ..

***

Scanned by CamScanner

9

تقدم لك الحياة الكثير من الهدايا .. تقبُّلها واستغلالها يتوقف على طبيعتك أنت .. إما ارتقاء .. أو انزلاق إلى هاوية ..

تطلب هناء السعيد مقابلة السيد الوزير، يتم تحديد اللقاء، تستخدم كل ما تملك من مهارات في التأنق، تختار أفضل ثوب لديها، الغريب أنها اختارت ثوبًا فضفاضًا لا يكشف عن مفاتن جسدها إلا جزء بسيط من انحدار كتفيها بجانب الرقبة إلى أعلى الصدر، تبرر ذلك برغبتها في عدم عرض بضاعتها مرة واحدة، بذلك يطلب من لقاءات أخرى عسى أن ينال منها أكثر ..

تتأمل المكان وهي تجلس بثوبها الحريري الزاهي الذي ينزلق فوق أعضائها وثنايا جسدها فيبرزها ناعمة، المقعد وثير أمام مديرة مكتب السيد الوزير، سيدة قاسية الملامح، عصبية المزاج، كثيرًا ما يضعها السيد الوزير في مواقف محرجة بسبب اعتذاره الدائم عن مواعيده أو تفضيله شخصيات عن أخرى، من أسباب ضيق مديرة المكتب الآن

تواجد هناء السعيد أمامها فقد أبرز حسنها مستوى الجمال الحقيقي لكل مَن حولها، على رأسهم مديرة مكتب السيد الوزير.

يخرج من مكتب الوزير سكرتيره الخاص ممدوح يعقوب، يقف متسمرًا مكانه،مثل قطعة صخرية ضخمة،يتأمل هناء برغبة جنسية مفضوحة، يتماسك مع ابتسامة عريضة، يُسرع مصافحًا بحرارة، تغمره هناء بابتسامة رائعة فهي تدرك مدى الصلاحيات التي يتمتع بها ممدوح في هذا المكتب، لقد أُثيرت حوله في الآونة الأخيرة عدة مشكلات مادية، لكنه باستمرار يخرج منها أقوى مما كان.

الحقيقة أن شيئًا ما مريب جدًّا كان من نتيجته تواجد ممدوح يعقوب خلف السيد الوزير باستمرار، أمر مثل هذا كان يبرره البعض بوجود صلة قرابة بين ممدوح يعقوب والوزير، يبدو أن هذا الرأي قد ارتكن إليه الكثير، لِمَ لا ولم ينفِه الوزير .. وبالطبع كان يسعد به ممدوح.

الغريب في الأمر أن ممدوح هذا لم يكن يمتلك أية درجات علمية غير التعليم المتوسط، في بداية عمله منذ خمس سنوات كان مجرد موظف آلة كاتبة في إحدى الإدارات، نُقل حديثًا من الأرياف، في أثناء مرور الوزير في إحدى جولاته، كانت هذه هي الفرصة الوحيدة التي لن تتكرر أمام ممدوح فاستغلها أفضل استغلال كما تراءى له في حينها، يقترب من الوزير متملقًا بالكثير من عبارات تكاد تصل إلى حد التعبد، يشاهده الوزير بعين الخبير مستشفًّا خفايا شخصيته من خلف عباراته.

Scanned by CamScanner

بعد يومين من الزيارة تستدعي مديرة مكتب الوزير ممدوح يعقوب، بعد عدة أسئلة، لم يدرك أن الوزير ينصت إلى حديثه وهو في مكتبه، تنتقل إلى حياته الشخصية، يجيب ممدوح بأنه شخص عادي أتى من الريف ليعمل بهذه الوظيفة، لا سند له في هذه الدنيا، وما قاله للسيد الوزير قبل يومين كان ما يشعر به دون أي تزييف.. وإن كان ما قاله قد تسبب في ضيق لمعالي الوزير فهو على أتم استعداد لأن يفقد حياته في سبيل ألا يحزن معاليه.

يعود ممدوح إلى مكتبه، وقد داخله الشك وتملكه القلق، بعد أسبوع كانت إجراءات نقله إلى مكتب الوزير قد تمت واستلم عمله الجديد، في البداية يتملق مديرة المكتب، لكنه ما إن وجد صدرًا رحبًا داخل حجرة الوزير، وبالتحديد في الأوقات التي يكون بمفرده مع الوزير، أيقن من هذه المعاملة أنه سيكون صاحب نفوذ ولن يحتاج إلى مديرة المكتب بعد ذلك، فأهملها وتعمد أن يتخطاها في كثير من الأمور، تستاء بشدة ويتغير لونها مثل حرباء وهي تشكو إلى السيد الوزير، إلا أنه كان يقابلها بابتسامة باهتة متخطيًا الموقف، تضطر بعدها لتصيد أخطاء ممدوح وتسرب أخبارها لصحف المعارضة على استحياء خوفًا على موقعها، وكلما تزايدت ضرباتها، التي يعلمها الوزير جيدًا ويتركها متعمدًا، كلما تزايدت علاقة ممدوح يعقوب بالسيد الوزير وكأنه يحميه فيقربه منه أكثر، يدين ممدوح للوزير بولاء غير عادي ..

مع توطد العلاقة يدعو الوزير ممدوح بأوراق ليوقعها في شقته الخاصة، هناك كان الحدث الذي شاهد ممدوح بوادره من قبل في حجرة المكتب ولكنه لم يكن يصدق.

يشاهد الوزير في شقته يرتدي روبًا من الحرير الأحمر الزاهي وقد لمعت عيناه وابتلت شفتاه، يصطحب ممدوح إلى مائدة عامرة لم يشهد لها مثيلًا، دقائق قليلة مرت استطاع سيادته أن يزيل ارتباك ممدوح وأن يأكلا معًا بسعادة تصنعها الوزير ولكنها كانت حقيقية عند ممدوح .

الحرارة في الخارج مرتفعة يلطفها جهاز التكييف في الداخل مع موسيقى هادئة تنبعث من حيث لا يدري ممدوح، لوحات زيتية تنتمي للعديد من المذاهب الفنية، بعضها لأجساد نسائية عارية تمامًا بالإضافة إلى تماثيل لرجال عارية أجسادهم أيضًا، رائحة نفاذة تملأ أنفه،يأكل ممدوح كما لم يأكل من قبل، يشرب أنواعًا من المشروبات لم يعلم أسماءها، يشعر بثقل في جفونه، يبتسم الوزير وهو يقوده إلى الحمام، يعتقد ممدوح أنه ذاهب ليغسل يديه بعد الطعام، لكنه يجد البانيو مملوءًا بماء معطر وفي انتظاره روب حرير أزرق، هنا أدرك تمامًا حقيقة الموقف.

كان سعيدًا بما يحدث رغم ارتباكه، يخرج من الماء المعطر بشعور جديد ونشوة تمنى معها أن يعود إلى عصر الجواري، يصطحبه الوزير إلى حجرته الخاصة، يداعبه برشات من عطر فرنسي ساحر، ثم يبدأ في

Scanned by CamScanner

مرحلة الاحتكاك في أماكنه الحساسة .. يهمس في أذنه «سالب سوفت يا ممدوح .. الهارد بعدين» .. ثم ..

يعتقد ممدوح يعقوب أنه بما فعل قد ملك زمام الأمور في الوزارة، وأن الوزير نفسه أصبح أسفل منه. في اليوم التالي يدخل إلى العمل متخيلًا أن هناك مكافأة مجزية في انتظاره، غير المداعبات، طلب اللقاءات الأخرى، يشرد به خياله إلى أن الوزير سيطلب منه أن يفعل ما فعله بالأمس في حجرة المكتب بعد أن يغلقه من الداخل، سوف يتفانى في إسعاده ليحقق له من المتعة ما لم يتحقق له من قبل، وأن يكون على قدر من الشدة ما يجعله يصرخ من فرط سعادته ..

يصل المكتب، يجد الأمور كما هي بل أكثر جفاء، جلس ينتظر أن يطلبه الوزير، لكن هذا لم يحدث حتى نهاية اليوم، أصيب بخيبة أمل شديدة، يجلس مفكرًا في الأمر، يقلبه على كافة الوجوه، يرتبك برهة، يخشى أن يكون ما فعله بالأمس ليس على قدر الكفاءة المطلوبة وأنه فشل في أول اختبار وسوف يتم إعادته مرة أخرى إلى الآله الكاتبة، أو أن هناك مَن وشى به لدى الوزير.

أفكار كثيرة كادت تقتل ممدوح في هذا اليوم، وفي الأيام الثلاثة التالية، فقد كان التعامل بينهما يسير بشكل رسمي إلى أقصى درجة، لم يتطرق حديثهما إلى هذه الليلة، حتى إنه يرتاب في قواه العقلية .. هل هُيئ له ما حدث ؟ أكان كل ذلك كان محض خيال..؟ في اليوم الرابع طلب منه الوزير بشكل تلقائي وبجملة مختصرة:

- تعالى الساعة تسعة.

بعدها يُكمل معالي الوزير تعليمات العمل وتوقيع الأوراق بشكل روتيني، بينما ممدوح يفترسه بنظرات متأرجحة بين الغيظ والحيرة والسعادة.

يفهم ممدوح طبيعة الأمر، ما يؤديه في الخفاء مع سيده ما هو إلا أحد عناصر الوظيفة التي ارتقى إليها، مهمة يجب أن يؤديها مقابل ما وصل إليه، عليه أن يفكر في الأمر بشكل أكثر واقعية، لن يحصل على أي ميزات جديدة، سوف يُلقي به إلى أقرب سلة قمامة إن هو لم يقم بالمطلوب بالشكل الأمثل، أو إن ظهر شخص آخر ليحل محله، فَزِعَ عندما جالت بخاطره تلك الأفكار .. عليه ألا يترك ما وصل إليه من مكاسب يذهب إلى غيره، أما عن المكاسب .. فهي آتية بلا ريب .. إن طلب .. سوف يحصل .. خاصة وأن هناك مَن سيسانده بمجرد أن يُذكر اسمه، كل ما عليه هو التخطيط وبشيء من التروي.

يُمضي ليلته مع السيد الوزير، يُفرغ كل ما يمتلك من طاقة، يستحضر غيظ أيام، كبت سنوات، طمع العمر، انكسار زمن، ينتقم من كل مَن أهانوه يومًا وتعاملوا معه على أنه حشرة، يتفانى في تعذيبهم أسفله، ولو ملك القدرة لاستمر هكذا إلى أن تتلاشى تلك الطبقة من الوجود ..

ينتهي اللقاء بابتسامة عريضة من السيد الوزير، تظهر سعادته أكثر مع ذلك المبلغ الذي يلقيه نحو ممدوح فيتلقاه على صدره بسعادة كبرى، يعقب معاليه بكلمات مقتضبه:

Scanned by CamScanner

- الخميس القادم .. الساعة التاسعة يا ممدوح.

يعود إلى قريته، أمامه أربعة أيام لن يحتاجه فيها الوزير. في مقهى على شاطئ ترعة شحيحة الماء بها الكثير من مخلفات المنازل المجاورة، أسفل أشجار كثيفة يجلس بين أقرانه، يضع في خيلاء ساقًا فوق الأخرى، يفرد صدره، يعلو صوته ساخرًا من هذا وذاك .. لا يترك مارًّا أو جالسًا بالجوار إلا ويسخر منه، يتمنى لو يقارعه أحد كي يُظهر علاقته بالسيد الوزير، لم تأتِ الفرصة التي يرغبها، يلوي الحديث بشكل ملحوظ لينتقل إلى جزئية انتقاله إلى مكتب معالي الوزير، لقد أصبح من رجاله المقربين، لم يتطرق من قريب أو من بعيد إلى العلاقة الخاصة بينهما، رغم مغازلة غروره لسانه..

تأتي الصفقات عن طريق الصدفة، بعدما ينتشر خبر عمله في مكتب الوزير، يأتيه أحد أقاربه كي يتوسط له في تعيين ابنه الحاصل على ليسانس آداب، يخبره بأنه على استعداد لأن يدفع المال المطلوب، يطلب ممدوح على استحياء عدة آلاف من الجنيهات، ليست له، إنما لمن سيساعده في إتمام مبتغاه.

يعود إلى عمله، لا يعلم كيف سيتم الأمر، يرتبك، يفكر في كيفية تنفيذ الوضع، يقلبه على أكثر من وجه، يستقر في النهاية على أن أفضل الطرق أقصرها، يكتب طلب، يرفق به المستندات المطلوبة، يدخل إلى السيد الوزير مباشرة، يضع الأوراق أمامه بهدوء، بلا كلمات، يقرأ الرجل الطلب، يرفع عينيه نحو ممدوح ليتأمله مليًّا، يرتبك .. تتصاعد

الدماء إلى وجهه فتحمر وجنتاه، ينظر نحو الأرض خوفًا، هل يرفض معاليه التوقيع مضحيًا بليلة الخميس التي يتبقى عليها ساعات، أم يوافق ويحصد كل منهما مبتغاه؟

بعد لحظات بدت على ممدوح كما الدهر، يوقع معاليه بالموافقة على الطلب بمنتهى الهدوء. يخرج ممدوح سعيدًا بهذا الكسب الجديد، يحصل على المبلغ المطلوب، يتم تسكين الشاب في وظيفته الجديدة.

ينتشر الخبر في منطقته، لكنه يضاعف التعريفة، وبعد أن وثق في حصوله على توقيع معالي الوزير، يضاعفها مرة أخرى، تعريفة التعيين لدى ممدوح كانت مقسمة إلى فئات وفقًا للمؤهل الدراسي.

يكتسب خبرة في الحصول على توقيعات الوزير وتعيين أصحاب الرشاوى، لم يعد يتقدم بطلب لشخص واحد، إنما يحمل الطلب أسماء عدة أشخاص، يتعلم أيضًا أن يكون دخوله بالطلبات للوزير قبل لقاء الليل في شقته الخاصة بيوم أو يومين.

حدث ذات مرة أن دخل إليه بطلب تعيين، وكان ذلك في صباح تالٍ للقائهما، ينظر معاليه إلى الطلب، يغمر ممدوح بنظرات مملوءة بغيظ ثم يُلقي بالطلب جانبًا ولم يعقب، يخرج ممدوح وقد احمرت أذناه، توهجت أرنبة أنفه، وجهه المربع أصبح مثل شاشة تلفزيون تداخلت ألوانه، لا يعلم كيف يتعامل مع الأمر، هل يجب عليه أن يتخذ موقفًا ما أم يصمت حتى يقرر معاليه الخطوة التالية؟ يقرر الانتظار، يتعامل

Scanned by CamScanner

بمنتهى الحذر حتى يستدعيه سيده ذات يوم، يقابله بوجه بشوش، يرحب به على غير العادة:

- أين طلب التعيين؟

من بين الحيرة والدهشة والرغبة، يجيبه بحذر:

- موجود يا سيدي.. لِمَ؟
- لأوقع عليه بالموافقة.

يعود ممدوح بالطلب سريعًا، بمنتهى المكر يضيف إليه ثلاثة أسماء كانت قد أتته مؤخرًا، يوقع الوزير بلامبالاة معقبًا بعبارته المعتادة:

- الساعة التاسعة.

خمس سنوات مرت في حياة ممدوح يعقوب تعلم خلالها ما لم يتعلمه طوال سنوات عمره السابقة، يكون ثروة ضخمة بالإضافة إلى شبكة العلاقات التي كونها والتي استطاع أن يستغلها الاستغلال الأمثل.

كان هذا تقريبًا ممدوح يعقوب الذي اقترب من هناء السعيد مصافحًا بحرارة، بادلته التحية ببشاشة، يعلق على براعتها على الشاشة وأن السيد الوزير من المعجبين بها، يصطحبها إلى باب مكتب الوزير، يميل نحوها بود ليسر إليها بكلمات بدت كهمهمات:

- ممكن خدمة صغيرة يا هناء هانم؟
- تحت أمرك يا أستاذ ممدوح .
- بعدين .. نشرب القهوة في مكتبك.

كثيرا ما كان ممدوح يهمس إلى ضيوف معالي الوزير بهذه الجملة «ممكن خدمة صغيره يا ..» وغالبًا ما يكون ذهنه خاليًا في هذه اللحظات من أي أمر، لكنه يحصل على الوعد بالمساعدة إلى أن تأتي الأحداث بأمر مرتبط بهذه الشخصية، ولابد أن تأتي، فيذهب إليه ليقضي مطلبه.

لم تمكث هناء السعيد في مكتب الوزير أكثر من خمس دقائق عرضت خلالها رغبة القناة في برنامج أسبوعي يكون معاليه ضيفه الدائم حيث يحاوره رئيس القناة توفيق مراد .

يقلب الوزير الأمر على أكثر من وجه قبل أن يجيبها، في البداية تأتيه الجميلة هناء السعيد بالذات لتؤثر فيه بجمالها قدر الإمكان، إن أظهر عدم تأثره بجمالها ولم يوافق، لفت إليه الأنظار وصحت الشائعات المنطلقة حول شذوذه، أو على أقل تقدير سوف يقال إن هناك ما يخفيه عن الجماهير فتنطلق حوله الشائعات، واستضافة المسؤولين في البرامج موضة، والهجوم على المسؤول الرافض للظهور الإعلامي موضة أيضًا، فهي فرصة للإعلامي كي يظهر بدور الفارس، ثالثًا كان مثل هذا البرنامج فرصة كي يتحدث الوزير بما يشاء عن القيم والأخلاق، يهاجم الفساد، يُجمل ذاته بوصفها تحمل صفات ملائكية، بذلك يكسب ود الجماهير ويقتل أي شائعة تنطلق ضده في مهدها، وأخيرًا كان من أسباب موافقته أن مثل هذه الخطوة توافق لديه رغبة في البريق أكثر مما هو عليه.

Scanned by CamScanner

تخرج هناء السعيد بهذه الغنيمة متوجهة إلى مكتب توفيق مراد، في الطريق قررت أن تحصل مقابل ذلك على أكبر مكسب، ولكن ما هو المكسب الذي تريده هناء السعيد في هذه اللحظات؟

هذا ما بدأت تفكر فيه بعمق وهي تسترخي في مقعد السيارة الخلفي، تشعر بخدر مع أنغام الموسيقى الهادئة التي تنساب عبر جهاز السيارة، بينما يصارع سائقها عقبات الطريق في انفعال مكبوت.

***

10

هناك أشخاص تغلب طيبتهم السمحة على أفعالهم، يقدمون أقصى ما يمتلكون من قدرات بدون أن يفكروا ولو للحظة واحدة ما هي النتائج التي سوف تعود عليهم عبر هذه الأعمال، هم ضد فكرة النفعية التي أضحت منهج عدد لا يحصى من البشر.

ينهمك فؤاد هاشم، كعادته، في عمله غير مهتم بما يدور حوله، كان عليه في يومه هذا أن ينجز الكثير من الأعمال التي طلبها منه توفيق مراد، لم يكن يعلم طبيعة المهمة، كل ما هنالك أن توفيق مراد طلب منه أن يجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات حول عدة قضايا وعلاقة السيد الوزير بهذه القضايا، يستطيع فؤاد فعلًا من خلال شبكة «الإنترنت» أن يحصل على موضوعات في كافة المجالات، يخرج منها بنقاط فرعية من الممكن أن يتحدث فيها الوزير، يعيد صياغة المادة كاملة بأسلوبه الخاص المميز في هذا المجال، فالأفكار ملقاة على قارعة الطريق في

Scanned by CamScanner

انتظار مَن يلتقطها ليُشكل منها عملًا متميزًا، فؤاد يمتلك هذه الموهبة، يعد ملفًا يكتب عليه «خاص جدًّا».

يذهب إلى مكتب توفيق مراد، ينتظر في مكتب السكرتارية لوجود ضيف بالداخل، يتسرب إلى داخله الملل، يقرر أن يعود إلى مكتبه حتى ينتهي توفيق لكن مديرة مكتبه عاملته بغلظة وهي تطلب منه الانتظار بناء على رغبة رئيس القناة، يجلس ممتعضًا، يتصفح الملف في يده مرة تلو المرة، يخرج قلمًا ليضيف بعض ملحوظة ويعدل نقطة في نهاية الموضوع.

الحقيقة أن فؤاد من الأفراد القليلين في القناة الذين يهتمون بعملهم فقط، بدون أن يكون له أي أهداف شخصية، وأي عمل كان يقوم به كان يحاول قدر الإمكان أن يتفانى فيه، حتى محاولاته الأولى في مجال الكتابة الأدبية كانت تأخذ منه الكثير من الجهد، وفي النهاية لا يرضى عنها فيخبئها في أدراج الذاكرة ولا يعرضها على أحد.

لهذا السبب كان يستعين به توفيق مراد في إنجاز مهام بعينها وفي المقابل كان يشمله بالقليل من المنح والكثير من الاحترام الشخصي، وهذا ما كان يجعل فؤاد يتفانى في تحقيق المطلوب.

حينما طلب منه هذه المعلومات الموجودة الآن بين يديه أوحى إليه بأن يكون الأمر تصورًا كاملًا لبرنامج وليست معلومات وثائقية، يقوم فؤاد بإعداد نسخة وثائقية وأخرى تصورًا كاملًا للبرنامج، يخفي الثانية لسببين الأول: لأن توفيق مراد لم يطلبها صراحة، عادة هو لا يطلب،

وإنما يوحي برغبته فقط، فإذا قدم مَن أمامه ما يوافق رغبته امتنع عن قبوله في بادئ الأمر، ثم يقبله على مضض كي يُشعر من أمامه أنه أنعم عليه بقبوله منه، أما السبب الثاني لإخفاء التصور الكامل هو أنه لابد أن يمكر بعض المكر كما يفعل الآخرون، وإن كان بدرجة أقل فقد ينجح في الحصول على مكسب ما ذات يوم.

مكتب السكرتارية سيئ التنسيق، قديم الطراز، كثير الزوار، ينظرون بعين مرتابة لفؤاد متسائلين في صمت مقيت:

- منذ متى وأنت من المترددين على مكاتب الرؤساء؟!

رغم تواجده في مهمة عمل إلا أنه يشعر بضيق شديد، تمر عليه الدقائق ثقيلة إلى أن يخرج ضيف توفيق مراد وخلفه آخر يحمل كاميرات على صدره، مصور صحفي يسير خلف سيده، يميل فؤاد ناحية مديرة المكتب يسألها عن اسم الضيف، لم تجبه، فقد انتفضت بحركة سريعة فأصدر مقعدها أنينًا، ترفع يدها لتحية الضيف المغادر، ترسم على وجهها ابتسامة عريضة تناقضت مع شخصيتها الجامدة وهي تقول:

- صاحبتك السلامة نجيب بك .. كان فيه ..

تقترب منه لتهمس له في أذنه، لم يسمع فؤاد شيئًا مما قالته، لكن نجيب بك الذي لم يكن غير نجيب سالم نائب رئيس تحرير صحيفة قومية، أجابها بصوت عريض مملوء بالجرأة التي تنتاب أصحاب المكان والحق:

Scanned by CamScanner

- بالطبع ممكن .. ليمر عليَّ في مكتبي ..

يخرج بطاقة تحمل اسمه بخط ذهبي، يوقع عليه، يمد يده إليها فتلتقط البطاقة بسعادة ملحوظة، تعود السكرتيره حاملة «الكارت» بعناية نافخة فيه برفق كي يجف حبر التوقيع، تضعه أمامها على المكتب بعد أن تُخلي مكانًا يسع لكتاب وليس لكارت صغير.

***

11

نجيب سالم صحفي ذو صلاحيات واسعة ونفوذ معروف في الوسط البرلماني نظرًا لتغطيته جلسات مجلس النواب، أهم ما يميزه قدرته الفائقة على تصوير موضوعاته التي يكتبها في الجريده، بأنها سيوف مسلطة على رقاب أعضاء المجلس، فمن أطاعه نال منه ما يحب ومن عصاه يصبح من حزب الأعداء.

أعداء نجيب لم يتعدوا عدد أصابع اليد الواحدة على مدى تاريخه منذ أن بدأ تحرير هذا الباب، مقالته الأسبوعية في الجريدة هي سلاحه ضد مَن يعارض، يتحدث باستمرار عما أصاب الأعداء بعدما فضحهم في مقالاته، يصور ذلك العدد القليل جدًّا على أنهم قطيع .. فكلما كثر عدد من سقطوا على يديه كلما قويت شوكته، يتحدث عن قوته الكثير .. يضيفون كلمات لها بريق مثل «قلمه سيف بتار. صاحب ضمير نقي. من شرفاء المجتمع .. إلخ » وكأنهم يساعدونه في بناء صرح سطوته فيرتفع البناء. أهم عبارة كان يتشدق بها ليل نهار» أعداء الوطن يجب

Scanned by CamScanner

أن تتم محاكمتهم» .. لا يحدد مَن هم أعداء الوطن، لكن كل شخص كان ينأى بنفسه كي لا يكون منهم، فيقدم الولاء والطاعة.

لكن واقع الأمر الذي يدركه نجيب سالم جيدًا، أن مقالاته الموجهة إلى الجماهير قد لا يقرؤها أحد منهم، إنما يقرؤها البرلمانيون فقط، المهتمون بالأمر سواء مَن يتحدث عنهم المقال أو مَن يحقدون عليهم إن كان فيه كشف أو اتهام صريح. يتصل نجيب بمَن كتب عنه كي يخبره أن كثيرًا من القراء قد اتصلوا به وعقبوا على جودة الموضوع، وكانت هذه الجملة بالذات كثيرًا ما تقال وكأن الجماهير كانت في انتظار مثل هذه المقالة أو ذلك التحقيق !! بالطبع لم يكن يستطيع أن يحدد ولو فرد واحد من هذه الجماهير.

في المقابل كان يحصل على مكسب جديد من هذا العضو، تأشيرة يتفانى العضو في الحصول عليها من أحد الوزراء للتعيين في وظيفة يحصل نجيب على مبلغ ضخم مقابلها، أو النقل من مكان لمكان أفضل، ترقيات، تيسيرات للحصول على شقق إسكان حكومي، أراض من تلك التي يتم توزيعها .. أي صلاحيات .. وإن لم تكن له فهي لغيره ويحصل مقابلها على عمولات مادية أو هدايا عينية ..

من ضمن أسلحة نجيب سالم هو تكليف أربعة من الصحفيين المبتدئين في بعض الصحف الأخرى للإشادة بمقالاته والكتابة نقلًا عنه حتى يأخذ قلمه صفة المرجع وبالتالي الشرعية، كان قد وعد هؤلاء الأربعة بمساعدتهم في الحصول على عضوية نقابة الصحفيين، هذا ما

ظل يماطل فيه كي تطول فترة سيطرته عليهم، عندما تنتهي لديه الأعذار يساعد أحدهم فيعاود الآخرون الأمل، بهذا تستمر مخالبه في النمو في أكثر من اتجاه يناصرونه، يتحدثون عن قدراته الفائقة وإمكانياته الخارقة ..

إن حدث وظهر منصفٌ واحدٌ ليقول كلمة حق، سوف يقول إن نجيب سالم لا يمتلك غير ميزة واحدة وهي شيء من الوقار والهيبة، يستغلها بشكل يفوق قدر الخيال، أما عن قلمه وحسه الصحفي فهو متوسط، اختار هذا المجال البرلماني لأنه لا يحتاج إلى قدرات خاصة أو ملكة أدبية، ينقل فقط عن المضبطة الخاصة بالجلسات أو يحصل على نسخة من القوانين الجديدة، بالتدريب ومرور الزمن استطاع أن يسلط الضوء على هذا العضو أو يضع آخر في بقعة ظلام ويضع صورة ثالث وهكذا .. حتى أطلق عليه في النهاية الصحفي الكبير وصاحب القلم الجريء، وها هو اليوم يزور توفيق مراد في مكتبه لعمل تحقيق حول الدور الإيجابي لقناة الأمل لإثراء الحياة السياسية ودعم الحياة البرلمانية ..

يسعد توفيق مراد بمثل هذا التحقيق، يستشعر أنه على أعتاب الحياة السياسية وأن مثل هذا التحقيق سيكون ورقة في صالحه إن هو طمح ذات يوم في ترشيح نفسه في انتخابات المجلس عن دائرته، قبل أن يخرج نجيب سالم كان على توفيق مراد أن يرد إليه التحية، يطلب منه أن يكون ضيف البرنامج الأسبوعي عن الحياة البرلمانية في القناة،

Scanned by CamScanner

يبتسم نجيب مستخفًا بمثل هذه التحية، يبتلع توفيق لعابه، يدرك أن عليه تقديم هدية أكبر، يعرض عليه الإشراف على فريق الإعداد على البرنامج نظير مقابل مادي مجزٍ، هنا يبتسم نجيب بصفاء لكنه يظهر تمنعًا خفيفًا وهو يجيب:

- إشراف على فريق الإعداد يحتاج إلى الكثير من الوقت والمجهود و..

وقبل أن يتم عبارته يفهم توفيق ما يرمي إليه فيقاطعه قائلًا:

- يكفي أن تكون مع الفريق يومًا واحدًا في الأسبوع لإرشادهم .
- و هو كذلك .. مبارك عليكم.
- فعلًا، شرف لنا نجيب بك.

يلتقط المصور لتوفيق مراد عدة صور من زوايا مختلفة، يتصافح الطرفان نجيب وتوفيق وقد رضي كل منهما بما حققه من مكاسب. عمومًا سوف يستطيع توفيق إقناع إدارة القناة بتوفير المبلغ المطلوب للكاتب الصحفي، سوف يلمح لهم أنه ما اتفق معه إلا اتقاء لشر قلمه، أيضًا سيسعى إلى إقناع أحد المعلنين برعاية إضافية للبرنامج يستطيع من خلالها أن يحصل على المال المطلوب وزيادة، سيكون له نصيب كبير من تلك الزيادة.

***

12

قدرات خاصة يمتلكها البعض، تكون سبب في ارتقائهم درجات المجد، أولى هذه القدرات، قدرتهم على كبح داخلهم وإن كان أتونًا مشتعلًا، يرسمون الابتسامة على وجوههم، تشعر بأنهم نسمات تتحرك على الأرض، في أي وقت، في أي مكان البشاشة والحماس سمتهم .. وهم يعلمون أنك تعلم أن بداخلهم شرور الكون .. لكنهم يستمرون ويا للأسف .. في زماننا هذا .. ينجحون.

بمجرد خروج نجيب سالم وخلفه المصور يدلف فؤاد بالملف إلى توفيق مراد الذي يستقبله ببشاشة وأعصاب هادئة وكأنه في نزهة عاد منها منشرح الصدر صافي المزاج:

- أهلًا فؤاد؟
- الملف المطلوب جاهز حضرتك.

يأخذ توفيق الملف ويلقيه أمامه بلامبالاة، يتناول سيجارة، يشعلها في هدوء وسعادة ظهرت جلية على شفتيه وهي تتلفف مبسم سيجارته.

Scanned by CamScanner

يتجاذب أطراف الحديث مع فؤاد عن أخباره الخاصة، وهل توجد مشكلات في العمل؟ بعدها يفتح الملف وكأنه يعبث في الأوراق، يشاهد بعين خبيرة ما يحتوي عليه ثم يعيده إلى سيرته، يلاحظ فؤاد عدم الاهتمام ويكظم غيظه، ينتظر حديث توفيق .. مؤكد سوف يلاحظ الشرك الذي أعده فؤاد، لحظات ثقيلة تمر قبل أن يرفع توفيق عينيه ليصعّد فؤاد بناظريه قبل أن يقول في هدوء:

- محترف مثلك يقدم هذا؟

يدرك فؤاد ما يرمي إليه توفيق، يبتسم في أعماقه وهو يرى صدق إحساسه، لكنه يتصنع الدهشة الفطرية وهو يجيبه:

- هذه هي المعلومات التي طلبتها!

- تعلم جيدًا المطلوب، سوف أنتظرك بعد ساعة لتأتي بالمطلوب .

يندهش فؤاد من هذه الثقة والجرأة التي يتحدث بها رئيس القناة، يرتبك لحظة خشية أن يكون أمره قد افتضح وعرف توفيق أن هناك نسخة أخرى تحمل تصورًا كاملًا للبرنامج، يعترف في داخله أن هجوم توفيق جعله يشعر بالصغار مثل تلميذ أمام أستاذه، يواري ارتباكه وكأنه يدفن شيئًا حيًا في رمال، يزدرد لعابه فيجد صدره جافًا، يتماسك، يقف ليغادر، بعد خطوتين يلتفت إلى رئيس القناة الذي كان يتابعه بنظرات شديدة جعلها بمهارة مفعمة بالود، يرتبك فؤاد، يتلعثم .. يبادره توفيق بسؤال عما يريد، أخيرًا يتماسك فؤاد .. يجيب:

- الـ .. العلاوة التشجيعية .. حصل عليها زملائي .. بينما ..

ما يطلبه فؤاد كان حقه، غيره يطلب أكثر من ذلك بجرأة وبدون مقابل، أما فؤاد كان يمنعه خجله وبالكاد شعر أن عليه أن يطلب مقابل، فطلب حقه، يوافق توفيق لأن ذلك أمر طبيعي فهو من المجتهدين الذين يستحقون ذلك، توفيق في مثل هذه الأمور يقف موقفًا يراه مشرفًا يُظهره بمظهر الحريص على مصلحة الآخر بشكل يجعل هذا الآخر يشعر بأنه مدين لتوفيق مراد وعليه أن ينجز في المقابل خدمات أخرى يستغلها توفيق لصالحه دائمًا.

يخرج فؤاد سعيدًا بانتصاره تاركًا خلفه توفيق الذي يبتسم في دهاء حالما لاحظ سعادة فؤاد وما سوف يقدمه مقابل ما يعتقده مكسبًا.

كانت هذه إحدى مكونات شخصية توفيق مراد حيث يحصل على أفضل شيء ممن يتعامل معهم وإن ثبت نجاح هذا الأفضل ينسبه لنفسه أمام الجميع وعلى صفحات الجرائد بشكل سافر مسلطًا الضوء على النقاط البسيطة التي أضافها وكأنها هي المشروع كاملًا، ذلك كيلا يدع فرصة لصاحب المشروع الأصلي لمهاجمته، أما إن لم ينجح المشروع لأي سبب أعاده لصاحبه متحدثًا أمام الجميع بأنه حاول أن يقف إلى جواره ويساعده لكنه لم يلتزم بالنصائح .

ينظر توفيق بعين لا تعرف الإرهاق إلى الساعة التي قاربت الواحدة ظهرًا، هذا يعني أن هناء السعيد موجودة في مكتب السيد الوزير من نصف ساعة تقريبًا، إن أضاف الوقت الذي سوف تنتظره في السكرتارية والوقت الذي ستقضيه مع السيد الوزير والذي يساوي مقدار تناولها

Scanned by CamScanner

لكوب من الشاي، فقد نصحها من قبل بأن تختار الشاي كمشروب حيث يستغرق إعداده وتناوله وقتًا أطول مما يؤدي إلى إطالة مدة اللقاء، المفترض لها أن تعود في الواحدة والنصف تقريبًا، إذن أمامها نصف ساعة ..

يشعر بالهدوء والراحة النفسية نحو الأمر، يستشعر موافقة السيد الوزير، ثقته في ذلك نبعت من أن الخطة التي وضعها، مستخدمًا هناء السعيد بجمالها لتنفيذها، كانت تسير في الاتجاه الصحيح، لذا كلف فؤاد بوضع التصور الشامل، وإن حدث رفض، وهو احتمال ضعيف، فإن إعداد المشروع لن يضر أبدًا، ذلك لأنه لم يبذل فيه أي مجهود، ثم إنه من الممكن أن يتم الاحتفاظ به لوقت آخر.

يهز رأسه بشدة وكأنه ينفض عنها احتمال الرفض، لا يعلم المدة التي شرد فيها خلف أفكاره المتلاطمة الأمواج، حتى أخرجته منها هناء السعيد التي دخلت مباشرة، ود لو وقف لمقابلتها، يتماسك مظهرًا قوة وشجاعة بدت في عين هناء زائفة فذهبت عنها ابتسامتها، فأسرع واقفًا ليعطي الموقف حركته المطلوبة، ليس من الطبيعي أن يجلس الآن مظهرًا اللامبالاة، يجب أن يشعرها بالفعل أنها أتت بشيء ثمين، يلتقط راحة يمناها من قبيل المصافحة، يجدها طرية دافئة فأبقاها في يده وهو يسألها:

- معالي الوزير وافق؟

أومأت بالإيجاب بابتسامة عريضة مع أنوثتها الطاغية جعلته ينسى كل شيء، ود لو يحتضنها طويلًا ليعبر عن مدى سعادته، يحتوي

جسدها بنظرات ساخنة تعبر عن رغبة جنسية حقيقية، تخرج من جسده تلك الرائحة التي يطلق عليها علماء الجسد كيمياء الفرمونات «Pheromones» وهي مركبات كيميائية تفرزها أجساد البشر بحيث تكون هناك علاقة بين المفرز والمستقبل، وهي من سبل نقل المعلومات بين الأشخاص، توجد في الجسد خلايا خاصة تفرز هذه المركبات وتطلقها في الجو، فإذا حدث توافق بين المرسل والمستقبل حدث نوع من الإثارة والحث لتفاعلات كيميائية أكثر قوة، لكنه يدرك تمامًا اللحظة التي يجب أن يتوقف عندها، يختصر ذلك في أن رفع يدها ليقبلها بعمق.

تسحب يدها برفق وهي تجلس فوق مقعد مجاور جلسة المنتصر، يجلس هو على طرف المقعد المقابل لها منحنيًا نحوها ليختصر المسافة التي تحتلها المنضدة الصغيرة التي تفصل بينهما، لم يجد ما يعقب به فقال:

- هل صرفتِ المكافأة؟
- نصف شهر فقط؟!

قالت ذلك ساخرة متدلهة فألهبته أكثر، يعتصر داخله لئلا يخرج ثوره الهائج من محبسه، يقول:

- غدًا هناك مكافأة أخرى .. شهر كامل جراء نجاح الحلقات الأخيرة من برنامجك ..

تقف .. تتحرك بهدوء .. بعد خطوتين تستدير لتواجهه ناظرة في عينيه مباشرة بينما كان يتابعها من مقعده منتظرًا حديثها، تبدو

Scanned by CamScanner

كإمبراطورة حولها هالة من الهيبة، ينكمش في مقعده للحظة، تاهت ابتسامته في قلب لحظة خوف فظهرت باهتة، تشاهدها هناء بلهاء، تبتسم لهذا التفسير، يعتقد توفيق أن ابتسامتها تدل عن سعادة بالمكافأة .. يسعد بذلك، يقف ليواجهها.

تعودت هناء منذ سنوات طويلة أن تستغل المواقف أفضل استغلال بما يعود عليها بالمصلحة المباشرة مادامت لا تجد معارضة شديدة، تفعل ذلك وإن كان طلبها يتعارض مع شخصيتها، من ذلك ما حدث عندما طلبها أيمن، المدرس الجامعي، للزواج، كانت تكرهه، تشمئز من تصرفاته على الملأ أمام زملاء الدراسة، لكنه فعلًا أحبها، صُعقت من طلبه في بادئ الأمر، بحكم ما تعلمته من صبر وأناة في إشارات المرور، عندما كانت تبيع المناديل الورقية حيث كانت تمر الساعات دون أن تبيع شيئًا أو تحصل على نفحة مالية من عطوف، تدرك أن الأمور لا تأتي غالبًا كما يتمناها المرء، تطلب من الدكتور أيمن فرصة كي تدرس الأمر وتستشير ذويها.

تقلب الأمر على جميع زواياه، أيمن صاحب منصب مرموق، من أسرة ميسورة الحال، يعتبر طوق نجاة ذهبي لانتشال هناء السعيد من فقرها ومن تاريخها الذي تخجل منه. المشكلة أنها فعلًا لم تتخيل مثل هذا الرجل شريكًا لها في الفراش يومًا ما.

في هذه اللحظات تركت لنفسها العنان لتتخيله فعلًا معها في فراش حريري فاخر، أعده لها من ماله الوفير، تشاهده عاريًا كرجال العصور

الأولى، شعر مشعث، أظافره طويلة متسخة، يهجم عليها بوحشية ليلتهمها، تصرخ .. تفيق .. تعود إلى الواقع ..

يشاع عن تلك الفئة التي تمضي معظم حياتها في الشوارع، خاصة الجميلات مثل الطفلة هناء، أنهن كثيرات البغاء، منحرفات بطبيعتهن، لا يدركن للعذرية معنى بعد فقدها في باكر العهد، إلا أن هناء استطاعت أن تحافظ على نفسها تمامًا، تجد بداخلها غضاضة من حياة الشوارع بأكملها، لن تستطيع أبدًا أن تبحث عن ملذاتها، لولا قليل المال الذي يأتيها من هذا الباب ما استمرت.

بعد أيام من نزولها إلى الشارع وسيطرتها على مكان في إشارة المرور، بدعم من أمها وأحد بلطجية المنطقة، يطلب منها في بجاحة مراهق شقي أن يضاجعها داخل حطام السيارات خلف قسم الشرطة، لا تجيبه، تبصق على الأرض بينهما قبل أن ترحل، يلحق بها الشقي ليمسك بذراعها مبتسمًا، يعتقد أن رفضها أتى لاختياره خرابة حطام السيارات، يعرض عليها مكانًا آخر فوق سطح عمارة قريبة، لا يدرك سكانها مَن الساكن من الغريب ولا يرتقي أحدهم سطوحها يوم إلا لتثبيت أطباق الاستقبال، بهدوء شاردة مشمئزة تنحني لتلتقط حجر صغير ثم تقذف به إلى وجه الشقي الذي تمتزج دهشته بصراخه قبل رحيله.

من بعيد يأتيها كمعنى لا تستطيع صياغته، يؤكد على أن ما لن تبيعه اليوم بالقليل سوف يباع في المستقبل بالكثير، يوم يأتي فتى الأحلام الثري ..

Scanned by CamScanner

كانت تنتظر مثل هذا اليوم وتقرر في داخلها بأنه سوف تبذل قلبها لحبيب الغد، سنوات الحرمان تُنبت بداخلها عشقًا ينعم به ذاك الحبيب .. تتأمل القادم .. تجده أيمن .. لا .. لن تستطيع أن تفتح له قلبها وإن توافرت فيه باقي الشروط.

تفكر في الأمر مليًا، تستشير زميلات الدراسة اللائي اتهمنها بتصنع بغضها للدكتور أيمن، من قبل، كي تُوقع به في شباكها، لم يصدقن قسمها بعدم صحة ذلك، أخيرًا .. بعد جدل كبير .. كانت الأغلبية قد وافقت على مثل هذا المشروع، هذه الآراء كانت كما النار في الحديد تجعله لينًا سهل التشكيل.

الخطوة التالية كانت ألا تترك خلفها ما قد ينغص حياتها في المستقبل، تطلب من أيمن لقاء يكونان فيه وحدهما، يتفقان على المكان والموعد .. قاعة فاخرة على ضفاف النهر، مشهورة بأنها ملتقى العشاق، في أيام البرد تغلق نوافذها الزجاجية العملاقة، يحصدون الدفء وروعة جمال النهر، تعرف هناء المكان جيدًا، ذهبت إليه أكثر من مرة مع زملاء الدراسة.. لم ترهبه كما الآن .. تسير مضطربة .. تجر قدميها، تدرك وقع ما ستقوله، كيف يستقبل حديثها؟ في حال رفضه .. هل يبوح بأسرارها؟ لابد لها من التأني .. تلتفت لتعود .. تسير عدة خطوات، تتوقف .. لماذا هي تائهة هكذا .. حتى الشارع الذي تسير فيه الآن لا تدرك له نهاية، لم تشعر بمثل هذا الضعف من قبل،تضم قبضة

يدها بحزم، تستقبل أشعة الشمس التي تخترق الأغصان، تملأ صدرها بالهواء، تتوجه إلى مكان اللقاء.

قررتُ أن تكون الأقوى، أن تُمسك دفة الأمر، تستعين بجمالها، بجسدها تحركه كي ينطق بدلًا منها، ترفع أنفها في شموخ، صدرها ينفر ليلحق بأوركسترا جسدها حين تعزف لحن الكبرياء .. يتضاءل أمامها أيمن الذي يتأملها في سعادة، يراها شامخة مثل أميرة من عصر الأساطير، يشعر بنظرات الجميع نحوه يحسدونه.

تسرد له كل ظروف حياتها السابقة، عملها لمساعدة أمها بعد هروب الأب .. تشرد ببصرها معلنة نقمتها على كل رجال العالم كي تضع العقبات أمام أيمن فيتمنى لو تهبط إليه من عليائها.

يرتبك أيمن وهو يشعر بها يائسة تكاد ترفضه وترحل، يحاول أن يكون ذلك النموذج الملائكي الذي يغير لها نظرتها، مهما يقدم من تنازلات فهو الرابح حقًا، هناء أسمى من أن تقارن بماديات، ترتعد أطراف أصابعه معبرة عن شجن وعاطفة حقيقية لرجل عاش للعلم طوال حياته، رجل يرى في داخله طفل صغير يود لو يلعب ويلهو .. يهتز داخله بعنف، يسري بداخله خدر لذيذ لم يشعر به من قبل، حالة جديدة عليه تمامًا، يسعد بها، يقرر في داخله بأنها الحياة الحقيقية سوف تبدأ الآن .. تبدأ مع هناء .. تبدأ بها .. هي الحياة. يفيض في وصف مشاعره .. روعة مستقبلهما معًا، سوف يوفر لها كل ما تشاء .. يجعلها أميرة تأمر في مملكته .. كل رغباتها أوامر تُنفذ قبل أن تنطق بها

Scanned by CamScanner

.. رحلات لا تنتهي .. سوف يتفانى في إسعادها ..سيكون لها العالم كله ..

تحبس بداخلها تلك الابتسامة التي كادت أن ترتسم على ملامحها حينما تحقق ما كانت ترمي إليه.. فها هو الدكتور أيمن يرتدي عباءة البطولة، تستمع إلى كلماته .. تلحظ تأثره الشديد .. تحاول أن تجد فيه فارسًا من العصور الوسطى يرتدي عباءة سوداء، ترفع رأسها لتشاهد تعبيرات وجهه، تشاهد ابتسامته وقد انفرجت عن أسنانه اللامعة، تشعر أن أنيابه قد استطالت قليلًا، تهز رأسها بعنف .. تراه يرتخي بجسده على مقعده يبدو لها عجرفة بغيضة، لا تعلم أن قدراته على التماسك قد تلاشت تمامًا، أصبح كما غصن جاف تحركه الرياح كيفما تشاء، تنصت إليه، يحدثها بأن العمل شرف، لا ذنب لأحد ولد في أسرة فقيرة، الفرد يصنع تفاصيل حياته، ومن دواعي سعادته أن تكون زوجته مناضلة من أجل الحياة وهذا بالتأكيد سيعود على حياة أولادهم بالنفع .

أولادهم ؟! نزلت الكلمة كالصاعقة على هناء السعيد وكأن خطوة الزواج لن تكون مصحوبة بالأولاد!! لم تصل بتفكيرها إلى حد أن يكون هناك أولاد .. يرتعد داخلها، تقبض بيديها على حقيبتها الصغيرة، تضمها إلى صدرها كمن سترحل.

تتوقف لحظة، تتصدى سريعًا لأفكارها المهتاجة، تكبحها، توافق على الزواج، يعد مكسبًا حقيقيًا في هذه المرحلة من حياتها، سوف تنهي دراستها تحت حمايته فتتجنب مشكلة المال اللازم للدراسة، بل

مشاكل الحياة بوجه عام، من المؤكد أن العمل بعد الدراسة سيكون متاحًا عبر الدكتور أيمن ..

يجب أن تستغل الموقف أفضل استغلال.

هذا بالضبط ما قررته وهي تقف أمام توفيق مراد في حجرة مكتبه، يحترم توفيق شرودها، ينتظر أن تبدأ الحديث، يضغط أعصابه المنفعلة حتى يتم له اللقاء الدائم مع الوزير بدون وسيط، وقتها لن تجد هناء السعيد ما تجده اليوم من هيمنة، هي تدرك ذلك فقررت أن تطلب بجرأة:

- منصب مدير الإدارة يحتاج لمن تمتلك قدراتي.

يرتبك توفيق لحظة، يستطيع أن يفعل ذلك بسهولة، يقوم بترقية المديرة الحالية إلى درجة أعلى وإن كانت شرفية ثم يتم ترقية هناء، المشكلة كانت تكمن في زملاء هناء، مختار محفوظ، صفاء هلال، حتى فؤاد هاشم، لابد أن يفكر في الأمر، يجلس خلف مكتبه شاردًا قبل أن يبتسم قائلًا:

- مجرد ما يتم التسجيل مع الوزير عدة حلقات، سوف أصدر أمرًا بهذه الترقية.

تقطب جبينها فيرتفع حاجبها الأيسر، تعض على شفتها السفلى، تكظم غيظها، تقول:

- و ما علاقة الوزير بهذا؟!

Scanned by CamScanner

يرسم توفيق ابتسامة لم يستطع من خلالها أن يخفي غصة، يقف تاركًا مقعده كي يشتت تركيزها، لا يستطيع مواجهة نظراتها، يقف لحظات أمام النافذة يلاحظ حركة الشارع في تلك اللحظات، سيل من البشر لا تنقطع حركته ليل نهار، على وجوههم عذابات العمر تشكل ملامحهم، يزفر قبل أن يستدير ليواجه هناء، يقول:

- وقتها نطلق شائعة بأن هذا التعديل قد تم بناء على توصية من شخصية كبيرة..

يضغط على الحروف الأخيرة لكلماته الأخيرة، يصمت تاركًا لهناء فرصة استيعاب الأمر، يتفرس ملامحها لمعرفة مدى تقبلها للفكرة، يجلس واضعًا ساقًا فوق الأخرى، يستدعي قوة منصبه لتضفي على ملامحة شيئًا من الصرامة، يكمل بهدوء وهو يمط شفتيه تعبيرًا عن مشاعر مرتبطة بالجملة الآتية:

- و ما نحن إلا عبيد للأوامر، سوف يدرك الجميع من غير شرح أن الوزير هو صاحب هذه التوصية، وهذا سوف يقضي على أي محاولة للتصدي للقرار، فلن يجرؤ أحد على الطعن في قرار خلفه قوة كبرى .

تعجب هناء بتلك الطريقة، يهدأ داخلها فتبدو على ملامحها علامات الارتياح، فجأة ترتاب في صدق نيته، تعود ملامحها إلى طبيعها، تسأله بجدية:

- وعد؟

يجيبها بسعادة المنتصر:

- بالطبع .. وسوف نحتفل معًا بهذه اللحظات السعيدة ..

يقول ذلك وقد غمز بإحدى عينيه بشكل لا إرادي وهو يمد يديه ليحتوي راحتيها محملًا لمساته أكثر من معنى. تدرك هناء ما يرمي إليه، لا تود صده الآن .. وقتها سيكون لها معه شأن آخر.

لا يدركان أن اليوم الرهيب سيكون أسبق.

***

Scanned by CamScanner

13

للشقاء أجنحة يرفرف بها فوق المريدون، مَن يتركون سُبل الراحة ويسعون خلف أسباب الشقاء، يدسون أنوفهم باستمرار فيما لا يعنيهم، يبررون لأنفسهم تدخلهم بأنهم أصحاب حقوق يبحثون عنها، يجب أن تكون تلك الأفعال المحيطة عبرهم .. تصب في صالحهم، غير ذلك مرفوض، لا يشعرون بلذة أو بروعة طالما كان هناك أمر غير واضح بالنسبة لهم.

لم يشعر ممدوح يعقوب بهدوئه المعتاد منذ أن خرجت هناء السعيد من مكتب الوزير وذلك لسببين أولهما أنه يود لو يعلم سبب الزيارة، فقد يكون هناك مكسب ما يعود عليه، يجب اقتناصه، ثانيهما أنه اليوم، مع وضعه الجديد، يحلم بأن يحظى بصديقة من جميلات المجتمع، يتقابلان، يسيران في شوارع القاهرة نهارًا، ينتهي بهما اليوم في فراش وثير، يذهبان في نهاية الأسبوع إلى شاليه في الساحل الشمالي أو في الغردقة، ليتها تكون هناء السعيد.

ربما يتصور البعض أنه محط أنظار الجميع، وأن ما يفعله هو محور أفعال العالم، على الجميع أن يقدر عناءه، يجازيه على بطولته، إذ يعتبر أن ما يقوم به بطولة.

من هؤلاء ممدوح يعقوب الذي يعتبر قربه من معالي الوزير سببًا يجبر على احترامه في كافة الأوساط، بل وتنفيذ رغباته، يساعده على ذلك تحقيق بعض مطالبه في السنوات الماضية، ارتفاع رصيده في البنك.

الآن يطفو إلى السطح حلم جديد لا ريب سينجح في جعله واقعًا، صداقة هناء السعيد، يفكر في الأمر بهدوء الواثق من النجاح، أول ما تفتق عنه ذهنه في اليوم التالي هو مكالمة تليفونية من مكتب الوزير، ترتبك هناء على الطرف الآخر عندما تعرفت على شخصية المتصل، كلمات مختصرة، أضفى عليها ممدوح مسحة من الرهبة جعلت من طلبه أمرًا:

- معالي الوزير يدعوكِ إلى حفل .. الليلة .. في التاسعة مساء.

ينتابها القلق، توجست خيفة، لكنها لم تستطع الرفض، توافق بكلمات سريعة، لا تولي أي اهتمام بشخص المتحدث، يذهب عقلها إلى ذلك الحفل وهدفه، ظروف عملها الليلة تسمح بالذهاب، ترى مَن ضيوف الحفل؟

يبدأ ممدوح مراحل الاستعداد لهذا اللقاء، كانت هناك بالفعل حفلة، لكنها في أضيق الحدود، يقيمها الوزير احتفالًا بمناسبة خاصة،

Scanned by CamScanner

مؤكد أن وجود هناء في الحفل سوف يثير تساؤلات كثيرة، لذا يجب على ممدوح أن يتحدث مع الوزير بشأن تلك الدعوة كي يقدم معاليه سببًا مقنعًا لوجودها في الحفل. لكن كيف يقنع هو معالي الوزير؟! بعد طول تفكير يقرر أن يتحدث مباشرة وبدون أي تعقيدات، سوف يحقق له رغبته، طالما تفانى في إسعاده، ففي اللقاءات الماضية التي يسبقها صفقات لصالح ممدوح كان معاليه يستمتع كثيرًا، ينتشي فيطلب من ممدوح أن يأمره فيطيعه، اليوم لن يقف أمام رغبته في مصاحبة هناء السعيد.

قبل أن يترك الوزير مكتبه في الثالثة عصرًا، يميل نحوه ممدوح بود مصطنع، مع ابتسامة وتلامس الأيدي:

- بعد إذن معاليك .. هناء السعيد آتية حفل الليلة ..

ينظر نحوه .. يتأمله .. يتفرس ملامحه لعله يعود بما يفكر فيه ممدوح، يقف ناظرًا دقائق من شرفة مكتبه، لم يجب بأكثر من كلمة واحدة .. كانت كافية لإنهاء الأمر:

- لا ..

يرتبك من وقع المفاجأة ممدوح، يخرج متعثرًا في كلماته، تجهم الوزير لم يدع له فرصة كي يسأل عن سبب الرفض، يشعر للحظة أنه لا شيء، ريشة تحملها الرياح لتلقي بها في أي مكان تشاء، يغلق خلفه باب المكتب وهو في قمة الغيظ، يزفر بشدة، في تلك اللحظة يقرر أن يمتنع عن زياراته الخاصة للوزير.

هذا الصنف، مَن هم على شاكلة ممدوح يعقوب، يتصورون دائمًا أنهم في مركز قوة وإن تحققت لهم أقل المكاسب اعتبروها عظيمة، ذلك لعدم إدراكهم لأبعاد الأمور، لا يفكرون إلا في اللحظة، لا يرون أمامهم ولو لخطوة واحدة، لكن ما إن تظهر الحقائق جلية ويكتشفون كم هم مخطئون يرتدون نادمين على ما كان. طالبين العفو بمذلة وانكسار، حتى تعود الأمور إلى طبيعتها مرة أخرى، فيفعلون ما فعلوا في المرة الأولى وإن تغيرت المواقف والأحداث، لا يتخذون من دروس الحياة عبرًا، وهكذا تسير بهم تفاصيل الحياة.

بعد دقائق يرفض خلالها ممدوح أن يتبادل الحديث مع أحد، يخبر الجميع حوله بأن يخبروا مَن يسأل عنه بأنه غادر منذ قليل بسبب صداع ألم به، يغلق باب حجرة مكتبه بالمفتاح كي لا يزعجه أحد، يمسك بالقلم ليكتب تفاصيل غضبه في رسالة يقدمها إلى الوزير، سوف يخبره بأنه يقدم له ما يسعده وفي المقابل من حقه أن يحصل على ما يريد، ثم إن سره إن أُفشي يوم سيهوي من منصبه بلا عودة، و.. ويمزق الورقة مرة بعد مرة .. في كل مرة يرتبك داخله، سوف يمزقه معالي الوزير إن وقعت عيناه على هذه الكلمات، لابد وأن تتماسك يا ممدوح وتتصرف بحكمة، أما الوزير فله شأن آخر .. يقرر أن يتصل بهناء السعيد كي يلغي الموعد نظرًا لارتباط الوزير بلقاء آخر مفاجئ، ولكنه وضع سماعة التليفون للحظات ثم يرفعها مرة أخرى، بعد لحظات يأتيه صوت هناء ناعمًا يثير بداخله رغبات متوحشة،يتردد يطلب منها أن يكون اللقاء في السابعة، يُملي عليها العنوان الجديد، لا يترك لها المجال كي تسأل عن

Scanned by CamScanner

سبب التغيير، يضع السماعة، يتأمل المكان من حوله في صمت، يعقب بكلمة واحدة:

- و ليكن.

أحيانا تؤتي المغامرة ثمارها، وإن كان المغامر غبيًا يسير كيفما اتفق، فإن أتت المغامرة ثمارها أضاف الانتصار إلى قائمة أمجاده، أما إن كانت نتيجة مغامرته الفشل يبتسم في بلادة قائلًا في نفسه: هذا يحدث .. ثم يرسم رغمًا عنه ملامح صارمة ويستمر في حياته، لا يتوقف عن إلقاء نفسه في مواقف أخرى قد تكون أكثر شراسة ولا يرتدع.

لم يدرك ممدوح طبيعة مشاعره في هذه اللحظات، ما كان يدركه جيدًا هو أنه لابد أن يُبرهن على قدرته على تحقيق ما يريد بشخصه بدون أي عون من قوى عليا.

يجلس في مكانه مبتسًا ابتسامة عريضة تتناسب مع وجهه المربع وجبهته العريضة، يمسح بيديه على رأسه، شعره دهني كثيف، يفتح عينيه على آخرهما متأملًا نفسه في زجاج دولاب الأوراق المواجه له، يخاطب نفسه بلا حروف، يؤكد نجاحه مع هناء السعيد بنسبة كبيرة، لم لا وهو يمتلك تلك القدرات الشخصية، يُمنى نفسه بليالٍ حمراء، سوف يُلقي بكل أسراره في جعبتها، يسليها بعلاقته مع السيد الوزير. فجأة، وكأنه لم يكن شيئًا منطقيًا، يشاهد هناء السعيد بعين الخيال تتمنع وترفضه كعشيق، يزم شفتيه في إصرار، يقبض بيده على حفنة هواء وهو يتجول في حجرته، سوف يعدها بالكثير، يغدق المال والهدايا، يكثر

من الرحلات وإن ذهبا إلى باريس .. إن امتنعت أكثر يتزوجها بعقد عرفي، هذا كل ما في الأمر.

تحركة رغبات مجنونة، مضمونها أن يكون له كيانه الخاص، أن تكون علاقته بعلية القوم من مركز قوة ونفوذ لا ينقطع، من ذلك شقته الخاصة التي اشتراها ولم يخبر أحد عنها، سيارته الفارهة التي لم يذهب بها يومًا إلى العمل، يذهب بسيارة صغيرة متوسطة الحال، رصيد في أكثر من بنك على شكل حساب جاري أو ودائع، أيضًا تكون له صديقة يمارس معها حياة طبيعية تغنيه عن أوضاع التاسعة مساء في شقة الوزير الخاصة.

عندما وصل تفكيره إلى هذه الجزئية ينتفض، أدرك للتو لماذا رفض الوزير أن تبدأ هذه العلاقة بينه وبين هناء السعيد، لأن علاقته بهناء سوف تبعده عنه، يشهق .. كيف غاب عنه ذلك من اللحظة الأولى، كان عليه ألا يخبر الوزير بذلك أبدًا.. عليه إذن أن يجعل علاقته بها في الخفاء لئلا يستغني عنه الوزير، فيفقد نفوذه.

هنا أيضًا يُدرك خطأه حينما قرر أن يمتنع عن زيارات الوزير الخاصة، خطواته تلك كان من شأنها أن تعيده إلى حيث كان!! يفقد كل هذا النفوذ؟ يفقد هذه العبارة التي تفتح له الأبواب المغلقة:

- ممدوح يعقوب من مكتب السيد الوزير...

Scanned by CamScanner

كم كان غبيًّا حينما أخبر الوزير عن رغبته في هناء السعيد، تجمدت الابتسامة على وجهه، بعد مرور لحظات واجمة، يُطلق صفيرًا شاذًّا، يعقب بقوله: ليكن.

يأخذ متعلقاته، يترك المكتب في هدوء، يتوجه إلى شقته الخاصة في انتظار هناء السعيد، وقد اتخذ قراره بالنجاح في تلك الخطوة مهما كانت الوسائل والنتائج.

***

14

عبر نظرة دقيقة فاحصة، نشاهد مَن يصنع لنفسه دورًا في تلك الحياة، يبرر تواجده فيها، يلقي على عمله أهمية ومهابة، حتى لو استغل في تحقيق ذلك ما يرفضه عقل سوى. يوهمون مَن حولهم بتلك الأهمية عبر دسائس ومكائد، أو عبر إضفاء صفات وهمية إلى أعمالهم. فقط يخلقون لتواجدهم أهمية، يبررون أطماعهم.

يعود «مصطفى عوض» العامل بالقناة إلى منزله في السادسة مساء حاملًا في يديه صحف ومجلات لأيام مضت، يحصل عليها من قبيل أنها قديمة، يتركها في منزلة لا يتصفحها أحد، يأتي بها لأنها تحقق له شكلًا متميزًا، يعود يوميًّا كما المثقفين حاملًا جريدته، وكي لا يفتضح أمره ويعلم جيرانه أنها قديمة، كان يرفض أن يعيرها لأحد مبررًا ذلك بأنه لم يقرؤها بعد، إن أرادها أحدهم فلينتظر حتى الغد أو بعد غد، فإما أن يكون طالبها قد نسي أو يتقبل أي جريدة تحمل أي تاريخ قديم. من هنا ينتشر لدى جيرانه أنه من المثقفين الذين يحرصون على الاطلاع

Scanned by CamScanner

على الصحافة بشكل مستمر، أما زوجته «تفيدة» فكانت تحصل بهذه الصحف على وضع متميز بين الجيران في حال طلب جريدة قديمة يستخدمونها في عدة أغراض على رأسها لف أشياء أو فرشها أسفل الطعام، كثيرًا ما كانت تخص جارتها «أم سيد» بصور الفنانين من المجلات، تلك البوسترات التي تصلح لأن تعلق على الحوائط.

يضع مصطفى الصحف على مقعد خشبي جوار الباب، يجلس فوق كتبة صغيرة عليها وسادة من قطن قديم تكتل في أماكن وترك أخرى، تجلس تفيدة قبالته على الأرض تنزع عنه حذاءه وجوربه ذا الرائحة العطنة، لم تُظهر امتعاضًا.. ليس حفاظًا على مشاعر زوجها، إنما بحكم العادة، تلف الجورب في شبه كورة، تضعه في فردتي الحذاء ثم تزيحه تحت الكنبة، تركت قدمي مصطفى على طبيعتها ممدودة في حجرها ناظرة إلى وجهه وهي تسأله:

- ما بك؟
- الشغل كثير.

تداعب أصابع قدميه كنوع من التخفيف، قائلة بابتسامة عريضة:

- مثل كل يوم؟!
- نرتب عملًا جديدًا .. الوزير سوف يأتي لنا مرة كل أسبوع ..

مصطفى يتحدث بصيغة الجمع، يُضفي على نبرته همًّا مشوبًا بالقلق وكأن الوزير سوف يأتي إليه بشكل خاص، تلك عادته، يلصق بأعماله قداسة خاصة، تجارية «تفيدة» في ذلك عن قناعة لا توصف، قد يتعكر

صفوها لأيام بسبب انشغال زوجها في أمر ما في عمله، تنقل مثل هذا الإحساس إلى الجيران وعلى رأسهم أم سيد التي كانت تستمع إلى حكايا مصطفى في عمله وخاصة مع الفنانين، يدعم حكاوى تفيدة أن مصطفى ذات يوم استطاع أن يظهر في صورة مع مجموعة من النجوم حيث كان يقدم لهم المشروبات، هذه الصورة كانت الدليل على صحة حكاوي تفيدة، تستخرجها من درج في جانب الصالة باستمرار.

تفيدة من السيدات اللائي إن زادت أجسادهن شحمًا ولحمًا زدن جمالًا، لبقائها في منزلها في الطابق الأرضي أو لجلوسها الدائم أمام مدخل المنزل للثرثرة مع الجيران ومتابعة حركة الشارع، يزداد جسدها ويترهل في عدة مناطق، لم يكن ذلك الوقت الذي تقضيه مع جاراتها بالوقت القليل، يستمر يوميًّا حتى عودة مصطفى في السادسة مساء، وقتها تنقطع عن الجارات وكأنها لا تعرفهن، تساعد زوجها في طقوسه وهي تستمع إلى أحداث يومه باهتمام بالغ، تنظر نحوه بإعجاب شديد .. لم لا وهو محور الأحداث.

بعد قليل ينتهي مصطفى من تناول طعامه، يدخل لينام ساعة .. اعتاد عليها من فترة طويلة، غالبًا ما تنام تفيدة إلى جواره هذه الساعة، يستيقظان وقد شعرا براحة ونشاط قد تجدد، تداعبه تفيدة وهي تسرد له آخر أخبار الحارة، وعلى رأسها مغامرات «أم سيد» مع الباعة الجائلين وأرباب الخردة، يُعقب مصطفى على مغامرات «أم سيد» بجملة واحدة:

- لا تجد رجلًا تخشاه.

Scanned by CamScanner

مصطفى بجملته تلك يُسقط «أبو سيد» من حساباته، يراه لا يمتلك مقومات الرجولة التي تحجم زوجته في منزلها، لذا يتركها تشاكس هذا، وتتجادل مع ذاك، يؤكد مصطفى على ذلك مرارًا كي يرتقي بقدراته أمام تفيدة لِتُجله. تربت على صدره ولا تسحب يدها، تداعبه شعيراته وهي تأخذه في الحديث إلى مجرى جنسي كي تثيره، تترك لنفسها العنان في الوصف، ابنة فلان نمت وظهرت أعضاؤها مكورة أمامها وخلفها، زوجة علان حبلت ولم تكمل الأربعين بعد ولادة طفلتها وتتباهى بذلك حيث لم يطق زوجها فراقها أربعين يومًا، وتعقب تفيدة وهي تضغط ثدي مصطفى بقبضة يدها: تحبل على لمسة زي كلاب الشوارع. وتستمر في إثارته بالحكايا وهي تعلم مقدمًا أنه سوف يثور عليها وتتغير ملامحه معلقًا:

- عيب يا تفيدة.

تزم شفتيها في دلال، يعلو صدرها الأبيض لينفر من فتحة ملابسها الخفيفة وهي تقول:

- ليس بين الرجل وجماعته عيب يا سي مصطفى.

ثم تناوشه أكثر .. وأكثر .. حتى تُشبع رغبتها.

يغتسلان معًا، يصلي مصطفى العشاء، يتناول طبق الفاكهة الذي أعدته له «تفيدة» في أثناء صلاته، بعد نصف ساعة تقريبًا يخرج إلى المقهى تاركًا تفيدة تمشط شعرها المبلول الذي تتركه يبلل أعلى ثوبها من الخلف عن قصد، تجلس بين النساء أمام المنزل تفوح منها رائحة

الصابون وطراوة الماء، على وجهها نشوة تتعمد إظهارها، تلحظ جاراتها، يتغامزن بطرف خفي.

يسير مصطفى مثل ملك بين الرعية، ينظر بعينيه من عل إلى رعيته، حتى يصل إلى مقهى السعادة الكبرى، رواد المقهى يلتفون حول التليفزيون لمتابعة مباراة مصارعة حرة تبثها قناة فضائية أجنبية متخصصة، تتعالى صيحات التشجيع حينما تبدأ الجولة التالية، فقد كانت جولة نسائية، فتيات جميلات، فاتنات، قويات، عاريات إلا من القليل، زد على ذلك الأوضاع اللائي يأخذنها في حال التصارع، يتخيلها رواد مقهى السعادة الكبرى أوضاعًا جنسية مثيرة .. يستمر الوضع مصحوبًا بتعليقات بذيئة.

يجلس مصطفى في واجهة المقهى، وكأنه سيد المقهى والشارع، يمسك بيده مبسم الشيشة ليتناوله كل فترة بين شفتيه بهدوء ساحبًا دخانها بعمق ليتركه في صدره لحظات، يسعل بشدة حتى تدمع عيناه.

بعد نصف ساعة تقريبًا، يقترب منه شاب في الخامسة والعشرين من عمره، على جانب وجهه الأيسر أثر جرح قديم طوله ثلاث بوصات، يسحب الشاب مقعدًا، يجعل ظهره أمامه ليستند عليه بمرفقيه وهو يلقي التحية.

***

Scanned by CamScanner

15

من بعيد ينعق أحد الغربان، صوت إطارات سيارة تخمش أسفلت الطريق يوتر الأعصاب، أمٌّ تصرخ في طفلها بالشقة المجاورة، تسيطر علامات القلق على المكان.

يزداد قلق هناء السعيد بعد المكالمة الثانية لتغيير الموعد والمكان، تتملكها ريبة، تدور في حجرتها تزفر بشدة، للمرة الأولى تشعر بعجزها عن التصرف، لم تفقد يومًا الحيلة .. لم تقع في مأزق مثل هذا من قبل، كيف تذهب مع كل ما يعتمل بداخلها من ارتباك وشك .. وكيف لا تذهب وتعادي معالي الوزير شخصيًا؟ هي اليوم تائهة الفكر، تتمنى لو تجد صديقًا تستشيره في أمرها، سوف تأخذ بأمره مهما كان، تمسك بتليفونها المحمول تقلب بين قائمة الأسماء الطويلة لعلها تتذكر اسمًا تثق في رأيه، قائمة طويلة من الأسماء كلها أسماء لأشخاص مرفقة باسم وظيفة أو مكان للتذكرة، بعد طول بحث لم تجد غير فؤاد هاشم، هو الوحيد الذي يمكنها أن تلقي بهمومها أمامه وتأخذ برأيه، تزم

شفتيها وهي تلقي بالتليفون جانبًا، تحدث نفسها بأن توفيق مراد يعتبر فؤاد هاشم من معسكر الأعداء، لا تدري لماذا يضعه في هذا المكان رغم استعانته به على الدوام وتحميله مهمات كبرى في العمل!!

أراحت رأسها على راحتيها، تنظم أنفاسها لتهدئ من داخلها، فها هو الموعد يقترب، تترك أفكارها خلفها لدقائق، تبدأ في اختيار ملابسها، تختار ثيابًا أقل تحفظًا من تلك التي قابلت فيها الوزير في المرة الأولى، دقائق قليلة أمام المرآة تحولت خلالها هناء إلى لوحة فنية رائعة الحسن تسر الناظرين، تبتسم بشدة كي تقتل قلقها، تلقي نظرة طويلة على الشارع المزدحم عبر نافذته شقتها في الطابق السابع، للمرة الألف تحاول تنظيم أفكارها والتركيز على جزئية واحدة بدلًا من ذلك التشتت الذي تعانيه.

بعد خمس دقائق كانت تهبط درجات السلم الأخيرة لتصل إلى الشارع، بجمالها تخلب الألباب، تحصد الغمزات والإشارات، تلقي بجسدها في سيارتها، تقود إلى العنوان الجديد.

لم تشاهد تفاصيل الطريق، أو تشعر بذلك الزحام الرهيب في هذا التوقيت من اليوم، شاردة الذهن كانت، لقد وصلتها، كما وصل إلى الجميع تقريبًا، معلومات عن سلوك الوزير الشاذ، فلا خوف على النساء من نزواته، هذه المعلومات مؤكدة بشكل كبير، لكن أحدًا لم ينشرها على الملأ ليؤكدها فلا أدلة حقيقية على ذلك، وتنتشر مثل تلك الأقوال لتكون محل حديث في جلسات السمر، ثم تنتهي إلى أن ذلك

Scanned by CamScanner

سلوك يخص شخص الرجل ولا دخل لأحد فيه، مع إظهار الامتعاض على الوجوه.

أما ما وصلها بعض تفاصيله، لكنها غير مؤكدة، وفي نطاق ضيق، كان نشاط الرجل في تجارة الآثار، تمط شفتيها وهي لا تستطيع أن تجزم بشيء من هذا، تقرر أن تستعد للقاء الرجل، وأن تحصل منه على امتيازات كبرى، سوف تطلب منه أن تحل محل توفيق مراد في منصب رئيس القناة .. لا .. لا .. لن تطلب منه في هذا اللقاء .. ليكن في لقاء آخر قادم.

بعد دقائق تصل إلى العنوان الذي حفظته، تميل بسيارتها بهدوء وهي تستطلع المكان. عمارة جديدة في نهاية شارع الهرم من أربعة طوابق، تأملتها، يعرفها موظف الأمن القابع أمام العمارة، يتقدم منها باشًّا مرحبًا، تقابله بابتسامة عريضة تعودت عليها مجاملة للجماهير، سألته عن صحة العنوان، يؤكد لها صحته وأن الشقة المطلوبة الدور الثالث، شقة ممدوح بك.

تتوقف لحظة وعلى وجهها ترتسم علامات الدهشة والانفعال، تقاوم العودة وهي تصعد بنظراتها إلى أعلى، من الممكن أن تكون شقة ممدوح في العلن، شقة الوزير في الخفاء، غالبًا ما يكون لأمثال الوزير أماكن خاصة يُقيمون فيها حفلاتهم الخاصة.

يصطحبها موظف الأمن حتى باب الأسانسير، يعرض عليها أن يرافقها حتى باب الشقة، ترفض بابتسامة جامدة، تواجه نفسها في مرآة

المصعد، تؤهل نفسها لهذا اللقاء المنتظر، سوف تقدم القليل ثم تعده بلقاءات أخرى.

تشعر بلحظة انكسار لم تشعر بمثلها من قبل إلا مرة واحدة عندما وافقت على الزواج بالدكتور أيمن، كانت موافقتها آنذاك معلقة على الكم الكبير من المكاسب التي ستعود عليها بعد هذا الزواج، أما انكسارها فكان يعود إلى بغضها أيمن هذا .. لكنها تزوجته ..

تعلمت منذ طفولتها المبكرة أن تبتسم في وجه من تريد منحته، تقف في إشارات المرور تستجدي الهبات مبتسمة لأصحاب السيارات الفارهة، بينما داخلها يحترق حقدًا، يلعنهم غيظًا.

تستطيع بما تمتلكه من مواهب أن تُشعر الدكتور أيمن بالسعادة الحقيقية في الأيام الأولى للزواج، لذا تفانى في إسعادها شاعرًا براحة عظيمة بعدأن وُفق في اختياره.

لكن ها هي الأيام تمر الأيام على وتيرة واحدة، تذهب لحظات النشوة، تبحث بداخلها عن مشاعر كان يفترض أن تنمو بعد الزواج، لكنها لم تلحظ أي تغيير في داخلها نحو زوجها، يساعد على ذلك استمرار أيمن في تصرفاته، تشعر نحوها بالحنق، لم تصارحه بذلك، ولم تطلب منه التغيير. لم تجد بداخلها الحرص على أن تكون بينهما حياة معتدلة مكتملة الأركان، دائمًا ما كانت تشعر بأن هناك ،في المستقبل، أحداثًا جديدة سوف تطرأ على حياتها، من شأنها التغيير الكلي، لكن ما هي ومتى؟ لا تعلم .. لذا عليها أن تنطلق مستغلة ما هو

Scanned by CamScanner

متاح أفضل استغلال، تقبل على الحياة تستنزفها ما فاتها. ترتدي أفخر الثياب، تتعطر بعطور فرنسية كانت رائحتها في أنفها منذ الطفولة حال انبعاثها من نوافذ السيارات الفارهة في إشارات المرور، تقتني قدر المستطاع قطعًا من الحلي وأدوات الزينة الذهبية، يبرز جمالها بشكل ملحوظ، تزداد ابتسامتها، يطاوعها زوجها، أسير جمالها،محققًا لها ما تريد، يسعد لسعادتها.

تنتهي من دراستها الجامعية بلا عناء، تفكر في المرحلة الجديدة من حياتها، أيمن كان حريصًا على أن تكمل دراستها العلمية لتنخرط معه في سلك التدريس الجامعي، لكنها كانت تفكر في طريق آخر.

يطول انتظار ممدوح يعقوب لهناء رغم أن الموعد لم يحن بعد، يغلبه توتره، يتخيل العديد من الأحداث في انتظاره، بمجرد أن تجده بمفرده تحتويها سعادة كبيرة، ولم لا وهي تحظى بذلك القرب من الرجل الثاني في الوزارة والذي سوف يساعدها في الكثير مستقبلًا، تتجول في الشقة بحرية وهي تلقي بأشيائها في كل مكان، تفاجأ بالطعام والشراب الكثير في ثلاجته، وبذلك الروب الحريري الأحمر الملقى على حافة السرير، تلك العلبة الصغيرة الموضوعة على منضدة تتوسط الصالون وتحتوي بداخلها على خاتم ذهبي مرصع بحجر كريم، مؤكد سوف يسيطر على لبها وبمجرد أن تضعه في إصبعها ترتمي على صدره بينما تتعانق الشفاه في قبلة طويلة.

بعد لحظات يضطرب داخله وهو يتخيل الفشل إذا لم تجد بانتظارها غيره .. ماذا ستفعل؟ يمط شفتيه وهو يقول بداخله، مؤكد سوف تنسحب. يقرر لو حدث ذلك فسوف يقدم لها هديته ويعاملها برفق على أمل أن تعده بلقاء آخر تكون مستعدة له.

يُخرجه من شروده موظف الأمن وهو يحدثه في سماعة داخلية ليخبره بوصول هناء السعيد، يتحرك بسرعة ناحية الباب، يشاهدها عبر عين الباب وهي تخرج من باب المصعد ناظرة يمنة ويسرة، حتى يقع نظرها على باب شقته فيرتبك حتى إنه يرتد للخلف خطوة قبل أن يتماسك ويعود ثانية.

تدق جرس الباب، يتركها لحظات، يخطر على باله ألا يفتح لها ويتركها تعود إلى حيث أتت، يتماسك، يستجمع فتات شجاعته، يفتح الباب مرحبًا بها.

لم تكن لديه الجرأة الكافية لأن يقابلها بثياب منزلية رغم امتلاكه الفاخر منها لمثل هذه المناسبات، تخطو هناء خطوة واحدة، تلاحظ أنه لا توجد أية مظاهر تدل على احتفال ما، فلا يوجد أحد غيره، تخرج منها الكلمات بشكل عفوي:

- ألم يصل معالي الوزير بعد؟!

بهدوء يواري به توتره الداخلي يجيبها ممدوح:

- لن يأتي ..

Scanned by CamScanner

تدرك أبعاد الأمر، هي هنا من أجل ممدوح يعقوب «الذيل النجس» لمعالي الوزير، تتدفق الدماء إلى رأسها بغزارة، تحمر وجنتاها غضبًا، يحسبه ممدوح خجلًا، يمد يده نحوها متصنعًا رومانسية خرجت فجة وهو يسألها:

- كأس هناء هانم؟

تمد هناء يدها في هدوء نحوه، يبتسم، ترفع يدها أكثر ثم تهوي بها بمنتهى القوة صافعة بها وجهه، يتلقى الصفعة مذهولًا، لم يجد ما يقوله، تستدير خارجة، بهدوء بركان لم ينفجر بعد تقف في فراغ الباب، ترمقه بنظرة قوية أحرقته بها، ثم تبصق في وجهه، تلقي بكلمة واحدة: كلب .. تتحرك نحو الأسانسير، تستقله، تهبط ..

يخيم صمت رهيب على المكان، يُغلق ممدوح باب شقته، يجلس فوق أقرب مقعد محاولًا استجماع أفكاره المشتتة المذهولة، يفشل في لملمة بعضها فينفضها عن رأسه الملتهب، يقف أمام مرآة معلقة على الحائط، أثار أصابعها مازالت على وجهه حمراء، يبتسم، يمد يده متناولًا شرابه معقبًا في بلادة: ليكن.

تمر عليه ساعة وهو في مكانه يحاول أن يجد طريقة مناسبة للانتقام من هناء السعيد، ولما يفشل يبرر فشله بأنه متوتر الآن، يؤجل الأمر إلى وقت لاحق، مؤكد سوف تأتي الفرصة للانتقام، يقتنع بذلك، يستبدل ثيابه، يذهب إلى حفل معالي الوزير.

كانت الشخصيات المدعوة للحفل قد بدأت تتوافد على المكان، يقف ممدوح مرحبًا بهم بابتسامة عريضة، رغمًا عنه كانت يده تتحسس أثر صفعة هناء على خده، لم يستطع أن يفسر نظرات معالي الوزير نحوه، تارة يفسرها بالرغبة وأخرى بضيق منه.

تمر المراحل الأولى من الحفل وكل شيء طبيعي، بينما كان ممدوح يسأل سيادته عن أية أوامر أو رغبات يحققها له، فقد تعود أن يسأله دائمًا، لا أن يجعله يطلب هو، فوجئ ممدوح بشبح ابتسامة يتراقص على شفتيه وهو يهمس «لِمَ وجهك أحمر هكذا يا ممدوح؟».

يرتبك ممدوح من المفاجأة متحسسًا خده المصفوع.

يضحك معالي الوزير بينما يمسك يد ممدوح في ود، يجره خلفه ليحدثه في شأن ما في جانب الصالة بعيدًا عن ضوضاء الحفل.

***

Scanned by CamScanner

16

يتأمل مصطفى عوض ذلك الشاب الذي يسحب مقعدًا ويجلس عليه، في وضع معكوس، بوجه متجهم مثل مرابٍ، لحظات ثقيلة تمر قبل أن يلتفت ناحية اليسار وكأنه يرفض وجود ذلك الشاب في المكان، لكن صاحب الندبات في وجهه يبتسم في بلادة قائلًا:

- سلامات يا عم مصطفى.

يتأمله مصطفى لحظات حتى تنقشع سحابة الدخان تمامًا، يجيبه بتؤدة ووقار يتعمد ألا يفقدهما بين أبناء الحارة، يقول في هدوء:

- سلامات يا سيد .. ألن تنتهي خناقات أمك؟!

يميل سيد نحوه، يهمس وهو يتحدث بشفتيه وحركات عينيه:

- اترك أمي .. لي عندك طلب.
- خير ؟!
- أشتغل معك.

لم تكن تلك المرة الأولى التي يطلب فيها سيد المليجي ذلك الطلب، في كل مرة كان مصطفى يرفض الموضوع بأكملة، لم يتعود سيد أن يقابل طلبه بالرفض مهما كان من أمامه، لكنه لا يملك ما يفعله مع مصطفى، لو كان يريد منه مالًا أو أي شيء ملموس ما تركه إلا بعدما يحصل عليه، لكن هذا المطلب يحتاج إلى هدوء ومعاملة حسنة، في كل مرة يرفض فيها مصطفى يتركه سيد كاتمًا غيظه، يتحرك في عمل جديد أو جريمة من جرائمه التي لا تنتهي، ثم يعود إلى مصطفى ليطلب منه نفس الطلب بنفس الحماس وكأنه لم يتحدث به من قبل، اليوم .. ونظرًا لاحتياجه الشديد لموافقة عم مصطفى، يتماسك .. يكرر طلبه. يمتعض مصطفى وهو لا يجد ما يردع به سيد، يعلم كم هو لحوح، يحقق ما يريده بأي وسيلة. هذا ما كان يدور في تلك اللحظة بخلد «سيد» يبتسم سعيدًا بتلك الصفة فيه، عندما يرغب في تحقيق أمر ما، سوف يحققه، من هذا ما حدث له مع «خضرة» زوجة «جابر شفيق» جارهم في الحارة ..

يبدأ الأمر عند عودة سيد بعد منتصف ليل شديد البرودة، الشارع خاوٍ إلا منه وكلب ضال منزوٍ تحت هيكل متخلفة عن حريق، قبل أن يصل إلى منزله يسمع أنين يصدر من خلف نافذة بالدور الأرضي، ينصت أكثر، يستمع إلى همس جابر شفيق المرتبك:

- ماذا أفعل يا خضرة ؟!

بعد لحظة صمت، يأتيه صوت خضرة الباكي:

Scanned by CamScanner

- لا تفعل يا جابر .. نم .. خمس سنين متحملة .. نم يا جابر ..

يُصعق سيد، فما يسمعه جديد عليه وسيكون جديد على الحارة كلها. يعلمون أن جابر قد تزوج بخضرة منذ خمس سنوات، فعلًا لم ينجبا، أرجع أهل الحارة ذلك إلى عقم أحدهما، الآن عرف السبب، جابر غير مكتمل الرجولة، يأتي على خضرة ليل الشتاء البارد، تفور أنوثتها، تقرقر نيران مرجلها، لا تجد ما يطفئ ظمأها، يتعجب سيد من استمرار هذا الزواج حتى اليوم؟! كيف تحملت خضرة ذلك الوضع طوال تلك المدة وهي صاحبة جسد في حاجة إلى الارتواء؟

يخيم الصمت على خضرة وزوجها فيرحل سيد عن المكان، أيضًا يخشى أن يراه أحد المارة، في طريقه إلى منزله يترنح من أثر إجهاد يومه، يفكر في خضرة وما سمعه من أناتها منذ قليل، لابد أن تكون خضرة صيده الثمين الذي طال بحثه عنه، من الغد يجب أن ينصب شباكه، معلوماته عنها قليلة كغيره من أهل الحارة، ذلك لكونها شغوفة بمشاهدة التلفزيون، تتابع المسلسلات، الأفلام، تتابع أخبار أهل الفن والشائعات التي تتردد حولهم، في بعض الأيام تقلد مشية وحركة بعضهم وطريقة حديثهم.

بعد طول تفكير يذهب في نوم عميق، تجسدت له خضرة بطولها الفارع، جسدها الممشوق، أنوثتها البكر، يطير صوابه، يصحو في الصباح وقد شاهدها في أحلامه على أكثر من وضع، تتبلور أمامه خطته فجأة، طريقه إلى خضرة سوف يكون عن طريق جابر زوجها،

يتقرب منه، يكسب وده حتى يكون من الطبيعي أن يذهب إلى منزله ويسأل عنه.

ينفذ خطته مباشرة، يتقرب من جابر، يجالسه في المقهى ويقابله في عرض الطريق بحماس، يعلو صوته حتى يعلم الجميع أنهم على اتصال، تنجح المرحلة الأولى وينتقل بعدها مباشرة إلى المرحلة الثانية، يتبادل العبارات القليلة مع خضرة، مع الوقت يستطيع أن يخلق موضوعات مشتركة يتبادلان حولها الأحاديث، خاصة عندما يكون جابر غير موجود في منزله، يشعر باقتراب فرصته، في هذا اليوم يلحظ ارتباك وتوتر خضرة، لا يخفى عليه حديثها الملتهب الخارج من أعماقها، تلك الرعشة التي تصاحب صوت المنتشي يعلمها جيدًا، ابتسامتها الحارة، يدها تتحرك بلا إرادة منها لتمس أعضائها، تشرد لحظات ثم تعود إلى أرض الواقع فتبتسم ابتسامة عذراء خجلى، كانت صيدًا يقترب من الشرك مخمورًا، لا يمتلك القدرة على العودة، فراشة يجذبها لهيب نار في قلب الليل، يفاجئها سيد هامسًا:

- أتمنى أن أطفئ النار التي لم يتمكن جابر من أن يطفئها في خمس سنين.

بهتت خضرة ولم تجد ما تتحدث به، يشتعل داخلها حنقًا على جابر، تتمنى لو كان موجودًا لقتلته، كيف يتحدث في أمر مثل ذلك إلى سيد؟!

Scanned by CamScanner

يتأملها جيدًا وهي تتهاوى أمامه .. يسد فتحة الباب بجسده، يعلم أن العالم خلفه، أما خلفها هي لا أحد، شقة خالية،لم يترك لها سيد الفرصة كي تشرد كثيرًا، يدفعها برفق كي لا تفيق من تأججها، يغلق باب الشقة خلفة في هدوء، ينهال عليها بقبلات مفترسة لم تتذوق مثلها من قبل، وجهها، شفتيها، كانت تميل مبتعدة بوجهها، بينما تقف مكانها وكأن قدميها قد التصقتا بالأرض، تشهق متأوهة بين لذة وجزع، يداه تداعباها في أماكنها الحساسة، صدرها، مؤخرتها، يستمر مثل نار تأكل ليغمر شفتيها .. رقبتها .. أذنيها .. أخيرًا تدفعه بيديها هامسة بكلمات توبيخ «يا لهوي يا سي سيد .. عيب يابن الكلب .. جابر يجي يا سيد ..» تدفعه بيد واحدة، تهرب من شفتيه، فلا تستطيع المقاومة فتلتقط قبلة عنيفة ثم تنزع نفسها بقوة، تدفعه مرة أخرى، يضمها من خصرها بعنف ..

تستسلم خضرة من اللحظة الأولى، لكنها كانت تحتاج إلى ما تبرر به موقفها أمام نفسها، فقد قاومت على الأقل وإن لم تصمد، في اللحظة الأخيرة كانت تدفعه بيسراها بينما كانت يدها اليمنى تخلع عنها قطعتها السفلية، ترفع ثوبها الخفيف .. ثم .. انطلقت تطفئ نيران عمرها الماضي بكل قوتها، ذُهل سيد وقد شعر بأن بها مس شيطاني، كانت تلتهمه بكل جوارحها حتى إنها بكت بشدة وأغرقت وجهه بدموعها.

تعددت اللقاءات في الخفاء، وجد كل منهما مبتغاه في الآخر بدون عناء، استخدمت خضرة حبوب منع الحمل التي تدعمها الحكومة.

يأتي عامل المقهى وكانه يتدحرج من فوق قمة جبلية حاملًا صينية عليها كوب الشاي الذي طلبه سيد وهو في طريقه إلى مصطفى عوض، يتناوله سيد وهو يسأل مصطفى عما يشربه، يرفض مصطفى، أمام الإلحاح يوافق على مشروب مثلج، يأمر سيد عامل المقهى بأن يأتي بأفضل مشروب طبيعي مثلج، ينصرف العامل، يميل سيد ليهمس بهدوء وثقة:

- ماذا عن العمل يا عم مصطفى ؟ لقد أصبحت شخصًا آخر..

بعد لحظات يتحدث مصطفى وكأنما الأمر يتوقف على موافقته هو فيقول:

- سوف أحاول يا سيد من أجل خاطر أمك.

يبتسم سيد، فقد اقترب من تحقيق هدف ثمين طالما خطط له، لكن بطبيعة الحال لم يكن يعلم أنه قد خطا الخطوة الأولى في طريقه إلى ذلك اليوم الرهيب.

****

Scanned by CamScanner

17

حمامة بيضاء تضل طريقها، تفيق فإذا بها بين سرب صقور، نقطة وحيدة بيضاء، يلتفون حولها، قبل أن يتلقفها أحدهم مفترسًا، تفقد قدرتها على التحليق لتسقط، يتصارعون فيما بينهم .. الأقوى مَن ينتصر ليحصل عليها، يتزايد الصراع. تدرك طريق النجاة فتهرب.

تصحو صفاء هلال من نومها .. تتأمل المكان بهدوء، هذه الحمامة البيضاء التي شاهدتها تأتيها كثيرًا في أحلامها، لكن في صراعات مختلفة كان آخرها صراع الصقور. تشعر بانقباض صدرها، ترشف من كوب الماء بجوارها قطرات، تحاول الاسترخاء مرة أخرى، تهز رأسها لتنفض عنه آلام حلمها.

لم تكن حياة «صفاء هلال» الأسرية تسير بشكل منتظم، حياة مضطربة كما أفكارها، دائمًا ما كانت ترغب في إنجاز النقيضين في آن واحد، زوجها «جمال هلال» وهو ابن عمها بالمناسبة، يدرك طبيعتها التي تجسدت بكل تفاصيلها أثناء فترة الخطوبة ثم الزواج.

لم تفكر صفاء في جمال زوجًا، تأنقه الدائم، علاقاته بالفتيات في أثناء الجامعة، جعلاها تعزف عن مجرد التفكير فيه وإن كانت تنظر له بعين الإعجاب، إعجاب التلميذ بأستاذه، حينها كانت في المرحلة الثانوية ناظرة بشوق لا ينقطع إلى الجامعة التي تراها في التليفزيون وتسمع عنها من ابن عمها جمال خلال الزيارات العائلية.

جمال كان في عامه الأخير بالجامعة عند التحاق صفاء بها، أراد أن يحتويها، يصهرها في بوتقته لئلا تلهث كالضالات خلف المظاهر الخادعة، ولما لاحظ منها عنادًا، لم يبتعد عنها، لم يتركها فريسة لأي صياد ماهر، إنما أخذها من يدها إلى كل ملذات الحياة الجامعية، لكن تحت رعايته المباشرة، تنطلق معه حتى إذا شعرت به مثل قيد يعوق حركتها تهرب منه، في رحلات أو معسكرات أو صحبة فتيات لا يجب أن يتواجد هو بينهم، حتى ينتهي هذا العام وتنتهي معه سنوات دراسة جمال، تنطلق في العام التالي بحرية تامة، إلا أنها، وكانت دائمًا تعترف بذلك، عرفت من جمال بؤر الفساد، بدايات الطرق غير سوية داخل أسوار الجامعة فابتعدت عنها، فقد أنقذها من بريق المرحلة الأولى الذي يعمي الأبصار، مرحلة الانبهار والوقوع في أخطاء تحت مسميات متطلبات الحياة الجديدة، قبل أن يرحل عنها كانت قد فهمت كيف تسير الأمور فانطلقت تلهو وتلعب مثل فراشة نهار بين زهور الربيع، حتى يستقر جمال في عمله ويبدأ رحلة البحث عن الزوجة، يطول الأمر إلى أن ينتهي بصفاء ابنة عمه. في تلك اللحظات يدرك أنه

Scanned by CamScanner

ما كان يفعل معها ما فعله إلا لأنه يحبها، بالطبع فوجئت صفاء بطلب جمال، استغرقت بعض الوقت في التفكير لاتخاذ القرار، ولما قارنت بين جمال وكل من تعرفهم أو من عرضوا عليها شيئًا من الحب، ألفت جمال أفضلهم على الإطلاق، توافق على الزواج، لكن في شيء من التردد الذي يتناسب مع طبيعتها من جهة ويحتفظ لها بشيء من القوة من ناحية أخرى.

و لما كان جمال يخشى ترددها، فقد انصاع لها في بداية زواجهما،مؤكدًا بين حين وآخر على أن ما يفعله نابع من محبته لها، لكن بعد مرور الأشهر الأولى يتمرد، يستقل بأفعاله وإن أغضبها.

عملها كمذيعة في هذه القناة الفضائية كان لتحقيق ذاتها من وجهة نظرها الشخصية، أما من وجهة نظر جمال فهو عمل لشغل أوقات الفراغ كي تهدأ وبالتالي تمر عليه أيامه بهدوء.

مع استمرارها في العمل، وعدم رغبة جمال في فرض أية قيود عليها، تشعر وكأنه أهملها بشكل تام، يرتبك داخلها، لم تصارحه، أعازت سبب انزعاجها إلى مشكلات العمل التي لا تنتهي، بعد فترة ترتضي بالواقع، تنهل منه ما تشاء، مداعبة السلوك الخاطئ من بعيد وعلى استحياء، لم لا وهي تستطيع التحكم في نزواتها في اللحظات الحاسمة، كل ما في الأمر أنها تستخدم القليل من البهارات التي تعطي للرتابة اليومية طعمًا لذيذًا.

الحقيقة أن جمال هلال لم يكن ذلك الشاب الذي يخلو من الأخطاء، لكنها على قلتها تكاد لا تذكر.

يُفرغ انفعالات الشباب الثائرة في حينها ومن ثم يتفرغ للعمل بكل طاقاته، صفاء تدرك ذلك جيدًا، لم تَرْتَبْ فيه، طبيعتها التي تحتاج إلى المغامرة، إلى المفاجأة، إلى كسر رتابة الإيقاع اليومي، ترى أن ما يفعله جمال لا يخرج عن هذا الإطار،حتى إن ظهرت موضوعات أكثر إثارة!!

الكثير يفتقد الاستقرار، أما صفاء فكانت تعاني الاستقرار المادي والعاطفي، لم يكن هناك ما يشغلها ويكدر صفوها، لم تبحث يومًا عن شخص تستدين منه مبلغًا من المال، لم تجد مشكلة في المواصلات بعد أن يشتري لها جمال سيارة جديدة، في العمل يعاملها الجميع باحترام، فلم تكن صاحبة طموح يعوق آخر فيتصدى لها، جمال يعرف واجباته الجنسية نحوها فينفذها قبل أن تطلبها .. أي ملل في الحياة أكثر من هذا؟!

عقبات العمل القليلة لا تستطيع أن تنال من هدوءها، لكن تلك الشائعة التي انتشرت مؤخرًا عن علاقتها بتوفيق مراد أثارت بغضها بشكل كبير، الحقيقة أن توفيق مراد لم يخطر على بالها ذات يوم بشكل آخر غير طبيعته التي يتواجد عليها في العمل، مجرد رئيسها في العمل، لا يتميز بأي ميزات غير طموحه الذي لا نهاية له، وقدرته الشخصية على استلاب كل مزايا مَن أمامه، في حين أنه لا يستخرج من داخله غير أسوأ ما فيه، لذا كانت تتحاشاه، إلا إذا أجبرتها الظروف على لقائه كانت ترسم على وجهها ابتسامة جامدة ولا تشارك في أي موضوعات

Scanned by CamScanner

نقاشية قد تدلي فيها برأي يُفسر ضدها بشكل أو بآخر. كيف ظهرت تلك الشائعة إذن؟!

منذ أيام وبعدما تركت القناة وفي طريقها إلى منزلها، وبين الزحام تشعر باضطراب في حركة سيارتها وكأنها تسير فوق صخور، لحظات وتميل السيارة بشكل ملحوظ، تتوقف .. تترك سيارتها لمطالعة الأمر، تجد الإطار الأيمن الأمامي وقد اهترأ تمامًا، فقد فرغ من هوائه ثم سارت عليه لحظات فوصل إلى هذه الدرجة، تقف مستاءة .. عليها تغيير الإطار الاحتياطي .. عملية شاقة عليها، تعلم أن أكثر من متطوع سوف يعرض خدماته الآن، فما أكثرهم مع السيدات تصاحبهم ابتسامات رائعة، وما أكثرهم أيضا مع الرجال وهم يلعنون الزحام والرجال الذين يقفون عقبة في الطرق يصنعون الزحام. فجأة يُخلق أمامها من العدم توفيق مراد وعلى وجهه تلك الابتسامة الملتصقة به أينما ذهب، يسألها عما حدث، ثم يستدعي سائقه ليقوم باستبدال الإطار، ولأن الظروف السيئة تتجاذب، يجد السائق أن الإطار الاحتياطي قد أفرغ هواؤه هو الآخر بسبب حفظه في حقيبة السيارة منذ أكثر من عام، هنا يعرض عليها توفيق أن يقوم بتوصيلها إلى منزلها، وسوف يترك سائقه مع سيارتها كي يصلح لها الإطار ثم يقودها إلى منزلها. لا تجد بدًّا من الموافقة، تعطي السائق مفاتيح السيارة وعنوان منزلها ومبلغًا من المال. لحظات وينطلق توفيق يقود سيارته وإلى جواره صفاء هلال صامتة، لم تعلم أن هناك عيونًا قد رصدتها .. أصحاب تلك العيون قالوا بأنهم شاهدوا توفيق مراد يصطحب صفاء هلال في سيارته الخاصة متجهًا في سعادة إلى شقة خاصة.

تنطلق الشائعة بين أروقة القناة مثل انطلاق نيران في حقل قمح قبل حصاده، علم الجميع بشأنها، بل وأضافوا عليها قدر استطاعتهم، إلا صفاء وتوفيق .. لم يعلما أي شيء إلا بعد أيام من انطلاقها، في هذا اليوم تدخل صفاء مكتب توفيق وهي تحبس دمعاتها، كانت تعتقد أن توفيق هو مَن تحدث بهذا، لكنه يقف ليقسم لها بأنه لم يعلم إلا مؤخرًا وقد استاء كثيرًا من ذلك، لكنه ما تحدث معها لأنه على يقين تام بأن أي حديث لنفي أي شائعة يعتبر وقود يزيد من نيرانها، أفضل معالجة لمثل تلك الشائعات هو تجاهلها بشكل تام، لا يبدو الاقتناع على وجه صفاء، وإن صمتت وهي تكفكف دموعها، يترك لها في النهاية اختيار الطريقة المثلى لنفي تلك الشائعة، سوف يكون رهن إشارتها .. بعد تفكير يدوم دقائق لا تجد طريقة تنفي بها ذلك أفضل من طريقة التجاهل التي قال بها.

طريقة التجاهل التي يعرضها توفيق كانت تنجح كثيرًا، لكنه ما قال بها اليوم إلا لأنه يود لو تستمر تلك الشائعة لأيام، هو على قناعة بأن بعض الشائعات تصنع نجومية البعض، حتى تصل ذروتها وتقترب من إصابة هدفها فعليه هنا أن يظهر ليُكذب كل شيء، بل يصل الأمر بالبعض أن يطلقوا شائعة مثل القبض عليهم وفي حوزتهم مواد مخدرة أو تم ضبطهم في شقق دعارة أو حتى وفاتهم .. يتركون الشائعة أيام يتداول العامة فيه أمرهم قبل أن يظهروا لنفي تلك الشائعات مندهشين ممن يُطلقها، أو يتهمون بعض المنافسين لهم في نشرها.

بالفعل تمر أيام قليلة وتظهر شائعة أخرى تسيطر على تفكير العاملون

Scanned by CamScanner

بالقناة وتتلاشى شائعة علاقة صفاء بتوفيق مراد. بعدها تعود صفاء إلى طبيعتها .. تركد مياهها كما السابق، تبتسم .. بعد تفكير أرادت أن يحدث أي تغيير في حياتها المستقرة ..

تبتسم في سعادة، مثل طفلة نالت وعدًا بالحصول على الدمية التي يعلن عنها في الفضائيات، وهي تقرر أن ما سوف تفعله في الأيام المقبلة سيكون أمرًا جميلًا .. جميلًا جدًا.

***

18

من الصعب أن يعثر على فرد تجتمع فيه كل الصفات التي بحث عنها كثيرًا، شخص يوافق شذوذه، طامع باستمرار، حاقد على الجميع، مطيع خانع إلى أقصى درجة، ضيق الأفق لا يحلم، وإن كانت له أحلام فلا تتخطى طموحاته الساذجة، يترك القيم والمبادئ لا يعلم بوجودهما على الإطلاق، قيمه ومبادئه هي ما تسمح بتحقيق رغباته، الدين بالنسبة له شكل اجتماعي ملصوق به مثل التصاق اسم والده به، فعلاقته بوالده لا تتعدى العلاقة الاسمية.

تلك كانت صفات ممدوح يعقوب التي قرأها معالي الوزير بوضوح من على صفحة وجهه الناطقة بالإباحية، وقد صدقت نظرته الأولى فيه، وبعد أول لقاء خاص بينهما تأكد له أنه وقع أخيرًا على صيده الثمين، فلن يعثر على مثله بسهولة في مجتمع يرفض نزواته الشاذة، لكن كان عليه ألا يُطعم النهم بشراهة حتى لا تحدث له تخمة .. لابد أن يظل ممدوح في حاجة إلى عطايا معالي الوزير، وفي المقابل تظل غرفة

Scanned by CamScanner

أسرار معاليه مغلقة حتى لو تعرى جسده، ثم بين مدة وأخرى تظهر نفحة جديدة ينبهر بها ممدوح فيقدم المزيد من فروض الولاء والطاعة.

بعدما حدث مؤخرًا من محاولة ممدوح اصطياد هناء السعيد في شقته الخاصة بدون علم الوزير، يفكر الرجل في تلك الحادثة بشيء من الإمعان، إن ترك ممدوح هكذا فسوف يستبدل هناء بأخرى، وكثيرات يوافقن هوى ممدوح طالما يمتلك المال. إبعاده عن هناء ليس الحل، إنما إبعاده عن تلك المنطقة على الإطلاق هو الحل الأمثل، لا يجب أن يفكر ممدوح في الارتباط بأنثى وتكوين أسرة، لابد أن يظل معلقًا من رقبته في حبل طرفه الآخر في يد معاليه، يجره به أو يشنقه وقتما يشاء، يلقي ببقايا سيجار بادرون الفاخر في المنفضة أمامه ثم يتجرع الجزء الأخير من كأس عصير الفواكه الحمراء المفيد جدًّا في تجديد خلايا الدم، يُصنع له بشكل خاص من التوت الأحمر، فراولة، توت أسود، كرز، عسل نحل غذاء ملكات، قليل من الماء، يضع الكأس ثم يتوجه إلى ناحية النافذة ليشاهد أضواء القاهرة مثل نجوم على صفحة الليل، يبتسم في هدوء، لقد توصل إلى خطة محكمة تحقق له كل ما يريد.

في اليوم التالي يستدعي ممدوح، بعد حديث سريع عن بعض تفاصيل العمل، يطلب الوزير في كلمات مقتضبة:

- الساعة التاسعة بالضبط تكون أمام العمارة رقم ٣٢ شارع عبدالحميد لطفي بالمهندسين. تفضل.

ينهي جملته وهو يشير ناحية الباب آمرًا بخروجه، يقف ممدوح وقد سقط فكه السفلي من أثر ذهوله، العنوان الذي ذكره معالي الوزير

بالتفصيل هو عنوان شقته الخاصة التي لا يعرف عنها شيء، يتلعثم لحظات قبل أن يدرك أمر الخروج، بخطى ثقيلة يغادر الغرفة وهو يحرض جنود فكره على صراع دموي من أجل تفسير الأمر!! كيف عَلم الوزير بشأن هذه الشقة ؟! يسقط فوق مقعده محدثًا صوتًا، يُمسك بالقلم ولا يعلم لماذا، بعد لحظات يتساءل في دهشة:

- هل أخبرته هناء السعيد بتفاصيل ما حدث بينهم؟

يرتكز تفكيره حول هناء السعيد وما حدث بينهما، ألا يكفيها ما فعلته معها، صفعتها التي حملت له كم إهانة واحتقار لا نهاية لهما، ثم ها هي تذهب إلى رب نعمته تشكوه، ليزيد في إهانته وترتقي هي درجة عند معاليه. يبتسم ممدوح لحظة حينما يفكر في صدمة هناء إن هي علمت طبيعة نزوات معاليه، ثم يضحك بصوت مسموع وهو يتخيلها تلملم أشياءها لترحل عن المكان معلقة بجملة غاضبة «سوف أخرج باحثة عن رجل يشبعنا نحن الاثنين يا معالي الوزير» ثم يجيب في داخله بعد أن يهدأ «أنا رجلكم المنشود يا سادة» ..

لحظة واحدة يقرر فيها ممدوح ألا يتواجد في المكان والموعد كما طلب منه معالي الوزير، سوف يغلق هاتفه المحمول ويختفي عن الأنظار، حتى إن وصل به الأمر إلى افتعال أزمة صحية يدخل على إثرها العناية المركزة في أحد المراكز الطبية باهظة الثمن، هو في حاجة لعمل «تشيك آب» كامل. لا يمتلك القدرة على مواجهة هناء أمام معالي الوزير، هل يقف أمامها متقبلًا الإهانة المنتظرة مثل تلميذ بليد .. لا .. لن يذهب.

Scanned by CamScanner

تنتهي لحظة الاعتراض .. يزفر بعدها بشدة وهو يفكر في الثياب التي يرتديها في هذا اللقاء الليلي المنتظر، لا يعرف طبيعة ما سيحدث، لذا لا يستطيع تحديد ملابس بعينها، هل سيصعدون جميعًا إلى شقته الخاصة؟ أم مجرد لقاء لحظي مع بعض عبارات التوبيخ في الشارع تثأر بها هناء قبل أن ترحل .. أم ماذا ؟! في النهاية يرتدي ثيابًا محايدة .. يقف أمام بوابة العمارة قبل الموعد بعشرة دقائق، يراقبه البواب من بعيد، مؤكد لاحظ قلقه، يستدعيه ممدوح، يعطيه مبلغًا من المال ليشتري له علبة سجائر يعلم جيدًا أنها غير منتشرة لارتفاع ثمنها، سوف يبحث عنها بعض الوقت، حيلة قديمة مستهلكة، لكنها هي الوحيدة التي توفرت أمام ذهنه المتبلد مع كل هذا التوتر، ما باليد حيلة، لا يجب أن يشهد البواب ما سيحدث في الدقائق القليلة القادمة.

لحظات تمر ثقيلة، مع كل سيارة تقترب منه يرتجف قلبه، ثم تمر السيارة لا تعيره أي اهتمام، يزفر بعدها بشدة حانقًا .. لم يلبث أن يرسم على وجهه ابتسامته المفضلة لديه قبل أن يقول: «وليكن ..» ثم يطلق صفيرًا على لحن أغنية لا يتذكر اسمها فيخرج لحنًا شاذًّا، من بعيد تأتي سيارة ترتعش الإضاءة فيها وكأنها تخبره: لقد أتيت. ينظر في ساعة يده الرولیکس سويسرية الصنع فإذا بها تعلن التاسعة، تتوقف السيارة أمامه، لا يشاهد مَن بداخله بسبب زجاجها الأسود، يهبط الزجاج الأمامي، المجاور للسائق، فإذا به يشاهد معالي الوزير مكان السائق، يقود بنفسه السيارة، يتأمل داخل السيارة بسرعة بحثًا عن هناء السعيد، لكن لا أحد غير معاليه الذي يشير بإيماءة خفيفة مع كلمة واحدة «اركب».

يدور ممدوح بسرعة، يركب السيارة غير مصدق عدم وجود هناء حتى إنه ألقى نظرة سريعة على المقعد الخلفي فتأكد من خلوه. ينطلق قائد السيارة بعد أن يرفع الزجاج المجاور .. موسيقى هادئة تنساب في المكان، السيارة حديثة ويبدو أنها بسعر خيالي تسير على الطريق مثل وسادة على صفحة ريح،ترتخي عضلات ممدوح المتوثبة، مقعد السيارة له تعاريج تنسجم تمامًا مع تفاصيل جسده فيشعر براحة عظيمة، تمنى .. لا يعلم لماذا.. أن تأتيه يد حانيه من الخلف لتمسد له شعره وتمس وجنتيه في حنان. بطرف عينه يتأمله الوزير، يعلم رغبته في إلقاء السؤال البديهي:

- إلى أين نحن ذاهبون؟

لكنه ينتظر بعض الوقت حتى يخرج بسيارته تاركًا القاهرة كلها خلفه، ثم يجيبه في هدوء:

- دقائق ونصل يا ممدوح .. لا تتعجل الأمور.

يهز ممدوح رأسه موافقًا مع كلمات بسيطة، لقد كان ذهنه مشغولًا بأمر آخر، هناء لم تخبر معاليه بشيء، أو أخبرته وقام بتأجيل الحديث في الأمر إلى حين؟ أو أنهم ذاهبون إليها الآن في مكان خاص.. أو .. لا يعلم أي شيء ولا يجرؤ على السؤال .. ولماذا يسأل .. يكفيه أن يجلس هنا بصحبة معاليه .. يود لو يخرج رأسه من النافذة ليلقي نظرة على الشارع ولا غضاضة في أن يُخرج لسانه.. بعض لحظات يقول في صمت: «ليكن ..»

Scanned by CamScanner

لـم يمـر وقت طويل كمـا كان يتخيل ممـدوح، فقد انحـرف معاليه ناحية اليمين وعبر طريق ترابي لمسافة تقل عن الكيلومتر قبل أن يتوجه إلى مدخل على اليسـار محاط بأشـجار كثيفة على الجانبين تتوسطهما بوابـة حديديـة ضخمـة مبطنة بصـاج لتعزل مَـن بداخلها عـن الخارج تمامًا، يطلق نفير السيارة بشكل متقطع مثل إشارة متفق عليها، لحظات تُفتح البوابة. تعبر السـيارة ثم تغلق البوابة خلفها، يشـاهد ممدوح اثنين من الشـباب بجـوار البوابة وعلى وجهيهما علامات سـعادة عظيمة مع ترحيب وحفاوة بالضيوف.

لا يتحـدث ممدوح بكلمة وهو يتابع ما يحدث، فيلا أنيقة تدل على ثـراء أصحابهـا، غموض يحيط بالمكان بشـكل يجعـل صاحب الرؤية يرتـاب فـي أصحـاب المكان، لكـن ممدوح لـم يداخله أي شـك لأنه ببساطة محدود الفكر.

صاحـب المـكان رجـل خمسـيني، أبيـض البشـرة، طويل بشـكل ملحـوظ، شـعره ناعـم يسـحبه علـى جانب مختلـط لونه بيـن الأبيض والأسود، يرتدي ملابس أنيقة، يستقبل معالي الوزير بالأحضان بشكل تدل على حدوث لقاءات متعددة بينهم من قبل.

يجلس معالي الوزير وهو يشير نحو ممدوح بالجلوس، يقوم بعملية التعارف حيث يقدم ممدوح إلى أصحاب المكان قائلًا:

- ممدوح يعقوب .. أمين سري وذراعي الأيمن.

يبتسـم ممدوح كنوع من تبادل كلمات الترحاب معهم، لا يسـتطيع أن يجـد الكلمـات التي تعبـر عن حالته في تلك اللحظـات، لقد وصفه

معالي الوزير بأنه كاتم أسـراره وذراعه الأيمن، يتأمل الوزير بشـيء من الإعجاب والعطف، كيف ترك نفسه تشك فيه؟! إنه يحبه ويقربه منه في كل الأوضـاع، مـا كان يجب أن يرتاب فيه أبدًا، سـوف يقترب منه أكثر ليعوضه، سوف يتفانى في خدمته وإمتاعه.

من الداخل يأتي شـاب ثلاثيني يحمل لفافة على راحتيه، يسير برفق وكأنـه يحمل طفلًا مولودًا منذ دقائـق، يضع اللفافة على حجر صاحب المكان ثم يرتد إلى الخلف ثلاث خطوات ليقف منتظرًا الأوامر. يتلقى الرجل اللفافة بعناية وسعادة جمة، يتحدث قائلًا:

- أهلا .. أهلًا .. طائر الخير والسعد يا معالي الوزير.

يزيـح قطعة القماش برفق، يظهـر تمثال ذهبي لطاووس، قطعة أثرية رائعـة، تذهـب بلب الناظر، بغض النظر عن كونهـا أثرية فهي تحفة فنية دقيقـة الصنع، يتحـدث الرجل بكلمات كثيـرة بهذا المعنـى وهو يقدم التحفة إلى معالي الوزير الذي يتناولها في هدوء، يقلبها في رفق، يتأملها بعين خبير، يسـتخرج من جيب جانبي عدسة صغيرة، يضعها فوق عينه اليمنـى فيبـدو مثل صانع تصليح السـاعات، يرفع التمثـال الذهبي أمام وجهـه، يتأمله في أكثـر من موضع بدقة عالية، علـى وجهه تظهر دلائل السعادة، يهمس بهدوء «أصلية».

السـؤال الذي يتحرك مثل طفل شـقي يود لو ينطلـق «ماذا نفعل هنا يـا معالي الوزير؟!» لم يسـتمر في حيرته كثيرًا، فقـد ناوله معالي الوزير التمثـال ثم توجـه إلى الرجل ليكمل الصفقة. يرتبـك ممدوح لحظة ثم

Scanned by CamScanner

يهدأ وهو يتأمل دقة صناعة التمثال، يمط شفتيه إعجابًا وكأنه خبير يؤكد أن القطعة أصلية ولا شبهة تزوير فيها.

تمر دقائق تنتهي فيها المساومة، يندهش ممدوح من الأرقام التي يتم تداولها، فقد انتهت الصفقة على رقم خيالي «نصف مليون دولار» يشهق ممدوح لحظة موافقة الوزير على الرقم، يفيق من دهشته على صوت الشاب يستدعي الجميع لتناول الطعام، المائدة جاهزة الآن.

مائدة طويلة عامرة بأفخر أنواع الطعام والفاكهة والمشروبات، يأكل بنهم حينما شاهد سيده يتعامل ببساطة مع المكان وأصحابه.

بعد الانتهاء من الطعام يخرجون إلى حديقة الفيلا، مقاعد من الخيزران وفحم مشتعل في جانب وعدد من النارجيلات بعدد الحصور، يقوم على خدمتهم رجال يعرفون جيدًا ما يفعلونه بدون أن يُطلب منهم، تنتشر رائحة الحشيش مع الأدخنة المتصاعدة لتملأ المكان، من بعيد يأتي صوت أم كلثوم تشدو إحدى أغانيها.

ساعة تمر والقوم يتسامرون حتى تهدأ الأحاديث، يخرج الوزير وخلفه ممدوح المندهش، فلم يحملوا معهم القطعة الأثرية!! بمجرد أن ينطلقوا يتحرك لسانه ليسأل، يجيبه الوزير بهدوء قائلًا:

- لقد أنهينا الصفقة.. سوف يأتي المشتري الحقيقي ليتسلمها.. نحن لا وجود لنا في الصورة يا ممدوح.
- إن كان هناك مشترٍ آخر فما هو دورنا في هذه الصفقة؟!

قالها بشكل تلقائي «دورنا..» فقد اعتبر نفسه شريكًا.. يصعده الوزير بهدوء مواريًا ابتسامة عريضة، فها هو ممدوح يعود إليه كاملًا، لا وجود لهناء السعيد أو غيرها في تفكيره الآن، يجيب:

- دورنا مهم جدًّا .. نحن مَن يتفق مع المشتري ويتقاضى الثمن الذي يقدر بمليون دولار، لنا منها نصف مليون دولار ..

يندهش ممدوح ولا يعلق، يعاجله سيده بالضربة القاضية:

- لك فيها مكافأة عشرة آلاف دولار يا دوحة.

يشهق ممدوح معبرًا عن فرحته، لايستطيع أن يخبئ فرحته، ينحني مقبلًا يد سيده، يبتسم الرجل وهو يربت على رأسه في حنان.

قبل أن يهبط ممدوح من السيارة في نفس المكان الذي حمله منه سيده، يستوقفه الرجل قائلًا بكلمات عميقة:

- ممدوح .. الفترة المقبلة سوف تشهد تغيرًا جذريًّا في حياتك.. أرجو أن تنسى كل ما تفكر فيه.. وتنطلق معي في عالمك الجديد.

***

Scanned by CamScanner

19

يحصل مصطفى عوض على المبلغ كاملًا من سيد المليجي، يصرف معظمه على مأكولات كان يتمنى لو يأكلها، والمتبقي منه يضعه في شحن تليفونه المحمول، جزء يسير يصل إلى زوجته، تتلقفه بدون أن تسأل عن مصدره. لكن ها هي الأيام تمضي وسيد يطارد مصطفى في انتظار الوفاء بالوعد.

لم يكن مصطفى يمتلك رؤية واضحة حينما تلقى منه المال، ينتظر فقط أن تأتي الفرصة المناسبة، يبدو أنها قد أتت ..

تشهد قناة الأمل الفضائية في الأيام التالية حركة غير عادية، استعدادًا للبرنامج الذي سوف يستضيف معالي الوزير لمدة ساعة كاملة يوم الخميس من كل أسبوع، الإعادة في اليوم التالي صباحًا ثم في منتصف الأسبوع مساءً. هذا ما تم الإعلان عنه في الصحف لتهيئة الجماهير لانتظار البرنامج وأيضًا لجذب الإعلانات إلى القناة.

يسعى توفيق مراد إلى تحقيق انتصار شخصي جديد يضاف إلى رصيد

انتصاراته المهنية، غير المكاسب الشخصية التي يجب أن تعود عليه بالنفع، حيث الامتيازات والتسهيلات التي سوف يبيعها بمبالغ كبيرة، هذا غير الدعم السياسي في حال خوضه الانتخابات يومًا ما ويحسبه قريبًا، لا سيما بعد أن أشار إليه نجيب سالم ذات يوم.

أول هذه المكاسب ما كان بعد أسبوع من إذاعة الحلقة الأولى، يحصل توفيق على قطعة أرض في أحد منتجعات مدينة جديدة مجاورة للعاصمة، أقل سعر للمتر، أفضل نظام للسداد، ولو باعها في اليوم التالي لكسب مئات الآلاف من الجنيهات، لكنه لم يفكر في بيعها، سوف يحصل على امتيازات أخرى من آخرين يكون نتيجتها بناء «فيلا» فاخرة في هذا المنتجع.

كانت هناك مكاسب عامة ستعود على العاملين بالقناة، ممن يرضى عنهم توفيق بالطبع حيث ارتفاع نسبة الإعلانات ومن ثم ترتفع المكافأة الخاصة الناتجة عنها.

لمثل هذه الأسباب شهدت القناة حركة غير عادية. لم يدع «مصطفى عوض» العامل بالقناة هذه الفرصة لتفوته، يذهب إلى رئيس القناة متذمرًا من ضغط العمل عليه هو ومَن معه، يقترح أن يتم الإعلان عن طلب عمال جُدد، يرفض توفيق معللًا ذلك بأن هذه الأيام غير مناسبة لإجراء مثل هذا الأمر، قد يتم ذلك في المستقبل، يستغل مصطفى تلك الموافقة المبدئية، يهجم مباشرة، يقترح أن يتم الاستعانة بشاب أو أكثر على سبيل الاختبار لمدة معينة، فيكون كمساعد في العمالة، وتكون أيضًا فترة اختبار للسلوك حتى يحين موعد الإعلان عن فرص العمل، فيتم

Scanned by CamScanner

تثبيت الأصلح.

يوافق توفيق على الاقتراح، فلم يجد مبررًا للرفض، خاصة أنه لن تكون هناك أية التزامات تجاه القناة، وإذا ظهر شخص آخر قد يعود تعيينه بالنفع على توفيق، سوف يقوم بتعيينه، هكذا بمنتهى البساطة حيث يقرر أن من التحقوا بفترة الاختبار غير صالحين، هناك سبب آخر لموافقته، يود أن يُبعد هذه الصغائر من أمامه الآن كي يتفرغ لعمله الأكبر.

يخرج مصطفى سعيدًا بما حققه من نجاح، فها هو يوفر الفرصة المناسبة لسيد وعليه إثبات النجاح كي يتم تثبيته في العمل، هذا أفضل من أن يتم التعيين المباشر، فإذا تم التعيين مباشرة وظهرت مساوئ سيد فسوف يُلام مصطفى، أما فترة الاختبار تزيح مثل هذه المسؤولية عن كاهله.

الآن يجلس مصطفى على مقعده الخاص أمام المكتب، يفكر في استغلال الموقف، يجب أن تكون هناك منفعة ما ينالها من سيد قبل أن يُدخله مثل هذا المكان، بعد دقائق يتوصل إلى ما يُرضي داخله، سوف يطلب مبلغًا من المال، يبرر ذلك بأنه عمولة تذهب لذلك الشخص الذي تحمل عناء إقناع رئيس القناة، يجب أن يكون هذا الأمر سرًّا، يبتسم في سعادة لمثل هذا التفكير المتزن الذي يضعه على أعتاب أصحاب المكر، كل مَن حوله يستفيد حتى من نسمة الهواء المارة، لِمَ لا يفعل مثلهم؟!

يحتاج الفأر فتحة صغيرة كي يدخل مكانًا متسعًا يعيث فيه فسادًا .. لم يكن سيد يحتاج لأكثر من هذه الفتحة الصغيرة كي يلج قناة الأمل الفضائية كي يحقق طموحاته الجامحة.

يقابله مصطفى عوض في مقهى السعادة الكبرى، قبل أن يخبره بالأمر يلاعبه أولًا .. يتمطع على كرسيه، يرفع ساقه اليمنى ليضعها فوق اليسرى متخذًا سيماء أولى الأمر، بعد لحظات شعر بتنميل في ساقه اليمنى لكنه لم ينزلها إلى الأرض مفضلًا ألم التنميل الملازم لحالة السلطة التي يعيشها على أن يعود إلى طبيعته.

يدرك سيد بخبرته ما يشعر به مصطفى من حالة نشوة، لا سيما طريقته في إخراج دخان الشيشة بكثافة، فيُخرج قطعة صغيرة من جيبه في حجم عقلة الإصبع ملفوفة في ورقة سيلوفان أحمر، يمدها إلى فمه ويقضم منها قطعة صغيرة جدًّا، يُلقيها إلى نار الشيشة، يميل ليهمس في أذن مصطفى:

- تعميرة من مخدر الحشيش .. تجعلك سلطانًا حقيقيًّا يا عم مصطفى.

يرتعد داخل مصطفى لحظة من فرط انفعاله بالموقف، كم تمنى أن يجرب مخدر الحشيش، لكنه ما فعل ذلك لارتفاع أسعاره، الآن أتته مجانًا وفي التوقيت المناسب تمامًا، يدفن سعادته بداخله لاستكمال صورة القائد المتزن، لم يعد يشعر بالتنميل في ساقه أو بالأحرى لم يعد يشعر بساقه كلها، لم يهتم، في اللحظات التالية يفكر في الطريقة التي سيطلب بها المال من سيد، بعد لحظات وقد أدار مخدر الحشيش رأسه

Scanned by CamScanner

بالفعل، يستجمع قوته مرة واحدة، يُنزل ساقة ليضعها على الأرض فيرتعد من أثر تماسها وكأن تيار كهربائي صعقه، فيعيدها مرة ثانية فوق الساق الأخرى، يواري ارتباكه ويقول:

- المطلوب أكثر بكثير من قطعة الحشيش هذه يا سيد.

يبتسم سيد وهو يتلقى الكلمات الأخيرة، يعلم جيدًا أنه لا شيء يتم بدون مقابل، يقول:

- من عينيَّ يا عم مصطفى .. كم؟

يتوقع رقمًا مبالغًا فيه، يستعد للتفاوض لتنزيل الرقم إلى أدنى قدر ممكن مستعملًا في ذلك كافة مهاراته، يميل مصطفى نحوه بعد أن يلتفت حوله موحيًا لسيد بخطورة الأمر، يهمس:

- مَن يساعد في تسهيل المصلحة يريد ألف جنيهًا.

يرقص قلب سيد فرحًا، يا لك من غبي يا مصطفى، كان سيد ينتظره طالبًا عشرين ألفًا على الأقل، إنه لا يعلم قدر ما سيحصل عليه سيد من مكاسب إثر وجوده بين الصفوة.

تماسك سيد وهو يجيب مصطفى بنفس الهدوء الهامس:

- كثيرٌ يا عم مصطفى، هل سأكون عاملًا في القناة أم مديرًا لها؟!

يجيبه مصطفى بصرامة كي تُنهي المفاوضات:

- هذا هو المطلوب .. الأمر سري للغاية ..

يتذكر عبارة «سري للغاية» التي كثيرًا ما قرأها على الخطابات التي يقوم بتوصيلها إلى توفيق مراد أو يحملها منه إلى أماكن مختلفة.

يعود سيد إلى الخلف، يرسم على وجهه علامات قبول الضعيف، هو المجبر الذي لا يمتلك حرية الرفض، يقول:

- حاضر .. ربنا يقدرني وأدبر المبلغ.

يسحب مصطفى الدخان من مبسم الشيشة ليخرجه كثيفًا كثيفًا حتى يختفي وجهه خلف سحابة الدخان، يكتم سيد ضحكته وهو يعقب:

- صنف معتبر يا عم مصطفى.

يظل مصطفى على حالته حتى تفحمت نار الحجر، يشعر بدوار خفيف، يلف خرطوم الشيشة، ثم ينظر إلى سيد محذرًا:

- لا تقصر رقبتي يا سيد.

- عيب يا عم مصطفى، أمنية حياتي .. أدخل وسط أكابر بلدنا.

يشرد سيد إلى مستقبله المشرق، يحاول أن يرتب أفكاره، يُنزل مصطفى ساقه اليمنى من فوق اليسرى وما أن مست الأرض حتى شعر بقشعريرة رهيبة تسري في جسده فرفع قدمه سريعًا، ثم أعادها بشدة ضاربًا بها الأرض، ينتفض سيد متسائلًا:

- ماذا يا عم مصطفى؟

- ثِقل بقدمي ..

- ألف سلامة.

لم يشاهد مصطفى الابتسامة الساخرة التي تراقصت على وجه سيد وهو يعود إلى شروده مرة أخرى ليضع الخطة لمستقبلة ضمن قافلة أكابر البلد.

Scanned by CamScanner

20

جريمة بشعة .. راح ضحيتها خمسة رجال، تلك الجريمة التي أثارت الرأي العام، طالت أسماء أناس كبار في الدولة، كان على رأسهم معالي الوزير.

قبل ذلك بأسبوع واحد يأتي ممدوح إلى السيد الوزير، يُغلق خلفه باب المكتب بعناية، ملامح وجهه تحمل أكثر من تعبير، يبدو أنه يحمل أخبارًا مهمة، يشير إليه معالي الوزير بالجلوس حتى ينتهي من مكالمته الهاتفية، يلحظ التليفون المحمول في يد ممدوح ظاهرًا ورعشة يده بحركة خفيفة.

ينتهي الوزير من مهاتفته الخاصة، بهدوء يضع تليفونه المحمول فوق سطح المكتب أمامه، يرغب في سؤاله عن خبره، لكنه بوقار السادة ينتظر.

يشير ممدوح ناحية التليفون، بحركة لا إرادية يرنو ناحية باب المكتب كي يتأكد من أنه قد أحكم إغلاقه خلفه، يقول بصوت منخفض:

- سميح يعقوب.. ابن عمي.. اتصل بى منذ قليل.. (يميل ناحية الوزير أكثر حتى إن صدره يلاصق سطح المكتب) أخبرني أن أحد أهالي قريتنا كان يحفر لبناء بيت جديد مكان بيته القديم، وعثر على تماثيل فرعونية.

كان الخبر بالنسبة لمعالي الوزير مفرحًا، من الممكن أن يستلب تلك المجموعة التي عثر عليها الفلاحون بعدة آلاف من الجنيهات بينما يستطيع ترويجها بملايين الدولارات، لكن الأمر يحتاج إلى دراسة حقيقية، متابعة من بعيد، وارد جدًّا أن يكون هناك خدعة في الأمر، أو شرك نُصِب للإيقاع به.

يشعل سيجاره الفاخر، يترك مقعده الدوار، يتحرك قليلًا حتى يقف أمام النافذة، يتابعه ممدوح من الخلف، تمر اللحظات ثقيلة حتى يلتفت معاليه ليواجه ممدوح ثم يجلس قبالته، يتحدث بنفس الهدوء:

- لابد من الحذر يا ممدوح .. إن كان هذا الفلاح عثر على تلك القطع الأثرية فلابد أن يكون هناك منها الكثير ..
- أكيد معالي الوزير ..
- تسافر الآن .. تلتقى بابن عمك هذا في مكان بعيد عن الجميع.. وليفعل كل ما سأخبرك به بالحرف الواحد .

بعد نصف ساعة كان ممدوح يقود سيارته شاردًا، يتجه نحو قريته «البندارية» إحدى قرى مركز تلا منوفية، ذلك الجزء الذي يعوم على كنز أثرى يقارب هو وغيره في الدلتا ما تحمله أرض الجنوب من كنوز،

Scanned by CamScanner

لكن فيضان النيل عبر آلاف السنين ترك بصماته عبر الزمن، ترك طمي النيل الذي يخفي مع كل عام جزءًا من تلك الآثار حتى ابتلعتها الأرض تمامًا، إلى أن تأتي أجيال لاحقة مثل هذا الفلاح ليقيم منزلًا، يقوم بالحفر فيصادف جزءًا من هذه الكنوز المدفونة.

كان ذلك جزء من حديث معالي الوزير صاحب الثقافة والباع الطويل في هذا المضمار، أيضًا أخبره بألا يرد اسمه مطلقًا في الحوار القادم بينه وبين ابن عمه حول تلك الاكتشافات الأثرية.

يتذكر الآن إجابة معاليه على سؤال ممدوح حول اكتشاف أمر هذه الآثار حتى بعد تهريبها، فنحن نسمع بين الفترة والأخرى عن استعادة الدولة لبعض القطع الأثرية؟ أجابه الرجل بأن ما يحق للدولة استرداده هي تلك القطع الأثرية المسجلة فقط في سجلات هيئة الآثار المصرية، أما تلك القطع التي يتم العثور عليها ولم يتم تسجيلها وتُهرب لا يحق للدولة المطالبة بها وذلك لأنها لا تعلم عنها شيئًا ألبتة، وهذا هو المهرب القانوني دوليًا، هذا ما يرفع أسعار تلك القطع خاصة عندما تُعرض في مزادات عالمية يتصارع فيها عُشاق الحضارة المصرية القديمة، هناك أفراد في دول مختلفة من العالم يمتلكون متاحف كاملة مملوءة بالآثار المصرية.

يصل ممدوح إلى البندارية، يتوجه مباشرة إلى ابن عمه، من حسن حظه أن وجده جالسًا يتابع أحد الأفلام الأجنبية.

بعد المصافحة يطلب منه أن يجلسا في مكان منعزل لخطورة ما سيتحدث به إليه، يأخذه «سميح» إلى سطح المنزل، في جانب منه

صنع خلوة خاصة به، عدد من مقاعد صُنعت من جريد النخيل، منضدة صغيرة أيضًا من الجريد، «المنقد» موجود في جانب وبه بقايا فحم مشتعل منذ ليلة أمس، الشيشة الزجاجية تحتوي على ماء أصفر اللون من أثر الاستعمال.

- أشعل لك حجرًا ؟

يسأله سميح وهو يتوجه ناحية المنقد، فيرفض ممدوح وهو يمسكه من ذراعه قائلًا:

- لا يا سميح .. الآن نتنهي من حديثنا ثم نفعل ما تشاء.

قبل أن يجلس ممدوح يتوجه ناحية السلم ليتأكد من عدم صعود أحدهم، يعود ليجلس وهو يُخرج تليفونه المحمول ليضعه أمامه على المنضدة، بهدوء يرفع يده نحو سميح طالبًا منه تليفونه المحمول، يقدمه وقد علته الدهشة، لا يعلق ممدوح وهو يقوم بغلق الهواتف بناء على التعليمات التي تلقاها من قبل، يبدأ الحديث:

- أنصت إليَّ جيدًا يا سميح ولا تقاطعني حتى أنتهي..

- تفضل يا ممدوح بك..

يُخرج ممدوح مبلغًا كبيرًا من المال، يمد يده به إلى سميح قائلًا:

- خذ هذا المال واخفِه في ملابسك حالًا.

يفعل سميح ذلك وقد ظهرت على ملامحه علامات التوتر والانبهار، المبلغ يبدو كبيرًا، بالفعل يؤكد ممدوح شكوكه فيقول:

Scanned by CamScanner

- خمسون ألف جنيه .. تذهب بهم إلى ذلك الفلاح الذي أخبرتني عنه، تأتيني منه بما عثر عليه من قطع أثرية.. سوف أحملها إلى المتخصصين في علم المصريات .. إن أكدوا صدق ذلك ننتقل إلى المرحلة التالية.
- وإن لم يثبت صدقها؟!
- سوف نستعيد مالنا .. ونحن نمتلك القدرة على فعل ذلك يا سميح ..

قال ممدوح جملته الأخيرة بعنترية وهو يلقي بظهره إلى مسند مقعده واضعًا ساقًا فوق الأخرى، لحظات يستمع فيها إلى تعليق سميح الذي يتملقه بشكل كبير بينما يده تتحسس المال، عقله الباطن يقرر اقتصاص جزء من ذلك المبلغ لنفسه كعمولة. يعتدل ممدوح ليكمل:

- إن حدث وكانت تلك الآثار حقيقية، سوف أحدثك في مكالمة هاتفية وأقول لك جملة واحدة..
- و ما هي؟
- سوف أقول: نريد أن نفرح بك يا عريس.
- و ماذا بعد؟
- بعدها تذهب إلى ذلك الرجل، تطلب منه أن يقيم سياج حول قطعة أرضه من القش والأخشاب، يأتي بعمال حفر من مكان بعيد عن قريتنا، يقومون بالحفر على قدر استطاعتهم، لمدة لا تقل عن أسبوع.. سوف يعثرون على الكثير من القطع الأثرية، تحمل كل القطع في جوف الليل في سيارة نصف نقل .. ثم تغطيها بلوح مناسب من الخشب .. وتأتي بعدد من العنزات في السيارة، تذهب

إلى هذا العنوان .. هناك سوف تجد مَن يتسلم منك القطع ويعطيك مبلغ مليون جنيه.

يصمت لحظات ليتابع تعبيرات وجه سميح المندهش جدًّا وهو يقرأ العنوان الموجود في الورقة قبل أن يسحبها ممدوح ويشعل فيها النيران، لم يهتم سميح بأمر الورقة، فالعنوان كان قريبًا وواضحًا، إنما كان تفكيره مشغولًا بتدبر اقتصاص مبلغ من الخمسين ألف، فما باله الآن بمليون جنيه سوف تصبح تحت تصرفه، قبل أن يعود من شروده، يقول ممدوح:

- كل هذا يتم بدون أن يأتي ذكر اسمي مطلقًا يا سميح (يرفع سبابته في وجه ابن عمه محذرًا إياه) لي وضعي ومركزي المرموق الذي لا يُمس.
- بالطبع يابن عمي .. اطمئن.

يبتسم ممدوح وهو ينظر نحو الشيشة:

- الآن .. تستطيع تغيير ماء الشيشة وتصنع حجرًا فاخرًا .. وأخبر زوجة عمي بأنني سوف أتناول الطعام .. أريد بط بلدي .. فسوف أنتظر هنا حتى منتصف الليل قبل أن أرحل ومعي القطع الأثرية الأولى.

بعد أسبوع من تلك الأحداث يكون قد تم كل ما خطط له معالي الوزير بالحرف الواحد، تظهر نتيجة فحص القطع الأثرية التي تُثبت أصالتها، بل وعبقريتها، يقوم أصحاب المكان بعمل السياج ويستمر

Scanned by CamScanner

الحفر حتى اليوم السابع، يتكاثر العدد حول مكان الحفر بعدما يُمني كل منهم نفسه بمبلغ ضخم بعد بيع الغنيمة، حتى كانت اللحظة المنتظرة والتي وصل فيها الحفر إلى قرابة عشرة أمتار في عمق الأرض، يصل الحفار إلى قطعة صخرية ضخمة، يهتف مناديًا الرجال في الأعلى ليخبرهم، يهرول صاحب المنزل ليهبط إلى قاع البئر ليشاهد بعينيه، خلفه يهرول ثلاثة من أسرته وعلى وجوههم فرحة العثور على الكنز، لم تمر غير لحظات لم يقدرها أحد، ثم تتحرك الأرض من تحت أقدامهم لتقذف بالماء وكأن عين نهر فُتحت، تتماوج طبقات التربة ثم تهوى الطبقات العليا ومخلفات الحفر فوق رءوس خمسة أفراد في قاع البئر، دُفنوا أحياء.

فى تلك الليلة تعيش قرية البندارية حالة من الحزن لم تشهدها من قبل، تصل قوات الشرطة ورجال الحماية المدنية التي تقوم باستخراج الجثث بصعوبة بالغة من تحت طبقات الطين.

فى تحقيقات النيابة يتحدث أحدهم بأنه شاهد سميح يعقوب بصحبة صاحب المكان أكثر من مرة، ثم يُلمح إلى صلة القرابة بين سميح يعقوب وممدوح يعقوب أحد أهم رجال معالي وزير الـ .... .

تتحول الحادثة إلى حديث الرأي العام في الأيام التالية، لا تستطيع الصحف أو القنوات ذكر اسم معالي الوزير، لكن الشباب على صفحات الـ Social Media يتحدثون عن ذلك مع تعليقات لاذعة لم تتجاهل ما قيل من قبل عن شذوذه.

لكن معاليه يتعمد تجاهل الأمر، وكانت تلك طريقته، فهو يدرك جيدًا أنهم لن يستغرقوا أكثر من يومين حتى يشغلهم شأن آخر، وهذا ما كان بالفعل، لكنه بالرغم من ذلك تعامل بشيء من الجفاء مع ممدوح يعقوب الذي استشعر بهبوب عاصفة ترابية تعكر صفو العلاقة بينهم، يتفانى في إظهار ولائه، لا يسافر إلى قريته خلال الأيام التالية، أيضًا لا يجيب على اتصالات سميح المتتالية حتى ييأس سميح ويفقد الأمل.

بعد أيام يقرر ممدوح يعقوب أن يتحرك في اتجاه آخر.

***

Scanned by CamScanner

21

تقدم الطبيعة يدها الحانية لكل راغب، مُدبرة عن رافضيها، عن مستغليها، وإن بدا .. في لحظات ما .. إنها مقبلة على المستغل، طيعة في أيديهم .. فإن ذلك إلى حين وليس إلى المطلق .. العبرة بالخواتيم وطوبى لمن كانت نهايته فُضلى.

يُقدم فؤاد هاشم مشروع البرنامج كاملًا إلى توفيق مراد بشكل لا يحتاج معه غير التنفيذ الحرفي لما ورد فيه، معلومات كاملة في عدة صفحات حول موضوع القضية المطروحة للمناقشة مع السيد الوزير بمجرد أن يقرأها توفيق مراد حتى يتحول إلى خبير بكل خفايا القضية، يرفق معها صفحات بالأسئلة والأجوبة المقترحة مع أسئلة أخرى مبنية على الإجابات المنتظرة، وأسئلة ثالثة للظروف الطارئة .. كأنه نصّ دراميّ وما توفيق مراد ومعالي الوزير إلا ممثلين سوف يؤديان الأدوار المطلوبة منهما أمام الجماهير، نجاح العمل يتوقف على جودة الأداء.

يتم الإعلان عن بداية البرنامج مع أول الشهر القادم، تبذل إدارة القناة الكثير على تجهيز الأستديو حتى يصل إلى صورة حسنة ولكنها، بالرغم مما أُنفق، لم تصل إلى ما نراه في القنوات العالمية.

عُرضت الحلقة الأولى، يتم تقديمها بشكل حيوي، تتسم إجابات معالي الوزير بالرشاقة، رجل كثير الابتسام، حكاء، صاحب خفة دم ونكات لاذعة، لقد قرر أن يكتسب حب الجماهير من خلال هذا البرنامج.

الحقيقة أن معالي الوزير يمتلك من المهارات الكافية ما يؤهله لأن يكون خفيف الظل طوال مدة الحلقة، لقد تحدث عن تاريخه، مركزًا على جزئيات لم تطرح من قبل، حتى إن الحلقة طالت عن موعدها المحدد سلفًا، وبهدوء أعطى توفيق أوامره بإلغاء البرنامج التالي، كان برنامجًا لصفاء هلال التي لم تعقب.

في اليوم التالي بدأت الصحافة تتحدث عن تصريحات الوزير تحت مانشيتات صارخة، لم يكن أحد من الجماهير يعي أن هذا التلميع الصحفي كان متفقًا عليه بين توفيق مراد وبين الصحفي نجيب سالم، ولم تكن الجماهير أيضًا تعلم أن ما يحدث كان متفقًا عليه بين الوزير ورؤساء تحرير بعض الصحف الذين تربطهم به مصالح خاصة، فكانت النتيجة مثل هذا الحديث عن اللقاء وكأنه فتح عظيم، مُشيدة بالأداء الرائع لتوفيق مراد وقدرته الفائقة على الحوار التي أثرت الحلقة.

Scanned by CamScanner

يشعر فؤاد بشيء من الضيق في صدره حيال ما يحدث، لم يصل تفكيره إلى ما بعد النجاح المذهل للبرنامج، كان يتمنى النجاح، لكن الإشادة الكاملة بتوفيق مراد جعلته يفكر في نفسه قليلًا، إنه نكرة، آلمه ذلك، يقرر في الوهلة الأولى ألا يقوم بإعداد البرنامج في المستقبل، حتى إن وصل الأمر إلى الانقطاع عن العمل.

بعد قليل يهدأ، تتلاشى ثورة غضبه، يبرر ذلك الهدوء بأن ذلك يدخل في نطاق عمله الذي يتقاضى عنه راتبه الشهري.

في هذا اليوم يستيقظ شاعرًا بضيق في صدره، يتزايد ضيقه حتى يصبح حجرًا ثقيلًا يصعب عليه إزاحته، لا يدري بالضبط ماذا يجب أن يفعل؟! تسأله زوجته أكثر من مرة عن سبب وجومه؟ لم يجد ما يجيبها به.

يصل مكتبه بنفس حالته، تستقبله صفاء هلال بابتسامة عريضة جعلته يبادلها الابتسامة، لحظات وينطلق الحديث بينهما، دقائق وينسى فؤاد همومه تمامًا، يضحك من قلبه وهو يلاحظ، بعين حسبها عين خبير، صفاء وهي تساومه لمناوشتها لمتعتها الشخصية.

يأتي مَن يُخبر فؤاد بأن السيد توفيق مراد يطلبه في مكتبه حالًا، تعود حالة الضيق إلى فؤاد، وإن كانت بشكل أقل عن ذي قبل، تعمد أن يُظهر علامات الضيق على ملامحه لحظة أن دلف مكتب توفيق مراد الذي يستقبله بابتسامة عريضة حتى إنه يقف ليرحب به بحرارة لم يألفها فؤاد الواقف وقد ألجمه ذهوله عن التفوه بأي كلمة، يباغته توفيق:

مبروك علينا يا بطل .. نجاح البرنامج حديث كل الصحف اليوم.

لم ينطق فؤاد بكلمة، لسان حاله يقول: «مبروك عليك أنت أيها السيد» يشعر توفيق بما يعتمل بداخله ويفهمه جيدًا، يدرك تمامًا أن هذا انفعال طبيعي، من الذكاء الآن أن يسيطر على هذا الانفعال، يعود إلى مقعده وهو يشير إلى فؤاد بالجلوس:

- تفضل .. بعد العلاوة التشجيعية يا بطل .. فيه مكافأة أخرى.
- مكافأة؟!

يقولها متسائلًا بسخرية، دهشة تنطوي على تحقير ما يقال، يُكمل توفيق عروضه التي لا تنتهي:

- اسمك سوف يوضع على تتر البرنامج كمعد.

هنا فقط يشعر فؤاد بالسعادة الحقيقية، حتى كاد شعوره بالسعادة يذهب بوقاره، يقف وقد تحركت يديه في الهواء، يبتسم توفيق، يشير إليه بالجلوس:

- هذا حقك يا فؤاد .. المهم يا بطل أريد مجهودًا كبيرًا في الحلقات القادمة.

هي جزرة يؤجلها توفيق كي يلقي بها أمام فؤاد حينما يشعر تذمره، كان من الضروري أن يتم تأجيل هذه الجزرة حتى يتم عرض أول حلقات البرنامج، أو بالأدق بعد الإشادة الكاملة بتوفيق مراد بدون أن يشاركه أحد هذه الإشادة، أما عن الحلقات القادمة ووجود اسم فؤاد

Scanned by CamScanner

على التتر فإن ذلك لن يشير إليه أحد، أما إن حدث وأشار أحد فهذا لن يؤثر على ما حصل عليه توفيق مراد من أمجاد.

يشتعل الحماس بداخل فؤاد، يصافح رئيس القناة بسعادة، يخرج مسرعًا كي يبدأ عمله، لم يفق إلا عندما يصطدم بهناء السعيد التي كانت تمر عبر فتحة الباب في هذه اللحظة.

لو حدث ذلك في يوم آخر لشعر فؤاد بلذة من التماس بهناء، بل يظل يتذكره لأيام تالية، أما الآن، وهو بهذا الانفعال الذي يغمره .. يتملكه، لم يشعر بها، يعتذر بكلمات سريعة مبهمة، لم يلحظ أي شيء مما كانت عليه هناء السعيد، لم يتخلله شذاها.

يدخل حجرة مكتبه وهو يرتب أفكاره، يطلب من مصطفى فنجان قهوة دوبل، يُخرج أجندة يكتب عليها اسم البرنامج الذي سيبدأ من الآن في إعداد حلقاته بشكل رسمي.

صفاء تتابعه منذ عودته، أدركتْ من حركاته وشروده أنه بعيد تمامًا عن طبيعته المعهودة، خشيت أن تبدأ بالحديث، لكن داخلها كان يتحرق شوقًا لتبادله بعض العبارات، لم تستطع الصمود طويلًا، تتخذ قرارها بالهجوم المباغت، قذائف ملتهبة من عينيها سوف تصيبه، لكنهاستكون قذائف حانية، لن تقتل، إنما تصيبه بوخز في ذلك الجزء المسؤول عن الإثارة الجنسية، تقدمت نحوه لتسأله بداية عن لقائه مع رئيس القناة، يخبرها بتفاصيل اللقاء، لم تستمع إلى كلمة واحدة، عيناها كانتا تتابعان حركة شفتيه، نظرات عينيه المرتبكة الهاربة، تبتسم

من قدراتها الهجومية وحصونه الهشة، يستمر في سرده حتى يأتي إلى النهاية ضاحكًا:

- من سرعتي عند خروجي صدمت هناء السعيد عند دخولها مكتب رئيس القناة.

هنا تغلف ملامحها بتعابير تنم عن جدية رهيبة، تميل نحوه، يرتد بشكل لا إرادي إلى الخلف قدر قدم، تقول:

- علمتُ أن توفيق مراد وهناء السعيد تزوجا عرفيًا.

***

Scanned by CamScanner

22

مثل ريشة .. أو عصفور صغير .. في مهب ريح .. يقاوم لحظات .. وكثيرًا ما ينجرف .. يحظى، بسبب براءة تكمن في قلبه، بيد قدرية حانية ترفق به قبيل الانزلاق بقليل، ينجو شاكرًا، تلك كانت صفاء هلال، متأرجحة بين مد وجزر، بين صفاء وشقاء، حزينة تتمنى لو تستقر، تحزن لو استقرت.

جمال هلال زوج صفاء هلال، شخص مرح،مقبل على الحياة، في بداية زواجه بابنة عمه صفاء، لم يكن يفضل أبدًا أن يكون عنيفًا معها في أي تصرف إلا أمرًا واحدًا، يلاحظه بعد فترة طويلة من حياتهما معًا، الهدوء والاستقرار من الأمور التي لا تفضلهما صفاء أبدًا، تصف الحياة وقتها بالرتابة والملل، تود دائمًا أن تكسر ذلك الملل بأى شيء وإن كان خارجًا عن المألوف، لكن في أضيق الحدود.

لذا كان جمال يقترح الخروج في رحلات، يبدأ في مشروعات صغيرة تهتم بها صفاء، مثل تغيير ديكور الشقة أو استبدال السيارة،

أحيانًا يتركها تبحث عما تُحرك به ماء حياتها الراكد، وكم كانت المصائب تأتي إن تركها تختار وسيلة التغيير.

من ذلك ما افتعلته يوم اتهمته بوجود علاقة غرامية بينه وبين زميلة له في العمل، كان قد تحدث مصادفة عنها أكثر من مرة في حديث واحد، يتعجب من اتهامها في بداية الأمر، يسخر منها، تغضب من سخريته، يتزايد إصرارها على اتهامه، هنا ينفعل .. يقسم لها بكل عزيز بأن ما تتحدث به لا أساس له من الصحة.

الغريب أن صفاء صدقت ما أطلقته من شائعة، يغضب داخلها، تحمر وجنتاها وتلتهب أرنبة أنفها وهي تتخيل جمال في أحضان سوزي، زميلته في العمل، تصفه بأنه هكذا دائمًا، ينظر إلى غيرها وإن كُن أقل جمالًا منها، وهن كذلك دائمًا .. هي الأجمل .. لكنكم معشر الرجال لا تملأ عيونكم غير حفنات من التراب ولو الأمر بيدي لجعلتها حفنات الجبس سريع التصلد، تصرخ منفعلة .. لماذا لم يُخلق الرجال بلا عيون أو على الأقل بلا قلوب؟! يندهش جمال من انفعالها المبالغ فيه، يحاول التقرب منها لتهدئتها، تدفعه بعيدًا عنها وهي تلملم بعض أشيائها لترحل إلى والديها باكية منهارة طالبة الطلاق ولا شيء غيره.

إن سأل أحد صفاء هلال عن الحقيقة ستجيبه بعد أن تذهب عنها نوبة الانفعال:

- جمال لا يفعل ذلك أبدًا .. أنا أحبه ولن أستطيع العيش بدونه .

Scanned by CamScanner

حدث أنها استكملت اللوحة التي رسمتها بريشتها، تمسكت بموقفها، ترفض العودة إلى منزلها، الغريب والذي لم تدركه صفاء ولم يشعر به جمال هو ما حدث بعد ذلك.

حرصًا من جمال على تفادي أي فعل يكون من شأنه أن يعضد صفاء في معتقدها، يتحفظ أكثر في علاقته بزميلته سوزي التي أثارت صفاء حولها الزوبعة. بعد أيام قليلة تلاحظ سوزي إعراض جمال عنها، تغيرت معاملته لها بشكل ملحوظ، طبيعي جدًّا أن ينتابها قلق ما، أن ترغب في معرفة أسباب هذا التغير، تقترب أكثر من جمال في محاولة للفهم، تساءلتْ: هل فعلتُ بدون قصد أية إساءة؟!

سوزي من الفتيات الجميلات،لكنها وللأسف الشديد دلفت منطقة العنوسة، تخطت عامها الثلاثين، في مجتمعنا تثار الشكوك حول سوزي ومن هن على شاكلتها، خاصة إن كن جميلات بهذا القدر، العانس هي الخطر ذاته بالنسبة لأي زوجة، فهي لن تمانع أبدًا في أن تكون زوجة ثانية أو حتى ثالثة، ذاك أفضل من عضوية جمعية العنوسة الأبدية.

عقيدة لا تخلو من بعض خيالٍ تجعل من العوانس خطرًا يحيط بالأزواج، على الزوجة أن تحتاط بكل ما تمتلكه من وسائل وإن كان هجومًا ومن ثم انفصالًا، هو أفضل من زوجة ثانية!!

الحقيقة أن هذه الوسائل التي تمتلكها الزوجة ليست كافية لصد هذا الغزو، الأمر يتوقف على طبيعة الرجل وظروفة بوجه عام، المادية منها بوجه خاص.

ثقة الزوجة في زوجها فقط هي التي تبث بداخلها راحة تامة، تلك الثقة لم تعدمها أبدًا صفاء تجاه زوجها، لكن ها هي اليوم تترك بيتها لما أثارته حول زوجها وإن كانت تقول في نفسها: «هذا ما حدث وما هي إلا أيام وتعود الأمور إلى طبيعتها مرة أخرى».

كاد أن يحدث بين جمال وسوزي ما هو طبيعي في مثل هذه المواقف من شد وجذب بين الطرفين أحدهما تركته زوجته بعد إثارة مشكلة هو بريء منها، بديهي أن تتحمل نتيجة مهما كانت سيئة، فإذا اقترب من سوزي لن يشعر مطلقًا بذنب لأن زوجته صفاء هي سببه.

الطرف الآخر «سوزي» تنهشها مخالب العنوسة، تُحوّل فراشها الليلي، بعيدًا عن تفاصيل حياة قاسية وبشر لا يرحمون، إلى لهيب مستعر لا تشعر بنيرانه أبدًا غير عانس أخرى مهما كست وجهها ابتسامات تواري بها ما يعتمل في داخلها.

هل يقع جمال في تلك الحفرة التي حفرتها صفاء بأظفارها؟

لم يحدث ذلك لفطنة جمال، لقد صارح سوزي بما حدث من زوجته، وأن ابتعاده عنها ما هو إلا حفاظ على مشاعر زوجته، أسلوبه المتزن جعل سوزي تنظر إليه بعين الإعجاب أكثر، يجعلها شديدة الحنق على صفاء، كيف يكون بين يديها رجل مثل جمال وتتركه وترحل، آه لو أتيح لها الفرصة لتعبر لجمال عما يعتمل بداخلها لأذاقته من المتعة ألوانًا.

Scanned by CamScanner

أول هذه الألوان ما تمنته طيلة سنواتها الماضية من أن تسير معه في الشارع أمام الناس متعلقة بذراعه غير مبالية بنظرات فتيات حاسدات، تأخذه إلى شقتها التي وضعت فيها كل وسائل الراحة والمتعة، تخرج من دولاب ملابسها أقمصة نوم حريرية ذات ألوان زاهية تنزلق عليها طيور عشق مغردة، تتعطر بعطور مستوردة أنفقت في إحداها مرتب شهر كامل، تعد له طعامًا فاخرًا، يأكلان .. يشربان .. يتطارحان الغرام بكل ألوانه حتى مطلع الفجر ..

تفيق من نوبة شرودها باكية حسرة، تدفن همومها بداخلها .. لا تدري إلى متى؟

مثل ذلك ما كانت تعتاد عليه صفاء هلال من شد وجذب «بهارات الحياة» وإن كان جمال على علم بطبيعتها ويدرك أنها أيام وتعود إلى الهدوء والاستقرار، فإنه لا يعلم ما بدر منها اليوم عن هناء السعيد وتوفيق مراد، ولكنه وبكل تأكيد سوف يعلم ولكن في الوقت المناسب، لكنه لم يجد إجابة شافية يجيب بها على توفيق مراد حينما يهاتفه ليطلعه على ما بدر من زوجته. لكن صفاء كانت تمتلك الكثير لتؤكد به ما صرحت به وانتشر بين العاملين في القناة انتشار النيران في ذلك اليوم الرهيب.

***

23

يصف رجال علم النفس مرض «العصاب» على أنه اضطراب من تضافر عدة عوامل، على رأسها صراعات لاشعورية تبدو في صورة أعراض جسمية ونفسية، منها القلق، الوساوس،الأفكار المتسلطة، المخاوف الشاذة، اضطرابات جسمية وحركية وحسية متعددة تعوق الفرد عن ممارسة حياته السوية في المجتمع الذي يعيش فيه، قد يدفع هذا المرض صاحبه إلى القتل أو الانتحار، وإن لم يكن هذا أو ذاك فإنه لا محال يرتكب الكثير من الموبقات، ولعل أهم أسباب الإصابة بهذا المرض الجو الأسري غير المستقر ومشاعر القسوه والنبذ، تُعد الصدمات أو الأزمات التي يواجهها الفرد في بداية حياته من الأسباب المرسبة لحدوث مرض العصاب النفسي .

كثيرة هي الأزمات التي تعرض لها ممدوح في بداية حياته، والده يعقوب كان شخصية لها طابعها الخاص، نتيجة للكثير من الأحداث تتوتر شخصية ممدوح، يُصاب بمرض العصاب، يجهل ذلك بطبيعة

Scanned by CamScanner

الحـال، تمرده على الواقع وانتقاله من قريته كان سببًا في شـفاء جزئي من المرض، لكن بقي عدد من الأعراض التي يدركها المتخصصون.

عـادة ما يقابل ممدوح الأمور التي تفـوق قدراته، التي يصعب عليه حلها أو حتى تخطيها، يقابلها ببلادة ووجه صامت حتى يبتلعها الزمن، لكن ما حدث من الوزير لم يسـتطع أن ينسـاه مطلقًـا، كلما يتذكر ذلك يتحسـس مـكان صفعة هناء السـعيد علـى وجهه، يحاول أكثـر من مرة أن يقنع نفسـه بـأن الوزير كان يداعبه أو أن ذلـك جاء بمحض الصدفة، خاصة بعدما أشـركه معاليه في صفقاته السرية، لكن الحقيقة الواضحة أن ما حدث قد علم به الوزير، لكن كيف ذلك؟ لا يدري .. !!

يضيق بهذا الأمر ذرعًا، لا يستطيع ابتلاع ما حدث أو يتناساه، بداخله رغبـة قاتلة في تملك هناء، رغبة تجعله يقرر أن يسـأل عن ذلك، يجب أن يقابلها بأي شـكل، بعد تفكير طويل لم يجد غير الذهاب إلى مكتبها في القناة الفضائية حلًّا.

يتزامن دخول ممدوح يعقوب حجرة مكتب هناء السعيد مع الجملة التي أطلقتها صفاء هلال .

- علمتُ أن توفيق مراد وهناء السعيد تزوجا عرفيًا.

يسـمع ممدوح ذلك، يشـاهد علامات الدهشـة على وجه فؤاد، من المرات القليلة القليلة التي يعمل فيها عقله بسـرعة، لم يسـأل عن هناء السـعيد، إنمـا يعلل وجوده بأنـه لترتيب اللقاء القادم من برنامج السـيد

الوزيـر، بعـد دقائـق من حوار عقيـم مع فؤاد يتـرك المكان شـاردًا فيما سمعه من أخبار تخص هناء السعيد.

من المؤكد أن هناء تحدثت مع زوجها السريُّ توفيق مراد بما حدث بينهمـا، توفيـق تحـدث بذلك إلـى الوزير، لقـد زادت الشـبكة تعقيدًا، انتقامه من هناء أصبح من الأمور الشـاقة عليه، يقرر أن يُنحي رغبته في الانتقام.. الاحتواء والتملك، جانبًا ويعود إلى طبيعته.

تعـود إليـه في نوبات الغباء، التي كثيرًا ما تنتابه، صورة هناء السـعيد فـي فراش لذيـذ وإضاءة حمراء، دائمًـا يتخيل .. أو يحلم بنفسـه ملقى على ظهره وهي جالسـة أعلاه يتحسـس جانبيها بيديه، تكاد تصهره في طاحونتها.

يفيق من شروده .. يستيقظ من حلمه .. ممسكًا بيديه خيالات تركته علـى أعتاب اللذة، يشـتاط غضبًا، يقـرر أن يبحث عن وسـيلة للانتقام مهما كانت.

يحـاول ممدوح أكثر من مرة أن يسـتجمع شـجاعته ويسـأل السـيد الوزيـر في حال انفرادهما التام، لكن شـجاعته كانـت تخونه حتى وإن كان في مواقف يعتبر نفسه فيها أعلى من الوزير قوة.

شـروده جعل أداءه في الأيام الأخيرة ينتابه شيء من التراخي بشكل لـم يرض عنه السـيد الوزير، لكنه لم يصارحه بذلـك، يجزل له العطاء، يأمره بالسـفر في إجازة لمدة ثلاثة أيام في منتجع سياحي، يأمر له هناك برعاية تامة وتغذية من نوع خاص.

Scanned by CamScanner

فى المنتجع السياحي يمضي أيامه ممارسًا كل ألوان البغاء مع هناء السعيد في عالم سحري من خياله الخاص، مهما كان جسد أو جمال تلك التي يمتلكها، دائمًا يفيق على صورة هناء تسخر منه .. تُخرج له لسانها قبل أن تبصق على وجهه، يقرر الانتقام.

يعود بعد إجازته شرهًا مدمرًا مع سيده، مما يشعرهما بسعادة خرقاء. تكثر بعدها عمليات التهريب لآثار غير مسجلة، يسافر مع صفقات لا يعلم قيمتها عبر الحدود الجنوبية، في رحلات السفاري التي يلتقي فيها مع المشتري، تحت رعاية شركاء يحتلون مناصب تتيح لهم تمرير كل شيء.

***

24

مزيج من روائح عطور بين محلية ومستوردة، يختلط برائحة ناتجة عن الأجهزة المنتشرة في كل مكان، برودة تنبعث من أجهزة التكييف، ألوان زاهية وديكورات تذهب بالعقول، ابتسامات وقبلات تتقاذفها الوجوه، أجساد تختفي خلف ملابس أو قطع ملابس، حركة سريعة مثل خلية نحل.

للمرة الأولى يدخل سيد المليجي إلى مثل هذه الأماكن الراقية، كثيرًا ما شاهدها على الشاشات فقط، يسير خلف مصطفى عيناه مثبتتان في الأرض، يلاحظ بطرف ما يمر عليه، يتمتم بعبارات غير واضحة عندما كان مصطفى يقوم بتعريفه بأحد أو يجيب على أي أسئلة الفضوليين.

مصطفى يسير أمامه شاعرًا بزهو وفخر قائد كتيبة، خاصة عندما يُلقي أحد التحية وينظر نحو سيد كي يلاحظ انطباعه، يدرك سيد مشاعر مصطفى المتضخمة، يمتدحه مصطفى سريعًا:

- لك شهرة واسعة يا عم مصطفى، الكل يحترمك ويقدرك.

Scanned by CamScanner

يتصنع مصطفى التواضع فجأة مواريًا ابتسامة سعادة، هو يجيب بهدوء:

- بالكلمة الحسنة تستطيع كسب الجميع، في عملنا لا يوجد غير نعم وحاضر .. فاهم يا سيد.
- حاضر يا عم مصطفى.

تعود حالة التضخم إلى صدر مصطفى، يملأ صدره بالهواء، يشير نحو مكتب في المواجهة:

- تعالى ندخل لتوفيق بك رئيس القناة.

بعد انتظار طالت مدته من وجهة نظر مصطفى حتى يخرج من بالداخل، يسمح لهما بالدخول، ينظر توفيق إلى سيد بعين مدربة، طالت نظرته حتى يشعر سيد بسهامها فينكمش قليلًا مثل بالون يفقد هواءه بعد شكة دبوس، لم يلحظ أن مصطفى قد ترك تضخمه على باب المكتب. يستطيع توفيق أن يستشف الكثير من شخصية سيد، يبتسم، يتوجه بالحديث إلى مصطفى متسائلًا:

- مضمون يا مصطفى..؟
- فضلة خيرك، أي شيء يقصر فيه .. رقبتي .. حتى يتعلم.

يستدير توفيق بحركات ضبعية، يستقر خلف مكتبه مشيرًا لهما بالانصراف، يضع قلمه من يده معقبًا في هدوء ينم عن شكوك دفينة:

- حتى يتعلم؟! هو معلم يا مصطفى.

لو استمع سيد إلى تلك الجملة لرفض العمل في القناة، يود لو يظل بتلك الصورة البلهاء التي تتبع صورة مصطفى، لا يريد أن يُعرف عنه قدراته الخاصة، داخله المتمرد، مصادقته للشيطان، هو هنا كي يصعد الدرجات خفية،سوف يظل بعيدًا عن عيون الشك قدر استطاعته.

من المقرر أن يظل سيد برفقة مصطفى عدة أيام، يتعلم منه كافة تفاصيل العمل، لكن ما حدث بعد قليل أن أرسلت سكرتيرة توفيق مراد في طلبه، يقف أمامها مرتبكًا، تأمره متقززة، من ندوب على وجهه، أن يجلس أمام باب مكتب السيد رئيس المحطة لخدمته.

يغتاظ مصطفى من هذا القرار المفاجئ الذي يقلل من فرصة فرض سيطرته وارتدائه ثوب المعلم، لكنه لا يملك غير أن يُظهر سعادة باهتة، فها هو أحد تلاميذه يقبع أمام باب رئيس القناة.

الغريب أن مصطفى يقتنع بذلك وصدقه، بل ويحسبه انتصارًا عظيمًا، يتحدث أمام الجميع بأنه يمتلك من الفراسة ما جعله يختار الشخص المناسب الذي يسعد به رئيس القناة.

يجلس سيد يتأمل المارة، يسأل في استحياء عن هذا أو تلك؟ تمر عدة أيام دون عمل تقريبًا، لم يطلبه توفيق مراد، بعض المشروبات من الكافتريا للسكرتيرة، يشعر بضيق شديد، هو لم يأت إلى هنا لخدمة سيدة القرود، هكذا كان يطلق في داخله على سكرتيرة توفيق مراد.

يبدأ في التحرك قليلًا، يتجول، يتعرف على أقرانه، يستطيع اكتساب ود بعضهم، وما اعتبره انتصارًا سريعًا اقترابه من «نعمة» عاملة

Scanned by CamScanner

الكافتريا، يجد فيها ميلًا للمغازلة مع نظرات قال عنها في نفسه: «عينيها فاجرة» بالإضافة إلى رغبات وتطلعات توافق داخله، يقترب منها في جرأة، يجلس معها أوقات الفراغ، تدور بينهما أحاديث مختلفة، يبهرها بجرأته كثرة معرفته ببواطن الأمور وخفايا السادة عبر عمله السابق في أكثر من مكان، بعد أيام يخرجان من العمل معًا حتى موقف الأتوبيس.

ذات مساء .. قبل أن يصلا إلى محطة الأتوبيس، كان يقص عليها بعض الحكايا، لم ينتهِ من حكايته المثيرة وها هم قد وصلوا، يقترح عليها أن يقضيا معًا ساعة أخرى كي يكمل قصته ويتناولا معًا أطباق الكشري، تمتنع نعمة لحظات قبل الموافقة، في طريقهما يكمل قصته عن جاره الذي أجبره ضابط الشرطة على الإتجار في المخدرات، بداية لم تصدق نعمة، لكن ها هي القصة متكاملة.

ضابط الشرطة، قائد القسم الذي تقع في دائرته منطقة سيد السكنية، يفرض سيطرته على الجميع، يجمع إتاوات من كل مكان تصل إليه يديه، يساعده في ذلك طاقم العمل معه، ذلك لأنهم يعطيهم مما يجني الكثير، من ذلك تجار المخدرات في المنطقة، يتركهم يتاجرون جهرًا مقابل نسبة محددة تذهب إليه نهاية كل أسبوع، صديق سيد ويدعى شوقي كان أحد التجار الذين يعملون في أضيق الحدود، يستدعيه الضابط ذات يوم ويطلب منه مبلغًا أكبر من طاقته، يرفض شوقي لعدم الاستطاعة، يبيت ليلته في الحجز، لا يعلم ما يُدبر له، بعد أيام قليلة يتذوق فيها شتى أنواع العذاب، يخرج مفروض عليه الإتجار في

المخدرات وتوريد النسبة مع نهاية كل أسبوع، يذهب إلى جهة أمنية عليا، يخبرهم بكل التفاصيل. لا يمتلك أي دليل غير قصته، يتم التحقيق مع الضابط في تفاصيل قصة شوقي، يخرج منها بمنتهى الهدوء، يسانده كل من تحت قيادته، بل ويسانده أصدقاء شوقي، يعترفون بأن شوقي يتاجر في المخدرات بالفعل، وعندما خشي افتضاح أمره قرر أن يلفق هذه التهمة لهذا الضابط الشريف الملتزم الذي رفض رشوته. يحفظ التحقيق.

يشتعل الباشا غضبًا، يساعده الجميع في تدبير مكيدة، على إثرها يجد شوقي نفسه في السجن بتهمة الإتجار في المخدرات لمدة عام، نعم هو يتاجر فيها، لكن هذه المرة بالذات هو بريء، لُفّقت له التهمة، حرز حشيش كان أكبر مما يتخيل، ينقم على الضابط وعلى الظروف التي ألقت به في هذا الطريق، يتصادف أن تكتشف زوجته حملها في طفلهما الأول بعد الحكم عليه بأيام، طفله الذي طال انتظاره له، حملت منه في ذلك اللقاء الأخير بينهما قبل القبض عليه. يتزايد بغضه، تتعاظم كراهيته .. يقرر أن يتوب توبة كاملة، سوف يخرج بعد شهور قليلة، ينتقل إلى مكان آخر بزوجته وطفله، يعمل في أي عمل شريف ليبدأ حياة جديدة، بالفعل يفعل ما قرره من قبل .. لكن ..

ذات يوم يستدعيه الضابط المسؤول عن قسم الشرطة الذي تقع في دائرته شقته التي استأجرها ومحل البقالة الذي فتحه كمشروع ليعيش

Scanned by CamScanner

منه، الضابط ينهره بشدة، بعد لحظات يصفعه على وجهه عدة صفعات وهو يسأله:

- ما الذي سرقته من الباشا؟

يقصد ضابط قسم الشرطة الأول الذي لفق له تهمة الإتجار في المخدرات من قبل، لا يرحمه الأخير، يستصدر قرارًا بغلق محل البقالة الخاص به، يطلب منه في قوة أنه لن يتركه إلا إذا صفح عنه صديقه وزميل دفعته الباشا.

منكسرًا يذهب شوقي إلى الضابط طالبًا منه الصفح والسماح، يود أن يعيش وأسرته في هدوء، يتلقى صفعات وضربًا بالأقدام لا طاقة له بتحملها، في النهاية يتحدث الباشا بهدوء:

- تعود إلى تجارة المخدرات .. تتوسع في نشاطك .. حصتي منها ضعف ما أحصل عليه من أقرانك يا شوقي.. تفعل ذلك تنال رحمتي ورعايتي.. ترفض .. مصيرك السجن .. لكن قبل السجن سوف تشاهد زوجتك تُغتصب أمام عينيك .. أما ابنك فسوف يباع لتجار الأعضاء البشرية.

ينهار شوقي تمامًا، لا يستطيع الرفض، ينفذ رغبات قائده الذي يحميه بمنتهى الدقة، الآن هو من كبار أغنياء منطقته السكنية يا نعمة بعدما استطاع افتتاح معرض للسيارات.

يُنهي سيد حديثه مع نعمة بعبارات تؤكد أنهم فئة مطحونة يعملون تحت رحمة الأسياد الذين يمتصون قوتهم، تتأمله نعمة لحظات وقد

رق قلبها شفقة على طائفة هي منهم، إنهم مَن كُتب عليهم الشقاء، إن تمرد أحدهم ورفض معبرًا عن ذاته داستهم أقدامهم .. لا تستطيع حبس دموعها، يربت سيد على كتفها، قبل أن ينتهي اللقاء تخبره بأنها ارتاحت له، إنه ابن بيئتها، سيكون قريبًا منها..

يبتسم سيد، يشعر براحة مما وصل إليه، فما هي إلا أيام وينتشر داخل هذا البناء، سوف تساعده نعمة في هذا الانتشار.

نعمة فتاة قمحية اللون، ذات معالم واضحة تناهز سيد في الطول، تستخدم أدوات التجميل وخصوصًا البودرة بكثافة، تصلح لأن تكون فتاة من الطبقة الراقية إن كانت قد ولدت فيها، لكنها لم تتعامل يومًا من هذا المنطق لأنها تدرك وضعها جيدًا، أبوان معدمان وإخوة يتجاوز عددهم الخمسة، شقة ضيقة في منطقة شعبية، أقصى طموحها شاب من نفس مستواها يستطيع أن يحتويها ويجمعها معه في شقة تقوم فيها على خدمته.

من ثقافتها المترسخة أنها لا تملك سوى شرفها، يجب أن تحافظ عليه مهما كانت الظروف، إن فقدت عفتها لن تستطيع العيش في حي الشرفاء أو حتى العيش في حي المذنبين نظرًا لانخفاض نسبة جمالها. سوف تكون ضحية أخرى من بين ضحايا يصنعها السادة كي يجدون مَن يُلقون على كاهلهم بكل سوءات البشر، فلابد أن تتواجد طائفة تتحمل كل العيوب حتى تصفو لهم أجواء حصاد كل المزايا، بذاك يستقيم ميزان الأمور فلا تنقلب قاعدة الاستمرار.

Scanned by CamScanner

توافقت رغبتها مع ظروف سيد، قرر في داخله أن يترك أرض الشقاء لينعم ما تبقى في حياته بشيء من الظل في جنة السادة، رغبته تلك جعلته يترك نزواته الجسدية، لم يطرق باب خضرة لمدة طويلة.

هكذا تحولت حياة سيد ونعمة، تقابلت رغباتهما، قررا، بدون أن يفصحا بذلك، أن تلتقى خطوط حياتهما لتتحد في خط واحد، لكنهما لم يدركا، لأكثر من سبب، أن هناك مَن سيرفض أن تتحد خطوط حياتهما معًا حتى لو كان ثمن ذلك حياتهما معًا.

***

25

لحظات قليلة تلك التي يدرك فيها المرء قدراته على حقيقتها ويقرر في شيء من الدقة ما له وما عليه، وهذه اللحظات على قلتها لا تأتي إلا نادرًا على طول عمر المرء، أو قد لا تأتي.

من ضمن القليل جدًّا هذا، ما يشعر به ممدوح يعقوب، الذي أدرك، في حالة أشبه بالحلم، أن قدراته العقلية محدودة، وأنه إن امتلك قدرات عقلية أعلى لاستطاع الوصول إلى مستويات أعلى، دليله في ذلك هو مرور هذه السنوات، ولا يزال في مكتب الوزير سكرتيرًا في الظاهر، صاحب علاقة شاذة في الخفاء.

إن حدث يومًا وترك الوزير منصبه، سوف يترك هو منصبه، لن يبقي عليه الوزير القادم هو أو غيره من طاقم صنعه سلفه وترددت عنهم شائعات حتى وصلت عنان.

إن أبقى عليه الوزير القادم لأي سبب، لن يستطيع تحقيق مكاسب كتلك التي يحققها اليوم مستغلاً دلاله لدى الوزير، هناك احتمال أخير

Scanned by CamScanner

وهو أن يبقي عليه معاليه إذا رحل عن الوزارة كي يستعين به في نزواته الخاصة وتهريب الآثار، هذه هي الخطوة الأخيرة التي سيتعلق بها، يعلم جيدًا أن معاليه خارج دائرة الشبهات في صفقات تهريب الآثار، يؤمن نفسه جيدًا، هناك عشرات سوف يسقطون في حال انكشاف الأمر، لكنه ليس معهم، وممدوح لصيق به ولن يكون كبش فداء، أما إن تمرد سيكون أول الكباش.

احتمال رحيل معالي الوزير عن منصبه ضعيف جدًّا، هذا الوضع القائم يحتاج إلى معجزة سماوية كي يتم تغييره. يرتعد ممدوح لحظة حينما يصل إلى هذا الاحتمال الأخير، وفاة معالي الوزير، وفاة طبيعية أو أو اغتيالًا، كيف يكون بعدها؟

بعد دقائق يرتاح لما قام به، وإن كان على غير ترتيب، من شراء بعض العقارات، احتفاه برصيد مالي في مكان أمين، ثروة تجعله يعيش ما تبقى له في يسر، بل إن عاد إلى قريته يدخل بين زمرة الأثرياء فينال احترامًا وتقديرًا.

نتيجة لهذا التفكير المنظم تمنى أن يتقدم خطوة جديدة يرتقي بها درجة نحو القمة، لكن ما هي هذه الخطوة .. وكيف يحققها؟!

تفكيره القاصر لم ينصفه في تحديد هذه الخطوة، يغتاظ، يزفر بشدة .. فها هو يفكر بشكل منتظم، تهتاج أفكاره أكثر، يشوش داخله مثل غابة مشتعلة بنيران عظيمة رغم هطول الأمطار، يضرب سطح المكتب

بقبضة يده، تفزع السكرتيرة، ترتد إلى الخلف مسافة نصف متر، تتساءل عن سبب هذه الحركة الغريبة، يجيبها بهدوء:

ذبابة فظيعة.

يترك المكتب خارجًا، تحاول السكرتيرة بعد خروجه أن تشاهد أي ذبابة في الحجرة، لم تجد.

بعد فترة من الانطلاق في الشارع بلا هدف، يفكر في دخول أحد المطاعم الشهيرة، مكان تجمع ذوي النفوذ، كي يتناول وجبة رغم أنه لم يكن يشعر بالجوع، أراد الجلوس بشيء من العظمة، يخدمه شباب من حملة المؤهلات العليا، يُفضل أن تكون فتاة على مستوى جمال هناء السعيد، أو أكثر جمالًا، يأمرها بما يريد فتنفذ وعلى وجهها ابتسامة عريضة كي ينفحها من عطفه ما يجود به، يقرر إن تحقق له ما يريد وعاد إليه هدوؤه النفسي سوف يجزل العطاء.

يدخل المطعم، تقابله أصوات موسيقى ناعمة، يحاول أن يستشعر لذتها تسير في دمه، يفشل في الوصول إلى هذه المرحلة، يتقدم منه شاب وسيم يرتدي يونيفورم المطعم، يشيح عنه ناحية فتاة تقف بالقرب، يفهم الشاب ما يرمي إليه ممدوح، يتراجع بهدوء مشيرًا إلى زميلته بإيماءة خفيفة، تفهم الفتاة وتستدعي ابتسامة عريضة من أحد جوانب جسدها الملائكي، تقترب من ممدوح بابتسامة عريضة مرحبة، عيناها واسعتان سوداوان تأسر بهما الألباب، تقوده نحو ترابيزة خالية، يود ممدوح لو تمسك بيده لتصطحبه خلفه، فيسير مطأطئ الرأس مطيعًا،

Scanned by CamScanner

لم تمد راحتها لتمسك بيده لكنه يسير خلفها متنسمًا عبيرها، يتأملها من الخلف، يونيفورم المطعم للفتيات عبارة عن بلوزة بلون زهر البنفسج تكشف عن نصف الصدر تقريبًا والذراعين كاملين وميكروجيب أسود يُظهر الساقين حتى أعلى الركبة.

فتاة المطعم كانت تتمتع بجاذبية رهيبة، جسدها المتناسق حيث الصدر المترجرج في هدوء أمواج النيل، ساقان مرمريتان لهما استدارة أبانوسية، يبدو أن من اختار مثل هذه الفتاة للعمل في هذا المكان يتمتع بذوق عالٍ وخبرة واسعة بكل تفاصيل الجمال، قال ممدوح في نفسه:

- جسد مصنوع من ملبن مصهور.

يقرر أن يجزل لها العطاء، فها هي بجمالها تكاد تخرجه من حالته المزاجية غير المعتدلة، تشير الفتاة إلى ترابيزة، ثم تسحب مقعدًا للخلف كي يجلس، لكنه يضع يده فوق حافة المقعد كي يسحبه هو كنوع من الإتيكيت، فلا يصح أن تسحب الفتاة مقعدًا لرجل، هبطت راحته العريضة فوق يدها التي كانت لا تزال فوق حافة المقعد، لم تسحب يدها، يستشعر يدها رقيقة دافئة، يبتسم بسعادة مثل طفل قبل أن يرفع يده كي يتيح لها فرصة استعادة يدها، يُحرك المقعد وما تزال عيناه مثبتتين بعينيها.

يبدو أنه لن يخرج من هذا المكان إلا بعد الهدوء التام، أو قد لا يخرج وحيدًا، يجلس .. وجهه في مستوى صدر الفتاة المزين بسلسلة فضية يتدلى منها حرف S فقال بشيء من الذكاء: سامية؟

تنظر الفتاة إلى الحرف الذي تواري بين ثناياها، تحاول أن تُخفي اضطرابها وهي تجيبه: ليلى.

لم تترك له المجال كي يستفسر عن الحرف، فإن هي أخبرته بأنه أول حرف من اسم حبيبها "سعيد" لاغتاظ وقد يعزف عن البقشيش، هي في حاجة ماسة إليه، إنها هنا تبيع جسدها للناظرين فقط، كي تستطيع أن تتعاون مع حبيبها للتغلب على عقبات الحياة، بادرته متسائلة عما يطلب وهي تسحب "menu" من جانب المنضدة لتقدمه له، يتغاضى عن معرفة السبب خلف هذا الحرف على صدرها، وإن بدا مركزًا ناظريه على الحرف، لقد غاب في قبلة طويلة يلتهم فيها صدرها، يمتص الحلمتين البارزتين خلف هذه الغلالة الرقيقة ..

تسأله الفتاة هل يطلب الآن أم تتركه لحظات؟ يهز رأسها كمن يفيق من حلم طويل وهو يجيبها:

- طعامي اليوم وفقًا لرؤيتك الخاصة .. أثق فيما تختارين لي ..

مثل هذه العبارة كثيرًا ما تقال في هذا المكان ومع الفتيات على وجه الخصوص، هي فرصة لأن يأتي عمال المطعم بأغلى الأطعمة، لن يستطيع الزبون أن يعترض وقت تقديم الشيك مضافًا إليه نسبة مئوية للتعامل وحسن الاستقبال، إنهم يبيعون الابتسامات قبل الأطعمة، تلك الابتسامات التي تؤدي إلى إسعاد الآخرين، باختصار يبيعون السعادة، وكثيرٌ مَن يبحث عنها ليشتري.

Scanned by CamScanner

تتحرك الفتاة لتأتي بما تريد، كي يأكله ممدوح يعقوب، يتنفس ممدوح بسعادة، يمد ساقيه على طولهما، يفرد ظهره إلى مسند المقعد شاعرًا بانتعاش مع قوة تسري في جسده، يتأمل المكان والرواد، فجأة يقع نظره على هناء السعيد..

تجلس على ترابيزة مع رجل آخر يبدو عليه الثراء، تراقب ممدوح منذ دخوله لكنه لم يرها إلا الآن، ينتفض بشدة واقفًا رغمًا عنه، يحاول الجلوس مرة أخرى، لم يستطع أمام هذه النيران التي تصوبها نحوه هناء، يجري خارجًا من المطعم، يعطي الشاب بالقرب من الباب ورقة نقدية مهمهمًا بكلمات يفهم منها الشاب أنه تلقى مكالمة مهمة ويعتذر عن طلب الغداء.

يخرج إلى الشارع يتنفس بصعوبة، لا يدري لما انتابته هذه الحالة، لم خاف هكذا من هناء السعيد، يلتفت خلفه، يتحسس وجهه .. ثم يبطئ من سرعته التي لم يعرف منبعها.

يركن ظهره إلى جدار بين محلين ليستريح، يتابع حركة المارة دقائق كي يخرج من حالته الانفعالية، لكنه لم يستطع، يغيب عن الوجود مغتاظًا، يزداد حنقه، يقرر الانتقام من كل الذين يتصدون له ويكدرون عليه صفوه.

يتذكر ما توصل إليه منذ ساعة تقريبًا، عليه أن يتقدم خطوة كبرى وأن يكون له شأن بين الكبار، تساءل مرة أخرى بغيظ، كيف ذلك؟

يتذكر حسام سعد، زميل الدراسة وصاحب العقلية المستنيرة، لا يدري لماذا تذكر حسام في هذه اللحظات، حسام كان من الطلبة المتفوقين، في الامتحانات يأتي توزيع ممدوح في الصف المجاور لحسام، يستعين به دائمًا للإجابة على أسئلة الامتحانات، في المراحل الأولى من الدراسة تأتي المساعدة من حسام بشكل عفوي وممدوح يكافئه ببعض الأشياء البسيطة كالأطعمة أو الحلوى،حسام يتقبلها نظرًا لحالة الانعدام المادي التي يعيشها بين أسرته.

مع مرور السنوات ووصولهما إلى المرحلة الإعدادية كان حسام يطلب من ممدوح بشكل مباشر بعض المبالغ المالية على سبيل السلف الذي لا يرد، يدرك ممدوح ذلك ويُسر به لأنه سيطلب منه المساعدة في الامتحانات من مركز قوة، في بعض السنوات كان حسام يكتب اسم ممدوح يعقوب على ورقة إجابته وممدوح يكتب اسم حسام سعد على ورقته وبسرعة يجيب حسام على بعض الأسئلة التي تضمن لممدوح درجة النجاح ثم يتبادلان الأوراق خلسة من المراقبين الذين دائمًا ما يتسامرون ويشعلون السجائر بجوار الباب.

في الصف الثالث الإعدادي فعل حسام ذلك فنجح ممدوح ولكن بدرجة تكفي التحاقه بالثانوية التجارية فقط، ثار والده يعقوب عبداللطيف ثورة تحدثت عنها القرية مدة لا تقل عن شهر كامل.

يعقوب صاحب مقهى صغير لا يرتاده غير أربعة أو خمسة أفراد من أهل القرية، ينشدون الدفء والسمر شتاء، يسحبون ما شاؤوا من

Scanned by CamScanner

دخان المعسل من جوزة ذات بوصة طولها متر تقريبًا يصنعها يعقوب بنفسه، يغلقون عليهم باب المقهى ويواربون النافذة لإتاحة الفرصة لنفاذ أدخنة الشيشة.

دائمًا ما يتحدث يعقوب عبداللطيف عن ابنه ممدوح وعن مستوى ذكائه، كل أمله في الدنيا أن يعيش حتى يراه طبيبًا.

عندما حصل ممدوح على درجة النجاح في الإعدادية ليلتحق بدبلوم التجارة وانهار حلم الأب، هاج الأب ووقف وسط الشارع أمام المقهى يسب كل رجال القرية ونساءها ويخص منهم المتعلمين ثم زادت ثورته وتناثر الرذاذ من فمه وهو يسب الحكومة ويلعن وزير التعليم الذي لم يجد سوى ابنه ليضيق عليه بهذا الشكل.

كان ممدوح يدرك جيدًا أنه لن يستطيع النجاح فقط بعدما مر حسام سعد إلى الثانوية العامة، لكنه ينصاع لرغبة والده، يدخل الامتحان العام التالي والنتيجة كانت الرسوب الكامل.

فعل والده ما فعله في العام الماضي وأكثر، اهتاج أمام منزله والتف حوله الناس في حلقة وإن اقترب أحدهم لتهدئته نهره بقوة وجرى خلفه خطوات، في هذه المرة سب الحكومة بأحط أنواع السباب وخص منها وزير التعليم ووزير الصحة، استمر في هذيانه حتى سقط مغشيًا عليه، مرض عدة أيام عاده فيها أهل القرية.

يلتحق ممدوح بدبلوم التجارة، يحصل على شهادة التعليم المتوسط، تلك الشهادة التي لا تتطلب غير إلمام بالقراءة والكتابة فقط.

يتذكر حسام سعد في هذه اللحظات، في المرات التي كان ينزل فيها إلى القرية كان يقابله ويصافحه من مركز قوة، فإن كان هو طبيبًا، فهو سكرتير خاص للوزير، وبالتأكيد ترجح كفة من يحصل على مال أكثر.

نظرات حسام نحوه كانت تستحثه على رد الجميل، لكن ممدوح كان يقابل نظراته بسخرية وهو يستعرض أمامه هو والآخرون علاقته بالسيد الوزير وكيف أن أصحاب المقامات الرفيعة يتمنون صداقته.

الآن شعر بضرورة مقابلة حسام سعد ويعرض عليه كل تفاصيل حياته الجديدة بكل ما فيها يتخذه مديرًا لأعماله وسوف يعطيه راتبًا شهريًا ثلاثة أضعاف ما يتقاضاه في وظيفته كطبيب.

لكن لابد من التروي، لا يجب أن يعرض سرائر نفسه هكذا إلا بعد أن يتعهد له حسام بالحفاظ على أسراره.

ارتاح لفكرة أن يكون له مدير أعمال وأن يكون حسام سعد على وجه الخصوص، يبتسم في بلادة ويشير لتاكسي يعود به إلى شقته الخاصة.

***

Scanned by CamScanner

26

ينقبض أسفلها بشكل لم تعهده من قبل، لقد تذوقت، ومَن تذوق أكثر شوقًا ممن يجهل. كثيرٌ من اللذات تقتل أصحابها طالما كانوا يدركون أنها لذات محرمة، في اللحظة التي تسقط فيها غلالة التحريم يبحثون عنها بشوق العشاق، يحيون بها وعليها وإن كانت تُقدم إليهم من يد شيطان في آنية من نار.

ترفض خضرة زوجة جابر في البداية أن تطلب سيد، سوف يأتي إن أراد، كانت ترغبه لإطفاء نارها رغم كراهيتها الشديدة له ولهيئته القبيحة، مع مرور الأيام وازدياد رغبتها، بدأت تنتظره في النافذة المطلة على الشارع عَله يشاهدها فتغمز له بطرف خفي، تعلم موعد عودته من عمله الجديد، دقائق ثقيلة تمر تمزق فيها شفتها حنقًا، تلعن كل مَن تسبب في وصولها إلى هذه المرحلة.

تشاهده يأتي من بعيد، سيد يطلق صفيرًا ويلقي بكلمات قبيحة على هذا وذاك، يمر بدون أن ينظر نحو خضرة، كأنها نكرة، وكأنه لم يلهث

يومًا بجوار هذه النافذة أو يتذوق شهد ساكنتها، يبدو أنه لاحظ النافذة مفتوحة من بعيد، يلقي بنظره إلى الناحية الأخرى.

تصفق خضرة درفاتها حتى كادت تتحطم، تدور في الداخل مثل نمرة، تقذف بأشياء في الهواء، تحطم كوبًا زجاجيًا عمدًا، تتابع كسرات الزجاج المتناثرة، لا تعلم كيف تحركت لتسير عليها، تثقب قدميها، تتوغل، تسيل الدماء، تكتم صرختها، تبتلعها، تود لو تمسك بشريحة زجاجية وتمزق بها جسدها الذي يرغب في مثل هذا القرد الذي يدعى «سيد» .. كم تكرهه .. تجلس فوق أقرب مقعد لتنزع كسرات الزجاج من قدميها وتجفف الدماء، إنه مَن اقتحم عزلتها، الوحيد الذي استطاع أن يروي ظمأها، لا تعلم كيف تبحث عن آخر، تخشى ذلك وكأن الآخر حرام عليها، خطأ واحد يكفي.

في الأيام الثلاثة التالية تنتظر في نفس التوقيت والمكان وإن كانت أكثر تألمًا بسبب جروح قدميها، و يفعل سيد نفس الشيء، إذن هو يرفضها، كانت هذه طامة كبرى بالنسبة إلى خضرة، قالت في نفسها وهي تضغط على أسنانها غيظًا:

- كلب أجرب أصبح له سعر.

في الأيام التالية أضحت عصبية المزاج حتى إن جابر، زوجها، يلاحظ ذلك لكنه لم يعقب وهو يضمد جروح قدميها، يبتلع هزيمته، يستكين في ركن الحجرة يستمع إلى أنينها، يتركها تمضغ عذاباتها،

Scanned by CamScanner

يأوي إلى فراشه، في الصباح تكون قد هدأت. الحقيقة أن في أعماقها نار مستعرة لم تكن لتهدأ إلا بعد أن تحقق ما تريده، ما تريده شيئًا عظيمًا.

من بعيد، تراقب خضرة سيد في طريقه إلى عمله، تود التعرف الجديد في حياته الذي جعله يلفظها لفظ النواة، تختفي خلف شجيرات أمام المبنى، يمر عليها الوقت ثقيلًا، عدة ساعات لم ترفع عينيها عن مدخل المبنى، تعرضت لأكثر من تعدٍّ لفظي من المارة المعجبون بالجسد ونظراتها الحائرة، لم تهتم، مشاعرها ملتهبة، نيران رغبات جديدة تأججت وهي تتذكره يُطفئ نيرانها في المرات السابقة، هو الأول الذي تذوق الشهد، وللأول سيطرة يصعب الخلاص منها.

تحولت رغبتها في اللذة إلى رغبة في الانتقام إن ثبت ما تخشاه، تشاهد فتيات جميلات يدخلن البناية ويخرجن، لهن ابتسامات عريضة، يبرزن جمال أجسادهن خاصة صدورهن بلا حياء، يسترسل الشعر حتى المؤخرة التي تئن من فرط ضغط البنطلون الجينز أو الليكرا عليها.

تدرك خضرة أن لا واحدة منهن قد تنظر إلى مثل هذا الكلب، رغم ذلك تخيلته معهن في أوضاع الممارسة، تميزت غضبًا، تتحرك يدها تتحسس صدرها، تضغط فخذيها بقوة، لو أن أحدًا توارى بها في مكان ما، لأمتعته .. لأذاقته من صنوف البغاء ما لم يخطر على بال بشر، سوف تنتقم بكل أسلحتها، سوف تنتقم بتفاصيل جسدها.

أوشكت شمس النهار على المغيب، يخرج سيد بصحبة نعمة فتاة الكافتريا، تصرخ خضرة صرخة مكتومة، تابعتهما من بعيد، تسير خلفهما بقوة حتى إنها اقتربت منهما، توقفت لحظة أن شاهدت الفتاة تتأبط ذراع سيد وتلقي برأسها على كتفه، سيد يسير رافعًا رأسه إلى أعلى متشيًا.

يسير في ثياب أنيقة بجوار فتاة على وجهها راحة وسعادة، كم رغب سيد في أن يعيش هذه اللحظات السوية البعيدة كل البعد عن حياته السابقة، يعلم جيدًا أن لو شاهده أحد معارف الماضي من بلطجية مواقف السيارات أو تجار ورواد البانجو، لن يتعرف عليه، فقد تغيرت سحنته، أصبح يغسل شعره كل يوم ويصففه، يحلق شاربه وذقنه، يرتدي حذاءً لامعًا بدلًا من الشبشب أبو صابع.

حتى هذه اللحظة كانت خضرة تحترق من شدة الغيظ لكنها تكبح جماحها، تتمادى الفتاة في إلقاء رأسها على كتف سيد، تكاد تحتضنه، لم تشعر خضرة بنفسها إلا وهي تجري نحوهما، تنتزع الفتاة لتلقي بها إلى جانب الطريق، ثم تنحني حاملة فردة حذائها لتنهال بها على رأس سيد، في حالة هيستيرية كانت، تضرب في كل اتجاه، تسب وتلعن.

لم تستطع نعمة أن تقف على قدميها من هول ما تراه، زحفت، وهي تواري سوءاتها التي ظهرت للحظة حال سقوطها على مؤخرتها، مرتدة إلى الخلف دافعة أشباح بيديها في الهواء، لم تدرك ما يحدث، لزمت الصمت.

Scanned by CamScanner

صُعق سيد من هول ما يحدث، مدة استيعابه للموقف كافية لأن تشبعه خضرة ضربًا في كل مكان تستطيع الوصول إليه .

صدر خضرة ينتفض بشدة من أثر الانفعال، يتناثر الرذاذ من فمها، مع صرخاتها. فيما بعد كانت تتذكر ما حدث بدهشة وبإعجاب من قدراتها التي ظهرت بهذه القوة.

لم يقترب أحد ممن التفوا حولهم في دائرة، يتماسك سيد، يقبض على يديها بصعوبة، يلفهما خلف ظهرها ليشل حركتها، تحاول انتزاع نفسها، تفشل .. ترتخي عضلاتها وهي تكيل له سبابًا وقحًا، حتى استنفدت طاقتها فانهارت باكية.

يأخذها سيد ليُجلسها في أقرب مكان، ينهر المتجمهرين بنظراتهم التي تخترق الأجساد، وشفاههم المدلاة وصدورهم المتحركة بشدة .. فضحتهم رغباتهم، يصرفهم سيد معنفًا بأن هذه مشكلة عائلية.

لم تستسلم خضرة دفعة واحدة، ظلت تدفع يده بعيدًا عنها طالبة منه ألا يمسها بشكل يوحي بالفضيلة، يهمس سيد في أذنها بأن «نعمة» ما هي إلا سبوبة وأكل عيش، إنه لا يستطيع أن يستغني عنها «خضرة» ولا عن لياليها الجميلة، تنهره بشده، تنزع يديها وترتد إلى الخلف وهي تعدل من غطاء رأسها، تقول بلا وعي:

- لا أريدك .. لو رغبتُ .. لركع تحت قدمي أسيادك يا كلب.

تفشل كلماته القليلة لتهدئتها، يعدها بأنه سوف يمر عليها الليلة، لكنها تقف بشموخ، ترمقه بنظرات شرسة، تنظر نحو «نعمة» التي

انكمشت مثل قطة صغيرة فقدت أمها في طريق مزدحم، ما أن تأكدت من أنها تشاهدها حتى التفتت نحو سيد الذي ظهر قبيحًا نتن الرائحة وبصقت في وجهه.

تنصرف خضرة تاركة المكان، باكية حسرة على نفسها التي تدنت إلى هذا المستوى. في ساعات الانتظار الماضية، تخيلت نفسها كأحد الفتيات الداخلات إلى مبنى قناة الأمل الفضائية، تمتلك ما يمتلكنه وأكثر، قررت أن تتحول إلى شكل يتناسب مع قدراتها التي اكتشفتها اليوم.

تعود إلى المنزل، تُغلق حجرتها من الداخل، تشاهد صورة لإحدى النجمات على غلاف مجلة ملقاة في جانب، تخيلت نفسها بدلًا منها على الغلاف، تبتسم، تقرر أن تبدأ أولى خطواتها، ويا لها من خطوات سوف تخطوها خضرة.

***

Scanned by CamScanner

27

المعارك الحقيقة فقط هي التي تُظهر الأبطال من المدعين، المعارك الكلامية، أبطالها لا يحتاجون إلى أسلحة أكثر من مركز في صحيفة ما، قلم يكتبون به ما يشاؤون، مع عدد من المصادر لتسريب الأخبار التي تستغل كسلاح حاد فوق الرقاب، وبما أن الجميع تقريبًا .. تمسهم يد شيطانية .. تجدهم من ضحايا رجل مثل نجيب سالم الذي يمتلك الكثير من المعلومات المهمة، لكنه يستطيع استغلالها الاستغلال الأمثل.

من عادة هذا الصحفي البرلماني نجيب سالم أن يتحدث عن نفسه وعن أعماله مرتديًا زي الأبطال، وإن كانت هذه الأعمال لا قيمة لها،يُضفي عليها هالة كبرى وكأنها السبب في تحريك دفة الأمور في البلاد.

بعد ما تم من اتفاق بينه وبين توفيق مراد، الإشراف على فريق إعداد البرنامج الأسبوعي «البرلمان في الميزان» نجيب يتقاضى أجرًا يفوق

أجر فريق الإعداد كاملًا، لكن ما أثار حفيظة البعض هو أن نجيب سالم لا يقوم بأي عمل على الإطلاق، كل ما كان يفعله هو أن يذهب إليه أحد المعدين بخطة الحلقة كاملة فيقوم بالنظر فيها لحظات، وحتى يجعل للأمر شكلًا مقبولًا يترك هذا المعد جالسًا في السكرتارية لمدة لا تقل عن نصف ساعة بحجة مراجعته للخطة، لم يطلع عليها كاملة أبدًا، لم يضع فيها قلمه من أجل التغيير، في النهاية يقوم بالتوقيع عليها وردها إلى حاملها، أربع توقيعات منه في الشهر مقابل مبلغ يكفي عشرة من خريجي الجامعة الذين يعانون البطالة، غير اسمه الذي يوضع على تترات البرنامج، الأمر الذي يضيف لاسمه بوجه عام دعاية وهيبة.

يتحدث نجيب مع أقرانه عن أن عمله في قناة الأمل الفضائية يعتبر مجهودًا إضافيًا لا وقت عنده لمثله، ثم إنهم يدفعون إليه ملاليم، هو لم يوافق على ذلك إلا إرضاءً لصديقه توفيق مراد الذي أراد بضمه إلى القناة أن يرفع من شأنها في الأوساط الإعلامية، غير أن هناك واجبًا وطنيًا منوطًا به وبأمثاله، يجب أن توجه خبراتهم وثقافاتهم إلى التنوير العام من أجل خلق أجيال قادرة على مواجهة تحديات المستقبل.

يستمر نجيب في الحديث عن ذلك باستفاضة وبألفاظ رنانة، كان متميزًا في انتقائها وصياغة جمل وعبارات تملأ مجلدًا بدون أن تخرج منه بشيء مفيد للمواطن العادي بشكل مباشر.

بعد عدة حلقات بدأ نجيب يهتم بالبرنامج، لقد تقين من أن وجود مثل هذا البرنامج تحت يديه يعتبر أحد الأسلحة المهمة التي يجب أن

Scanned by CamScanner

يستغلها لتحقيق مصالح شخصية كبرى، بدأ يهتم بأسماء الضيوف، يرفع اسم برلماني ليضع آخر، هذه الأسماء غير مفيدة لرجل الشارع إنما هي مفيدة له، منهم من يدفع لنجيب بشكل مباشر أموالًا طائلة.

على رأس هؤلاء البرلمانيين رجل الأعمال «أمجد رزق» الذي لم يكن يبخل أبدًا على نجيب سالم مقابل ما يكتبه عنه في الصحف أو يستضيفه ضمن حلقات البرنامج.

حقيقة القول، استطاع نجيب سالم في فترة بسيطة أن يفرض أمجد رزق إعلاميًا على الجماهير التي تقرأ الجريدة أو تلك التي تشاهد قناة الأمل.

للشرفاء أمانٍ لا تتحقق، من ذلك رغبتهم في أن يكون هناك لقاء على الهواء يفضحون فيه أمجد رزق، لكنه كان حريصًا دائمًا، يطلب أن تكون الحلقات مسجلة، يقرأ الأسئلة قبل الحلقة، إذا حدث أثناء التسجيل وتولدت أسئلة تحاول الكشف عن خبيئة من خباياه، كان يطلب وقف التصوير، يهدد من أمامه بابتسامته الناعمة، قائلًا:

- ليس من صالحك .. أو صالحي سؤال مثل هذا .. سوف يغضب الكبار.

يقول بذلك بينما يغمز بعينيه إلى أعلى، مثل هذه العبارة كانت كافية لقتل آمال الكشف لدى البعض.

أمجد رزق من الرجال الذين يتمتعون بالنعومة والهدوء، أنعم عليه القدر بميزة جاءت عن طريق الصدفة المحضة وهي صداقته لـ «هاني

الغريب» التي تولدت عبر مرافقته له في مراحل التعليم المختلفة «زميل تختة» ويوم أن تولى عبدالقادر الغريب والد هاني أحد المناصب المهمة فُتحت طاقة القدر لأمجد رزق.

رغبة عبد القادر الغريب في أن يؤمن مستقبله ومستقبل ابنه هاني، لكن بشكل لا يثير الشبهات ويحرك الرأي العام ضدهم، جعلته يبحث عن شخص آخر بعيدًا عن المناصب ويكون محل ثقة، هنا يقترح هاني اسم صديق عمره أمجد رزق.

اللعبة بسيطة بالنسبة للكبار، مجرد اتصال تليفوني لرئيس أحد البنوك من السيد «عبدالقادر الغريب» وكانت كما يلي:

- مائة مليون جنيه لصالح أمجد رزق.
- والضمان معالي الباشا؟
- أنا ضامنه.
- أوامر معاليك.. لكن .. إلى متى؟
- حدد أنت المدة ..
- قبل نهاية الشهر..
- يكفي أسبوع .. وتعود الملايين إلى خزينة البنك .. وأي عجز .. رصيدي موجود.
- تمام معالي الباشا، ولن نطلب أرباحًا .. يكفي رضاك عنا.

أغلق الخط بين الطرفين، يفتح مرة أخرى بين مدير البنك وأمجد رزق، يبارك تحويل المبلغ إلى رصيده، دقائق ويتصل أمجد رزق بـ

Scanned by CamScanner

هاني الغريب، كي يُبلغ والده عن تحويل المبلغ، في اليوم التالي يتم طرح شركة الخامات الدولية لصناعات البلاستيك للبيع ضمن نظام الخصخصة.

قيمة أصول الشركة والمنتجات الخاصة بها في المخازن تصل إلى أربعمائة مليون جنية وفقًا لتقدير الخبراء في هذا المجال، لكن عبدالقادر الغريب يقرر أن الشركة تتعرض للخسارة وأنهم لن يجدوا من يشتريها معربًا عن أسفه الشديد، سوف يتم بيع الشركة من أجل الصالح العام.

هنا يتقدم أمجد رزق بطلب لشراء الشركة، مبلغ لا يزيد عن تسعين مليونًا، يعترض أحد المسؤولين على هذا المبلغ الضئيل، يرفض التوقيع على بيع الشركة، يعزله عبدالقادر الغريب من منصبه، يعلن للصحف، بأسى، خبر أن هذا المسؤول قدم استقالته نظرًا لظروفه المرضية المفاجئة، في نفس اليوم تتم ترقية أحد الموظفين المغمورين في أحد فروع المحافظات ليحتل المنصب الذي اعترض صاحبه، يُطلب من الموظف الجديد الموافقة على البيع بالسعر المعروض من أمجد رزق وذلك من أجل الصالح العام ومن أجل الحفاظ على منصبه الذي لم يكن يحلم به.

و لما كان الرجل لا يدرك حقائق الأمور، تم خداعه بأنه من المتميزين الذين يتابعهم المسؤولون منذ فترات طويلة، حتى توفرت الفرصة لتصعيده بهذا الشكل، فقد وقع بالموافقة شاعرًا بأنه أخيرًا

احتل المكان الذي يستحقه، متغنيًا بدوره الوطني في الحفاظ على الصالح العام.

يوقع أمجد رزق بسعادة على أوراق تدينه لصالح هاني الغريب، بعدها يوقع أوراق امتلاك الشركة، في اليوم الرابع يبيع أمجد رزق كمية من المنتجات المخزونة، الخردة، قطعة أرض في أحد الفروع التابعة للشركة، بمبلغ مائة وخمسين مليون جنيه، في اليوم السادس يتم سداد القرض إلى البنك، تظل ملكية الشركة كاملة بالإضافة إلى ستين مليون جنيه لصالح أمجد رزق في العلن، في الخفاء يشاركه هاني الغريب.

لم تستمر أخبار هذه الشراكة في الخفاء، تنتشر أخبارها بين العامة، هذا ما كان يجعل أسهم أمجد رزق في تزايد، يتم تذليل كافة العقبات التي تواجهه، وإن كان عبدالقادر الغريب وابنه ينفون دائمًا صحة هذه الشراكة ويؤكدون أنها مجرد إشاعات. تحولت مع الأيام النسبة الخاصة بأمجد رزق إلى مؤسسة ضخمة، أضيف اسمه إلى قائمة أغنى خمسة رجال في مصر.

بذلك لم يتبق أمام أمجد رزق إلا الظهور في الأوساط السياسية، لم يكن مثل ذلك الأمر بالصعب عليه، هناك أصوات العاملين في مؤسسته، أصوات من يكتب لهم نجيب سالم، تكفي شركته مع هاني الغريب، تلك كافية لجعل رجال السلطة يساندونه كي يصل إلى مكانة متميزة أسفل القبة البرلمانية.

Scanned by CamScanner

أمجد رزق نموذج ممن كان يقدمهم نجيب سالم في برنامج «البرلمان في الميزان» على قناة الأمل الفضائية وكان يستفيد منه بشكل مباشر غير ما يتقاضاه من القناة.

طبيعي أن يسعد توفيق مراد بأن يكون أمجد رزق أحد ضيوف برامج القناة، فكان يستقبله في مكتبه، يبالغ في إكرامه طمعًا في مساعدته في حلمه الذي طالما حلم به، عضوية البرلمان .

***

28

أعداد شاردة، تضل طريق الجميع، تجتمع لتشكل مجموعة جديدة، تخلق لنفسها طريقًا تنطلق فيه، تبحث عن دور جديد، تود لو تعود لتقود الأغلبية وتفرض عليها رغباتها، لكنها تفقد قوة الانتشار، تسري بينهم، ولا يعلمون مَن هو مصدر هذا التسريب، ابحثوا عن قيادة محبوبة بين الجماهير، قيادة لها انتشارها وأطماعها.

مختار محفوظ، في المدينة التي يقيم بها والتي تأخذ الطابع الريفي ولم تتعامل كمدينة إلا لقربها من القاهرة، كان له احترامًا خاصًّا، مكانته الإعلامية جعلت منه ذلك الرجل الذي يسعى إليه الجميع، يتعرفون به ويتخذونه صديقًا إن أمكن، كلماته لها محل في القلوب والعقول حتى وإن كانت مكررة.

مختار يمتلك قدرات ملحوظة على الإقناع، ببساطة يستطيع أن يتخطى الحواجز، يأخذ مكانه في الصدارة باستمرار، يستشيره الأفراد

Scanned by CamScanner

ويحكمونه فيما بينهم، في المجالس العرفية كانت أحكامه تحظى بكل تقدير.

ساعده للوصول إلى هذه الدرجة ما شاهده منه أهل مدينته من قدرته على استدعاء الأحاديث النبوية والآيات القرآنية المؤيدة لوجهات نظره، يحفظ من حكايا السلف ما يقدر بحجم مائة مجلد،يُضاف إلى ذلك حرصه على صلاة الجماعة، ونظرًا لعذوبة صوته فقد أصرت العامة على أن تجعله إمامها، مع مرور الوقت تحول إلى إمام وخطيب يرتقي المنبر لخطبة الجمعة.

يطرح القضايا بأسلوب شيق جذاب بعيدًا عن القالب الممل الذي ينتهجه خطباء الحكومة المعينين، بالإضافة إلى اللغة السليمة التي فرضتها عليه طبيعة عمله، مع اطلاعه على آخر الأخبار والأحداث العالمية بشكل جعله يستطيع الربط بين الماضي والحاضر.

تكونت خلال عدة سنوات، بشكل غير متفق عليه، جماعة لا تزيد عن خمسة أفراد من مريدي مختار محفوظ، مجموعة من العاطلين الذين يرون في الإعلامي طوق نجاة نظرًا لعلاقاته، هؤلاء نصبوه عليهم قائدًا بدون إعلان، ينتظرون بشغف فرصة الجلوس معه، مناقشته في الأمور العامة، اتخاذ رأيه شهادة موثقة يستعينون بها وقت الحجة.

ربما .. ولظروف لا يعلمها أحدهم .. تطورت العلاقة حتى وصلت إلى أحاديث في الشؤون الخاصة، فكان مختار يناقشهم بابتسامة هادئة

تركت في قلوبهم أثرًا جميلًا، تريحهم كثيرًا، ابتسامة كانت نابعة من وضعه بينهم كقائد، يُملي عليهم أفعالهم، يعودون ليناقشوه فيما فعلوه.

تحولت جماعة مختار محفوظ غير المعلنة إلى خلية نشطة لها منهج تسير عليه حيث الاجتماع مع كبيرهم مختار محفوظ كل يوم جمعة بعد الصلاة مباشرة، وصل الأمر ببعضهم أن ينتظر اللقاء بلهفة، يؤجل قضايا مهمة في حياته إن تعارضت مع وقت الاجتماع بالقائد.

القائد .. هذه الكلمة لم تخطر على بال مختار محفوظ مطلقًا، هو يستشعرها كلما التقى بجماعته، كلما زاد مريدوه زادت سعادته. لم يرد على تفكيره ذات يوم أنه قائد لجماعة، أو أن هناك جماعة من الأصل، إلا عندما تحدث إليه أحد الشباب بما قامت به مباحث أمن الدولة في مدينة مجاورة مع مجموعة تماثل جماعتهم هذه، هنا تحرك القلق داخل مختار محفوظ، يرتاب رجال أمن الدولة في أي تجمع، خاصة وإن كان داخل المساجد. هنا ظهرت أمامه الأمور واضحة، إنه يجتمع بمجموعة من الشباب، مع ما مضى من وقت تحول لقاؤهم إلى اجتماع أسبوعي، قد يطلق رجال أمن الدولة عليهم اسم جماعة وهو كبيرهم الذي يعلمهم، وقد يطلقون عليه أمير الجماعة، هو واجهة إعلامية تتابعه العيون، عليه دراسة خطاه بدقة أكثر.

لم يجد مختار بُدًّا من أن يُنهي هذا اللقاء الأسبوعي على عجل، يبتعد عن المسجد أسبوعين متتاليين فجأة، مما جعل الشباب يفتقدونه، يذهبون إليه في منزله لزيارته لعله قد أصيب بمرض، يستقبلهم بفتور

Scanned by CamScanner

ملحوظ، بطرف عينه وعبر النافذة يبحث عمن يتتبع خطاهم، يجلس بضيق وهو يعلل غيابه بالانشغال في العمل، وأنه لن يستطيع أن يتواجد معهم في الفترة المقبلة، أصيبوا جميعا بحالة من الوجوم إلى أن تجرأ أحدهم، كان على دراية بمنهج أمن الدولة، يتحدث عن أن الأمر يحمل رائحة تحذير أو منع مباشر منهم، يرتبك مختار للحظة، لا يستطيع أن يؤكد شكوك هذا الشاب ولا يستطيع أن ينفيها، فهو مهدد من أعماقه، ترك أمن الدولة تحذيراتهم المرعبة بدون كلمة واحدة.

يصمت مختار محفوظ، يفسر الشباب هذا الصمت على أن استنتاج زميلهم صحيحًا، لقد وصل قائدهم تهديدات، يشتعل داخلهم غيظًا، يقسمون على ألا تنتهي اللقاءات، يضيف آخر أن ما يتقاضاه رجال أمن الدولة مقابل تحويلهم حياة المواطنين المسالمين إلى جحيم يكفي لحل مشكلة البطالة وتحويل الشباب العاطل إلى شباب منتج بدلًا من تحوله إلى الجماعات المطاردة .

يتفق الجمع على أن تتم اللقاءات رغم أنف أمن الدولة حتى وإن تطلب الأمر أن تكون في أماكن سرية متغيرة، يقابل ذلك هوى عند مختار محفوظ، يوافق بعدما يُقنع نفسه بأن الأمر عاديّ وبسيط، لم يصل في تفكيره إلى ما وصل إليه الشباب من أنهم أصبحوا جماعة لها أهداف ونشاطات ومنهج فكرى .

فى الشهور التالية، خلال اللقاءات المتعددة، تمت مناقشة جميع القضايا الخاصة والعامة، سرية اللقاءات والطريقة التي كانوا يتقابلون

بها للتضليل الوهمي لرجال أمن الدولة، جعلهم يخوضون في قضايا عامة على رأسها التدهور العام على المستوى الأخلاقي، ظهور طبقة الإقطاع في كافة النواحي وليس الزراعة فقط كما كان معروفًا قبل ثورة يوليو، هذا الإقطاع أعاد للمجتمع ظهور طبقة ثرية ثراء فاحش لا تبالي أبدًا بمشاعر الشعب المطحون، بل تبتكر في سُبل إذلال الطبقات المطحونة عبر مظاهر الحياة المختلفة، سيارات فارهة تذهب بالعقول، ملابس، سهرات، منتجعات لا يسكنها إلا أمثال أمجد رزق وغيره من الأثرياء الذين لا يُعرف أحد سبب ثرائهم الفاحش والسريع.

تحولت تلك اللقاءات إلى متنفس، مثل بركان خامد تتحرك النيران أسفل طبقات الأرض، كانت تتحرك نيران الغضب داخل مجموعة الشباب، الذين وصل عددهم إلى عشرة أفراد، يمثلون الطبقة الدنيا التي تحمل في داخلها أحقاد طبيعية، ولدها استغلال أصحاب رأس المال.

ذلك كان أحد الموضوعات التي حدثهم عنها مختار محفوظ باستفاضة، لو أن أصحاب رؤوس الأموال لم يسلكوا الطرق الملتوية للحصول على أموالهم، لو أنهم أثابوا العاملين لديهم بما يستحقونه فعلًا،بما يكفيهم العيش وسط هذا الغلاء الفاحش، لو أنهم فعلوا ذلك ما ظهرت أبدًا هذه الأحقاد نحوهم.

Scanned by CamScanner

تزايدت النيران بداخلهم لعلمهم أنهم إذا اعترضوا يومًا على ما يتقاضونه من أجور منخفضة سوف تنهشهم مخالب شبح البطالة، فيعتريهم الألم ويقبلون الأوضاع بصمت رهيب.

حول مثل هذه الأمور كانت تدور لقاءات مختار محفوظ مع مجموعته، يسعد مختار بذلك، يمارس عناصر القيادة، يشاهد فيهم أبادي قوية قد يحتاج إليها في يوم ما.

***

29

تغيب شمس هذا اليوم،يحل سكون غريب على ذلك الحي الذي تسكنه «خضرة»، وكأن هناك اتفاقًا غير معلن على قضاء تلك الأمسية في المنازل، حتى إن المقهى يخلو من تكدس رواده المعتاد، تخرج خضرة من منزلها، ترتدي عباءة سوداء مفتوحة تضمها بيدها لتواري بها جلابية خفيفة من تلك التي ترتديها سيدات المناطق العشوائية في المنازل، تسير غير ملتفتةإلى خلف ولا ناظرة في أي اتجاه غير الأمام، وإن كانت لا ترى تفاصيل المكان، الشوارع التي كانت تعبرها، تنطلق فيها بشكل آلي، مشغولة بأمرها عن كل شيء.

بعد فترة تصل إلى محطة الأتوبيس، تقف في منتصفه متعلقة بيدها في قضيب حديدي معلق في الأعلى، لا ترى ذلك المقعد الخالي في المؤخرة، سوف تنزل لتغير الوسيلة بعد دقائق. لم تكن تدرك تلك السيطرة الخرافية التي تسيطر عليها، مقودة إلى أرض جديدة وكأنها مربوطة بسلاسل عظيمة يجرها عشرة جياد.

Scanned by CamScanner

من المحطة العمومية تستقل الميكروباص المتوجه إلى شارع الهرم. الفكرة المسيطرة عليها لم تكن واضحة المعالم، إنما صور مهتزة لا تكاد تمسك بأي من تفاصيلها، رغبة داخلية كانت تسوقها، تركت نفسها طواعية للسير في هذا الطريق الذي تجهله بطبيعة الحال، تشعر بأنها فقدت كل شيء ولا يوجد لديها ما تبكي على خسارته.

تجولت بين محلات شارع الهرم، لم تشاهد ما كانت كانت تراه في خيالها، أين انتشار البغاء في الطريق العام؟ تخيلتْ شارع الهرم ماخورًا مفتوحًا، كل شيء فيه مباح، تشعر بأنها ستجد ضالتها فيه، ضالتها التي تبحث عنها ولا تعرف ما هي بالضبط.

تقرأ على لافتة «ستديو الأهرام» .. يتصادف وجودها دخول إحدى الممثلات غير الشهيرات، لقد شاهدتها في مسلسل ما، لا تتذكر اسمها، بعدها يعبر البوابة مجموعة من الشباب من الجنسين، توجهت نحو البوابة الضخمة للدخول خلفهم، يظهر أمامها فجأة موظف الأمن، الذي يمنعها بحجة أن من دخلوا ممثلون وكومبارس ضمن فريق العمل في الفيلم الذي يجري تصويره حاليًا داخل الأستديو.

تقف خضرة لحظات معقودة اللسان، عقلها ينتفض، تميل على موظف الأمن العجوز، تحدثه في عاطفة يشعر معها أنه أمام إحدى قريباته، تسأله عن كيفية العمل في السينما.

كثير ما كان موظف الأمن هذا يتعرض لمثل هذه المواقف، راغبو المرور عبر بوابته لا يحصون، يتأملها لحظات قبل أن يجيبها في هدوء وهو يجلس فوق مقعده الخشبي ذو الرجل المكسورة:

- الموهبة .. هي الأصل .. (يتأملها) والأهم الشكل العام.

بحكم خبرته الطويلة، يميل نحوها ليحدثها بعاطفة أبوية:

- الممثلة الحقيقية تُظهر كل إمكانياتها ولا تُسلم نفسها إلى أحد، مَن قدموا أنفسهم .. سقطوا .. يابنتي جمهورنا حساس .. يعلم الشريفة من الـ ....

فى طريق عودتها إلى منزلها، تسيطر كلمات الرجل على تفكيرها بشكل كلي، تتناول لقيمات قليلة ثم تصنع النسكافيه لتحتسيه مع تصفحها عدة مجلات فنية من تلك التي كانت تحصل عليها من زوجة مصطفى العامل بقناة الأمل الفضائية، تقرأ أخبار النجمات، لا تعلم كيف قرأت آراء النقاد على أدائهن في أعمالهن الأخيرة،لم تفهم الكثير مما كتبه النقاد الذين يستخدمون ألفاظًا مبهمة توحي بعمق فهمهم حتى وإن عجز القارئ عن فهم المحتوى، في الإجمال تشعر خضرة بصعوبة الأمر.

تزم شفتيها بإصرار، تقبض يديها على أمل عظيم، يسقط اليأس على عتباتها صريعًا، ترى نفسها أفضل ألف مرة من خادمة تحولت إلى نجمة في سماء الفن.

Scanned by CamScanner

يأتي جابر من الخارج، وكأن شيئًا هلاميًا ظهر في المكان، لا تبادله كلمة واحدة، تشعر باشمئزاز رهيب من المكان بكل ما يحويه، من الحارة بأكملها، تأتي له بالطعام، تدخل إلى السرير، تحتضن الجدار، تعلم أن جابر يتأملها من الخلف باكيًا في أعماقه عجزه، تشعر بمرارة في حلقها، تتساءل في صمت، ماذا لو طلقها منذ اكتشافه عجزه التام؟ يخشى على صورته أمام الناس ولتذهب هي إلى الجحيم؟

تتصنع الاستغراق في النوم، تلقي بتفاصيل حياتها مع جابر إلى ركن بعيد من حيز التفكير في رأسها تاركة المساحة الأكبر لما تود الإقدام عليه، كيف تُظهر قدراتها الخاصة، الموهبة التي حدثها عنها موظف الأمن، بطريقة جذابة، بشكل يُمَكّنُها من الحفاظ على نفسها وعدم الانزلاق إلا عند الضرورة القصوى، نعم قد تنزلق، لكن يجب أن يكون لضرورة وبمقابل عظيم، فإن كانت قد انزلقت لتسقط تحت أعتاب «سيد» فهل لا تنزلق هناك .. في القمة ..

القمة .. تردد الكلمة في عقلها الملتهب، تشاهد نفسها في أحلامها بين نجمات الفن، ترتدي ملابس تكشف عن أجزاء كبيرة من جسدها.

تستيقظ في اليوم التالي وقد شعرت بصداع يكاد يفتك برأسها، صنعت النسكافيه لتتناوله قبل أي شيء، تجلس بجوار النافذة تطل على حركة الشارع الصباحية وإن كانت لا ترى شيئًا، تسيطر عليها فكرة واحدة، وسوف تظل تسيطر عليها سيطرة تامة خلال الأيام القادمة، طريق النجومية، بدأت تقف أمام المرآة بملابس مختلفة، أقمصة نوم

شفافة، تستعرض جسدها، تقلد حركات معينة، تستدعي مشاهد تقوم بأدائها، تُسرع إلى قنوات الدراما، تشاهد أداء الممثلات ثم تقوم بنفس الأداء مباشرة، تدريب عملي يستغرق منها عدة أيام.

تقوم، مع سيدات الحارة، بعمل «جمعية» شريطة أن تقبضها أولًا، في الأسبوع التالي تجمع مبلغ الجمعية على ما معها من مال وتعقد العزم.

بعد انتصاف نهار هذااليوم، تخرج خضرة مرتدية العباءة السوداء فوق جلابية المنزل، تستقل سيارة أجرة إلى وسط البلد. تتجول بين المحلات حتى يستقر رأيها على فستان في الفاترينة يكشف عن بعض أجزاء الجسد، تدخل المحل، تطلب معاينته، قُوبل طلبها بدهشة، يُصعدها العاملون بالمحل بنظرات لم تضايقها كثيرًا، لم تكن في حالة نفسية تستشعر من خلالها المغزى خلف هذه النظرات حتى إن إحداهن طلبت رؤية المال، ثمن الفستان، قبل أن تأتي به، تستخرج خضرة رزمة المال بابتسامة شماتة، تصمت العاملة وهي ذاهبة إلى الداخل لتأتي بالفستان، تهمهم بكلمات غير واضحة، يبدو أنها كانت تُلقي بتهمة السرقة نحو خضرة، لكنها لم تجرؤ على الإفصاح بذلك، تأتي بالفستان.

تدخل خضرة منتشية إلى حجرة تجربة الملابس، تشاهد نفسها في المرآة محاطة بذلك الثوب الرائع، لقد تحولت تمامًا، كأن عصا سحرية قد غيرتها من خضرة إلى نجمة حقيقية، يعلو صدرها ويهبط

Scanned by CamScanner

برفق علامة قناعتها بما تفعله، يعجبها شموخ صدرها، ترفعه أكثر كي يُظهر نهر دقيق بين شاطئين لدنين.

حقًّا كانت تشعر في داخلها بسعادة حقيقة، ذاك ما أثارها، كانت تتخيل أنها سوف تتعثر في ثوبها من الخجل، لكن ها هي الطاقة تشتعل بداخلها، طاقة جبارة، قوة خفية تأخذ بيدها لتدهس بها كل من أهملوها، قوة تجعلها تتخطى في فخر وخيلاء كل من لم يُقدر إمكانياتها، تأملت نفسها في المرآة شاردة إلى أن أعادتها فتاة المحل إلى أرض الواقع وهي تخبرها أن مقاس الفستان مضبوط ولكن ..

تتساءل خضرة عن «ولكن..» هذه، تجيبها الفتاة بأن جمال الفستان لن يظهر هكذا، يجب أن تذهب إلى محل كوافير لعمل تسريحة شعر مناسبة، بالإضافة إلى مكياج كامل، ثم لابد من شراء حذاء وشنطة يتناسبان مع الفستان.

تخرج «خضرة» وعلى ملامح وجهها علامات جديدة دالة على ما يعتمل بداخلها من إصرار غريب على أن تتغير حياتها تمامًا،حتى إن سُئلت في هذه اللحظة عن اسم الحارة التي تسكنها، لن تقدم الإجابة، لن تُخفي اسم الحارة عن استنكار أو خجلًا، إنما هي بالفعل تاه عقلها وتناسى مرغمًا، أمام رغباتها، معظم تفاصيل ماضيها. مذهولة كانت .. متعلقة بمستقبلها بدرجة تكاد معها لو تفقد ذاكرتها، وقد أوشكت على ذلك، ما كانت تستطيع تذكر شيء إلا بعد تركيز شديد يحتاج إلى جهد عقلي ليُبعد سيطرة اللحظة كي يصل إلى ذلك الأمر من الماضي.

تحمل الفستان في يدها، تتوجه إلى محل آخر في الجوار لشراء حذاء وشنطة يد، بعد لحظات تخرج متنشية مثل عروس سوف تزف في الغد، تدخل أول محل كوافير يصادفها.

تغيب داخل المحل ما يزيد عن الساعة، إلى أن يُفتح الباب الزجاجي المغطى بصورة لفتاة رائعة الحسن، تخرج خضرة من هذا الباب، الآن هي مخلوق آخر، حتى إن عددًا من الشباب الذين يتجولون بلا هدف قد وقفوا مأخوذين أمام هذا الجسد اللامع، الشعر الطويل المسدل، الشفة السفلى البارزة قليلًا طالبة في استغاثة الالتهام، وإبراز الشفة السفلى طريقة علمتها لها صاحبة الكوافير، التي مارست أمامها دور المعلم لتضمن ولاءها لها وللمحل. كل جزء من جسد خضرة تحول إلى كيان مستقل يلفت الأنظار.

تشاهد ردود أفعال المارة في سعادة جعلتها أكثر ميوعة وبالتالي أكثر جاذبية، تختار سيارة أجرة حديثة، بهدوء شديد ورقة ملحوظة تجلس في المقعد الخلفي، تشير إلى السائق بكلمات ناعمة «ستديو الأهرام»، من النافذة تلقي بنظراتها إلى الطريق تتابع حركة المارة، الآن تدرك أنها ترى العالم من حولها بشكل مختلف تمامًا عما كان عليه في الصباح، تشاهدة الآن عبر ردائها الجديد، وعينيها المحاطة بمساحيق مختلفة الألوان، تنظر عبر نافذة سيارة يقودها سائق مطيع يتوجه ناحية «ستديو الأهرام».

Scanned by CamScanner

يظل سائق التاكسي يحملق فيها عبر المرآة العاكسة، يحاول تذكر اسم المسلسل الذي شاهدها فيه. كانت تشاهد نظراته المصوبة نحوها حال توقف السيارة في الزحام، تبتسم في هدوء، تدير وجهها إلى السيارات المجاورة، تلحظ بسعادة أصحاب السيارات الفارهة وهم يشيرون لها إشارات تعني أنهم على استعداد لاستضافتها في سياراتهم الخاصة بدلًا من التاكسي.

لم يفلح سائق التاكسي في تذكر اسم المسلسل الذي شاهدها فيه من قبل، لكنه متأكد من أنه شاهدها في أكثر من عمل فني، هي بهيئتها تلك وباسم الجهة المتوجهة إليها فنانة .. لا جدال في ذلك. يستغل التوقف في إشارة ميدان الجيزة، يسألها عن أدوارها في السينما والتليفزيون، يطلب منها أن تغفر له نسيانه، ضغوط الحياة وطلبات أم العيال جعلاه ينسى نفسه، تبتسم في دلال وهي تجيبه بأن الأدوار كثيرة وفي المرحلة المقبلة ستكون أكثر.

يتوقف التاكسي أمام ستديو الأهرام، تتوجه خضرة إلى البوابة، تنتظر أن يخرج أحدهم ليسألها عن وجهتها ويمنعها في حال تلعثمها في الإجابة، لم يمنعها أحد، تعجبت .. لم تدخل وإنما تحولت إلى موظف الأمن، تسأل عن سبب عدم منعه لها، يجيب بدهشة:

- لماذا أمنعك يا أستاذة، تفضلي.

يقول كلماته مرتبكًا، يعتقد أنها تنصب له شركًا ما، هي مؤكد آتية لعمل فني كبير من الأعمال التي يتم تصويرها بالداخل. تضحك بدلال، لم يتعرف عليها، تميل نحوه هامسة:

- لقد منعتني من الدخول منذ أيام، كنت أرتدي عباءة سوداء.

يتأملها لحظات، يتذكر، يتفرسها بدهشة حتى إنه يدور حولها بشكل لا إرادي متمتمًا بعبارات مبهمة، لحظات ويعود إلى هدوئه، يتذكر ما قاله لها في المرة الماضية، يعيده عليها، تقاطعها لتُكمل له لكماته السابقة التي حفظتها «جمهورنا حساس .. يعلم الشريفة من الـ ...» ثم تعقب بابتسامة عريضة تحوي حنينًا إلى أب افتقدته منذ سنين:

- أتذكر كلماتك .. أتذكر يا عم؟
- أمين .. أمين يا ابنتي.
- لا تخف عليَّ يا عم أمين.

يحدثها الرجل كثيرًا، لم يبخل عليها بخبراته وتجاربه، سنوات طويلة يحرس هذه البوابة التي عبرتها مئات الفنانات، منهن مَن صعدت إلى سماء الفن ومنهن مَن هوت إلى الحضيض، في النهاية يوجهها إلى بداية الطريق، في الداخل تسأل عن «علي الضبع» الريجيسير التابع للفيلم الذي يجري تصويره حاليًا.

يقف الضبع ناظرًا إليها برغبة صريحة، رغبة لم تمنع عينيه من الغمز الذي تعود عليه مع أمثالها، يكبت رغبته ملتزمًا بقليل من الهدوء عندما تخبره بأنها على صلة قرابة بعم أمين موظف الأمن، لم يصرف نظره

Scanned by CamScanner

كليًا عن التهامها، إنما يؤجل ذلك إلى حين، بسرعة يفكر في ترشيحها إلي دور كومبارس صامت يشاهد فيه مؤهلاتها الجسدية.

يبتعد عنها لحظات، يتحدث مع المخرج بهمس وهو يشير نحوها، كانت ترقبه بابتسامة جعلتها خجلى. يشير إليها «الضبع» .. توجهت نحوهم بدلال، يسألها المخرج عن اسمها وعن سابق خبرتها في المجال، ولما كانت صفر في هذا المجال، يوافق المخرج على أن يسند الدور الصامت إليها، مَن هن على دراية يحاولن في مثل هذه الأدوار أن يظهرن قدراتهن الفنية والتي تخرج عن الطبيعية التي يريدها المخرج، أما خضرة فكل المطلوب منها هو التواجد بجسدها فقط.

يستدعي المخرج مساعده، يطلب منه تدريب «خضرة» على دور فتاة ليل تلتقي بمسؤول كبير في شقته الخاصة، يبدأ المشهد في لحظة كان يداعبها فيها قبل أن تضبطهما زوجته في الفراش فتأخذ خضرة ملابسها وتهرب.

الدور صامت إلا من بقايا ضحكة خليعة، يشرح لها مساعد المخرج بأنه ستكون هناك موسيقى في الخلفية يتم تركيبها في عملية المونتاج، لم تشاهد «خضرة» تلك الفتاة التي كانت تستعد للقيام بهذا الدور وهي ترحل عن المكان مغتاظة، هي بالفعل أقل منها جمالًا.

تسير الأمور على خير وجه، لم تشعر بهذا الارتباك الذي كانت تشعر به مع «سيد» خوفًا من وصول زوجها في أية لحظة، تظهر بشكل معقول في البروفات، يوافق المخرج مع بعض الإرشادات كان أهمها أن تتجاهل الكاميرا وطاقمها، هي والمسؤول فقط.

يبدأ المشهد، تجري الأحداث كما هو مطلوب بالضبط إلى أن تصل زوجة المسؤول، هنا كان من المقرر أن تهرب خضرة أمام هجمات الزوجة، لكن خضرة، وبدون وعي منها، وجدت نفسها مغتاظة، شعرت وكأن هذه السيدة هي السبب في خروجها من الفيلم، لم تهرب وإنما تواجهها صارخة بتلقائية:

- له حق يبحث عن غيرك يا «عقربة».

تظهر الدهشة على الوجوه، لم يُوقف المخرج التصوير، يشير بالاستمرار، يتركها تتمادى، تنقلب دهشة الممثلة، التي تقوم بدور زوجة المسؤول، إلى حنق، من الناحية الفنية يجب أن تختفي هذه الفتاة سريعًا من المشهد لتحتل هي الصدارة، ما يحدث الآن هو أن الفتاة تقف لتسرق الكاميرا منها، ثم إنها تسبها بلفظ «عقربة».. إن كان هذا خارجًا عن النص فهو تعبير عن شعورها نحوها.

الدماء تتدفق إلى رأسها بسرعة، لم تشعر بنفسها إلا وهي تحمل فردة الحذاء وتهجم بها على خضرة التي لم تجد بُدًّا من الدفاع عن نفسها بينما يقف الممثل الذي يقوم بدور المسؤول بملابسه الداخليه في الخلفية مذهولًا يتابع الصراع.

الصورة طبيعية جدًّا بعيدة عن أي تكلف، هذا ما شعر به المخرج فكان سعيدًا بما يحدث، عندما يميل مساعده ليهمس في أذنه يشي له علامة الصمت.

يستمر الصراع لحظات بين السيدتين، بين دهشة الحضور وكبتهم الابتسامات والضحكات يصل الصراع إلى حد التشابك بالأيدي

Scanned by CamScanner

وجذب شعر الرأس، بعد لحظات تطير قطعة أثاث في الهواء ضلت طريقها إلى خضرة وتوجهت نحو الممثل الذي يقوم بدور المسؤول، يجري الرجل ليتفادى القذيفة الموجهة نحوه بشكل كوميدي قافزًا فوق ترابيزة صغيرة وهو يصرخ في تلقائية «إلحقيني ياله» هنا يهتف المخرج بكلمته الشهيرة

- Stop ..

يتدخل مساعد المخرج و«علي الضبع» لفض الاشتباك بين السيدتين، إنها حقًّا كانت معركة نسائية مكتملة العناصر، كشفت عن أمور لم يتطرق لها النص ولم يكن المخرج قادرًا على استخراجها من جوهر الممثل.

تعترض الممثلة، ترفض عدم طبع هذا المشهد وإلا فلن تستمر في هذا الفيلم، لكن المخرج يستطيع إقناع المنتج بأهمية هذا المشهد وطبيعيته، الأمر الذي قد يضع العمل في مكانة مرتفعة وخصوصًا في المهرجان القادم.

تستمر المحاولات لمدة ساعة، يستطيع خلالها المنتج إقناع الممثلة، حجته في ذلك أن المشاهد يرى ذلك كجزء من التمثيل وهو جانب فني يضاف إلى قدراتها ويرفع من قدرها.

يقترب صحفي شاب، كان قد تلقى مكالمة تطلب وصوله سريعًا لوجود «أخبار ولعة»، من المخرج يسأله عن تفاصيل الخناقة، يبتسم المخرج وهو ينظر نحو «علي الضبع»، يتحدث إلى الصحفي بعبارات

عامة من أن ذلك كان في النص، وكل ما هنالك أن الممثلين اندمجوا قليلًا، يشير نحو خضرة قائلًا:

- ممثلة جديدة من اكتشافي، اسمها لوليا عزام، لها مستقبل كبير.

لم يقتنع علي الضبع بالأخبار التي وصل إليها الصحفي، ينتحي به جانبًا، يسرد له بحماس كل التفاصيل، يتحدث عن خضرة «لوليا» بأنها ستكون قنبلة الموسم، يضيف أنه قد تلقى أكثر من مكالمة من عدد من المخرجين يطلبونها في أعمال فنية، ثم يتيح الفرصة لهذا الصحفي لأن يلتقط لـ «لوليا عزام» عدة صور في أوضاع وملابس مختلفة، معظمها مناظر ساخنة.

بطبيعة الحال هناك خلف تصرف «علي الضبع» أكثر من دافع، أولًا أن يحظى بمكانة عند «لوليا» وهي في بداية الطريق، أما الدافع الأكثر أهمية هو أنه لا يحب الممثلة التي كانت تقوم بدور زوجة المسؤول، إنها لم تقدره ماديًّا ذات يوم، كان يتصل بها تليفونيًّا أكثر من مرة للتأكيد على موعد ومكان التصوير شأنها في ذلك شأن كل الممثلين، ينفحونه بأموال هي دخله الأساسي الذي يعتمد عليه في معيشته، إلا هذه السيدة لم تكن تعطيه شيئًا أبدًا، وإن طلب منها بشكل مباشر عاملته بتعالٍ، تخبره بأنها لا تحمل مبالغ مالية من الفئات الصغيرة، مثل هذا الأمر يترك داخله بُغضًا مستمرًّا، تأتي الفرصة لينتقم منها، يتحدث بسعادة تحتوي على شماتة داخلية. يتقبل الصحفي حديثه فهو سبق صحفي فني مصحوب بصور مثيرة.

Scanned by CamScanner

في الأيام التالية تشهد الصحافة الفنية أخبار النجمة الصاعدة «لوليا عزام» التي لم تعد إلى منزلها منذ ذلك اليوم الذي خرجت فيه مرتدية عباءة سوداء، لم تعد «خضرة» .. بداخلها لم تعد زوجة جابر، بدأت أولى خطواتها على الطريق الذي حلمت به.

***

30

تصفو السماء، تنير الشمس الكون بأشعتها الذهبية الحانية، تلهو الطيور فوق الأغصان، تحمل النسمات روائح الزهر والبحر، تتعانق آيات الجمال لتبث في روح عُشاق الكون بقوة لا نهائية، بقدرات على رؤية الصورة الكونية الخفية التي يكشفها الخالق أمامهم.

لم يأتِ على خاطر فؤاد هاشم ذات يوم أن يُمسك بالقلم ليكتب قصة، أو أي فرع في المجال الأدبي، لكنه اليوم أمسك بالقلم ليسطر عدة صفحات، يصوغ قصة قصيرة، يخامره شعور بأنها تحمل صفات العمل الأدبي المتميز، لكن شعوره لم يصل إلى مرحلة الراحة الكاملة، إنه بطبيعة الحال يفتقد إلى الثقة الكاملة بالنفس، أضف إلى ذلك أن هذا الحقل يعتبر جديدًا عليه، لم يَحُبُ على طرقاته من قبل.

قصته القصيرة تحكي جريمة سرقة، يقوم بها فتى قد خرج لتوه من أحد ملاجئ الأيتام، يبحث عن عمل لكن المجتمع يلفظه، تتحد ضده الأحداث حتى تعترض طريقه سيدة عجوز، يعرف منها أنها تعيش وحيدة في منزلها، تخرج مرتين في الأسبوع تقريبًا لزيارة أماكن عامة

Scanned by CamScanner

لـم تذكرها له، يتحين الفرصة، يدخل إلى شـقتها بغرض السـرقة، يُقنع نفسـه بأنه شـاب في مقتبل العمر، يحتاج إلى المال، أما هي فعجوز في نهاية الطريق، بعد البحث يعثر على شـنطة من البلاسـتيك تحوي مبلغًا ضخمًا، صراع داخلي بين رغبة ورهبة، لم يحلم بمثل هذا المبلغ.

في النهاية يسـتقر رأيـه .. يحمل المال ويخرج، لا يـدري فعلًا ماذا سيفعل بهذا المبلغ الضخم الذي لم يستطع حصره، وصل في العد إلى رقم كبير، يزهد في حصر المتبقي.

يتخبـط .. تتداخـل خطوط الرؤية أمـام عينيه، تتوه منـه الأفكار، لم يهتـد إلـى قرار، في اليـوم التالي، في الطبعـة الثانية للجريـدة يقرأ خبرًا تحت عنوان «سـرقة مبلغ كبيـر من منزل فاعلة خيـر» .. تفاصيل الخبر تحكـي الحادث، وأن هـذا المبلغ قد أعدتـه هذه السـيدة للتبرع به إلى ملجـأ «الخيـر والبركـة» للأيتام، يُصعـق الفتى، هو نفـس الملجأ الذي تربـى فيه، يتذكر أيامه هناك، كيف كان يقضي الليالي سـاهرًا في انتظار زيـارة أهل الخيـر بما يحملونه من مأكولات وألعـاب، لقد حرم أطفال الملجأ من مبلغ ضخم، تخيل كم الرعاية الذي سـيحرمون منه بسـببه، يتألـم .. يقـرر أن يعيد المبلغ إلى مكانه، يكتـب خطابًا يعتذر فيه، يضع خطابه قليل الكلمات داخل الشـنطة، ينتظر حتى تخرج السـيدة، يدخل الشقة، يعيد المال.

بعـد أيام من التحري يلقي رجال الشـرطة القبـض عليه، يتم تقديمه إلـى المحاكمـة وقبـل النطـق بالحكـم تظهر السـيدة العجـوز، تطالب القاضـي بتبرئته خصوصًا أنه أعاد المال، أيضًا هي المرة الأولى، يجب ألا يوضـع هـذا الشـاب الواقف علـى حافـة الهاوية مـع المجرمين في

السـجن فيتحـول إلى مجرم، إنما يجب أن يخـرج، أن يجد حياة كريمة بانتظاره، فرصة عمل بأجر مجزٍ.

هنـا تنتهي القصة التي كتبها فؤاد هاشـم، أول من عرض عليه قصته كانـت زوجته التـي قرأتها ولم تعقـب إلا بكلمة واحـدة «حلوة» .. في صمـت يحمل أوراقه، يقرر ألا يسـألها رأيها مـرة أخرى، يعرضها على صفاء هلال التي قرأتها في حالة من التأثر الشديد، انفعالاتها تظهر على وجهها.

يراقبهـا من بعيـد حتى تنتهي، بخطى هادئة تتوجـه ناحيته كي تعطيه الأوراق، تعلـق فـي البدايـة علـى أن الأسـلوب شـيق جعلهـا لا تتـرك الأوراق حتـى النهاية، اختياره للألفـاظ مثالي، معبر عن الأحداث التي تحكيها القصة، إنها بلا شـك جميلـة، تدعو للفضيلة، تُنهي حديثها بأنه يجب عليه أن يرسـل هذه القصة إلى أحد الصحف التي سـوف تنشرها فورًا.

ينمو بداخله حماس رائع بعد هذا الرأي، لكن شـجاعته لم تصل به إلى حد أن يرسلها إلى جريدة، يقرر أن يحاول ويكتب قصة أخرى وإن نجح فقد يكون له نشاط في المجال الأدبي.

في الأيام التالية، فؤاد هاشـم مشغول البال، كثير الشرود، لم يستطع أن يتعرف على السـبب المباشـر لشـروده هذا، يذهـب الهدوء ويعتمل داخله بأشـياء سـوف يعلم مسـتقبلًا أنها صراعات فكرية تسبق مخاض الفكـر لـدى الأدباء، يتوجه كلية إلـى عمله في إعداد حلقـات البرنامج حتى إنه يحرز نجاحًا ملحوظًا يثني عليه توفيق مراد ذات يوم وهو قليل الثناء.

Scanned by CamScanner

تـراوده أحلام بدت مفزعة في البداية لكنه تعودها بعد فترة، الغريب الـذي أثار انتباهه أن هذه الأحلام تدور حول فكرة واحدة وإن اختلفت تفاصيلها، أحلامه كانت مريعة.

دائمًا يكون قد ارتكب جريمة، يقتل شخصًا ما، لا يتعرف عليه أحد، تـدور الأحـداث حوله بحثًا عن الجاني، لا يشـك فيه أحد، لكنه يشـعر برعب يكاد يشـير نحوه، يصحو من نومه فَزِعًا، يدرك أن ما يعانيه ما هو إلا حلم،يعود إليه هدوؤه وإن كان داخله لا يزال متوترًا بعض الشـيء، يبحث بداخله عن الأسباب الدفينة في العقل الباطن المؤدية لمثل هذه الأحلام، يفشل في العثور على الرغبات المكبوتة التي قد تولد ذلك.

يستشـير أحد الأطباء في الطب النفسي وهو ضيف دائم على القناة، يُطمئنه، ويُرجع أسباب مثل هذه الأحلام إلى الخوف الدائم من الوقوع فـي الخطـأ أيًا كان نوع هذا الخطأ. حقًا إن الإنسـان لا يدري بحال ماذا يكون غدًا، فقد تؤدي به الأيام إلى مصير مجهول، كم من مسالم تحول إلـى مجرم في لحظات حيـث أجبرته الظـروف أن يتواجد في مثل هذا الموقـف، الرغبة الداخليـة لعمل الخير تجد صعوبـة دائمة في الابتعاد عن الشر وهذا الخوف ما قد يظهر في الأحلام.

بعد أن يطمئن فؤاد هاشـم لهذا التفسير، يبتسم في راحة، يبدأ بعدها مرحلـة جديـدة، يركـز في تفاصيـل أحلامه لعلـه يخرج منهـا بأحداث تصلح لعمل أدبي في المستقبل، ذلك المستقبل الذي سيتغير تمامًا في القريب.. القريب جدًا.

***

31

في مجتمعنا تنتشـر الشـائعات انتشـار النار في الهشـيم، وكلما زاد هشـيمها زاد أوارهـا، وبمـا أن الناس لدينا يحترفـون الكلام والخوض في الأعراض فإن الشائعات تجد أرضًا خصبة تتسع رقعتها باستمرار.

الغريـب أن الشـائعة علـى قدر انتشـارها فإنها تتوقـف قبل أن تصل إلـى صاحبها، تدور حوله مسـببة له العديد مـن الأزمات بدون أن يعلم عنهـا شـيئًا، ذلك أن الأفراد قد لا يرغبـون أن تظهر الحقيقة التي تقضي على حطب متعتهم، وصول الشـائعة إلى أصحابها سـيؤدي إلى ظهور الحقيقة فتنتهي متعتهم.

هذا تقريبًا ما حدث مع هناء السعيد، كان كل من في القناة يتحدثون عن زواجها العرفي بتوفيق مراد، لكن هي وتوفيق لا يعلمان.

هناء تشاهد نظرات العاملين نحوها في ازدياد مستمر، تفسرها على أنهـا نظرات إعجاب فتبتسـم ولا تعقب، أما النظرات نحـو توفيق مراد كان معظمها نظرات حقد وحسد، ذلك لأنه الذي استطاع أن ينعم بهذا

Scanned by CamScanner

الجسد ويحتويه. مثل هذه النظرات يدركها توفيق جيدًا ويسعد بها، يدركها لأنه دائمًا يرى أنه في موقع ومكانة يحسده عليها الآخرون، في هذه المرة يفسر هذه النظرات الحاسدة والحاقدة لانفراده بهناء السعيد باعتبارها نظرات خاصة بمنصبه أو بالصفقات التي يعقدها ومن شأنها أن ترتقي به درجات أخرى.

تتعامل هناء مع الأمر على أنه إعجاب حتى اليوم الذي يطلبها فيه توفيق مراد إلى مكتبه ليخبرها بأنه بذل مجهودًا كبيرًا حتى يستطيع أن يحصل على موافقة مجلس الإدارة لترقيتها إلى منصب مدير عام الإدارة التي طالما حلمت بها، كان قد وعدها قبل بداية الحلقات مع السيد الوزير.

يصدر قرارًا بترقية مديرة الإدارة السابقة إلى منصب آخر، وهو منصب شرفي أكثر منه إداري ثم تعيين السيدة هناء السعيد كمدير عام للإدارة بدلًا منها .

سعادتها غامرة كانت، تشعر برغبة حقيقية في التحليق عاليًا بجناحين من الورود المخملية ذات الألوان الزاهية، آي السعادة تظهر على وجهها، تزداد حسنًا وجمالًا، يغزو ألقها توفيق، يتمنى لو يحتضنها لينال من فيض سعادتها الكثير، لحظة النشوة التي تقارب السكر لن تتكرر، لكنه تماسك وقرر أن يستغل الموقف.

يُقدم لها مشروبًا مثلجًا، يجلس متخذًا سيماء القادة، يتحدث طويلًا عن أن هذا المنصب تكليف لا تشريف، مسؤولية كبرى يُدرك أن هناء

على قدرها. هناء تعلم أن حديثه لابد منه في مثل هذه المواقف وإن كان لا يتم تنفيذه أو يُدرك منه جزء ولو يسير. تؤكد صحة كلماته، سوف تبذل الجهد الذي يرتقي بالإدارة كاملة في الفترة المقبلة.

ينتقل توفيق إلى الخطوة التالية، أيقن أنها وصلت إلى ذروة سعادتها، عجينة سهلة التشكيل، يطلب منها احتفالًا خاصًا بمناسبة ترقيتها ويكون ضيف الشرف أمجد رزق.

تصمت هناء للحظة مفكرة، يبدو أن توفيق مراد يريد التقرب من أمجد رزق الذي علا نجمه في الآونة الأخيرة، لكن هل ستستفيد هي من ذلك؟ بالتأكيد .. فإذا استطاعت أن تتخذ من أمجد رزق صديقًا، مع الأيام تتقرب من هاني الغريب ابن عبدالقادر الغريب، وقتها فقط سوف تحقق ما تريد.

تماسكتْ ولم تُظهر انفعالاتها، ترسم على وجهها علامات ضيق بسيط وهي تسأل توفيق عن سبب ذلك!! يجيبها في هدوء ماكر:

- أمجد رزق أحد كبار الضيوف على القناة ولابد أن يُدعى إلى حفل سوف يضم كل العاملين بالقناة وهو أمر لاشك سيعطي الحفل ثقلًا واعتبارات أخرى ستقضي على آمال الطامعين في المنصب.

هذا التلويح الأخير بآمال الطامعين ما جعل توفيق يعتقد بأنه الأمر الذي سيجعلها توافق مباشرة، لذا غمز بعينه اليسرى، تأملته هناء وتنفست بهدوء ثم وافقت على مضض لتشعره بأنها سوف تفعل كل ذلك من أجله.

Scanned by CamScanner

تخرج من عنده، تنطلق إلى مكتبها والسعادة تغمرها، دقائق وينتشر الخبر في القناة، تتوافد الجموع لتهنئتها في مكتبها، تتصنع الدهشة في بداية الأمر وأنها فوجئت بهذا القرار، عملها كمذيعة هو شغلها الشاغل ولا تحتاج مطلقًا إلى هذا المنصب الإداري الممل.

على جانب آخر، فوجئ الجميع بهذا القرار، على رأسهم مختار محفوظ الذي يرى نفسه أحق بهذا المنصب من أي فرد آخر في الإدارة، بل كثيرًا ما كان يتعامل من هذا المنطلق، هذه الأماني كان يعيش عليها وكأنها وقود الحياة بالنسبة له، أما اليوم أصيب بخيبة أمل رهيبة، ترتسم على وجهه ابتسامة باهتة لا تحمل معنى محددًا، بعد فترة يتوجه إلى هناء مهنئًا.

تصافحه هناء بأطراف أصابعها وهي تعقب بأمنيتها له بمثل هذا المنصب في المستقبل، فهو من الكفاءات في القناة. تنزل عليه الكلمات كسيف حاد يحصد مشاعره الخضراء ويتركها تجف مع الأيام وتتحول إلى هشيم يحترق مع أدنى حرارة انفعال.

يرى هناء أقل منه على كافة المستويات، اليوم تتعامل معه من منصبها القيادي وتُثني على قدراته!! يتعجب، يندهش، يغتاظ، يشتعل داخله.

تأكدت لدى الجميع شائعة الزواج العرفي بين هناء السعيد التي قدمت نفسها كمهر للمنصب وتوفيق مراد الذي فعل ما يستطيع ليدفع ثمن متعته.

صفاء هلال تنتحي بفؤاد هاشم جانبًا وهي تغمز له بابتسامة تؤكد بها حديثها، تهمس بجملة واحدة:

- بركات العرفي.

ثم تضحك وتتحول إلى هناء كي تبارك لها مرة أخرى بحرارة، بل وتستدعي مصطفى العامل ليحمل المشروبات المثلجة للجميع على نفقتها كنوع من المشاركة في السعادة بترقية زميلة عمرها.

يحتسي الجمع المشروبات، يباركون والضحكات ترن في المكان، بينما كان في داخل كل منهم نار مستعرة، عدا فؤاد هاشم، لم تكن مثل هذه الأمور تعنيه، أيضًا لأنه لا يحمل ضغائن بداخله، دائمًا يكيف نفسه على الأوضاع المتاحة، هي بالنسبة له الأفضل.

تدرك هناء مشاعر معظمهم أو بعض مشاعرهم إن أردنا الدقة، تشرد لحظات محاولة التعرف على داخل كل منهم على حدة، لكن تفكيرها لم يستجب لها، يحلق عبر الزمن متعمقًا في الماضي، تذكرت زوجها الدكتور أيمن في فترة ما بعد انتهاء الدراسة الجامعية، عندما طلب منها الاستمرار وتقديم الأوراق في الدراسات العليا حتى الحصول على درجة الدكتوراه، ثم الالتحاق بهيئة التدريس بالجامعة، أمر سوف يساعدها فيه بكل تأكيد، لكنها تشعر بطول المسافة، هي تحلم بانتشار أكثر من مجرد التدريس في الجامعة.

ضحكت ذات يوم وهي تتخيل نفسها نجمة سينما، نعم كان داخلها يتمنى ذلك ولكنها كانت تخاف مثل هذا الأمر، إنها تدرك داخلها، قد

Scanned by CamScanner

يكـون ذلك مطلبها، لكنها ما أن تصل لـه قد تندم، لذا رفضت مثل هذه الفكرة خصوصًا أن نجوميتها في السينما شيء غير مضمون، هي لن ترضى بأقل من النجومية الساحقة لذا نحت هذه الفكرة جانبًا.

أمنيتها بعد أن أنهت دراستها كانت العمل بعيدًا عن أيمن زوجها، يكفي تواجده في المنزل، لا تريد أن تكون معه في الجامعة يحاصرها حصارًا مقيتًا، يضاف إلى ذلك أنها لا تميل إليه رغم مرور السنوات على زواجهما، دائمًا ما تشعر باقتراب خروجها من هذا السجن. لا تعلم لماذا تطلق على زواجها منه سجنًا .. ولا تعلم أيضًا لماذا تنتظر الخروج منه قريبًا ..!!

ترفض بشدة استكمال دراستها العليا، تطلب من زوجها في دلال أن يساعدها في الحصول على فرصة عمل مناسبة من خلال علاقاته، في البداية يتمسك بوجهة نظره لكنه يتراجع بعد فترة، إنه دائمًا ينصاع لرغباتها نظرًا لحبه لها، بل وافتتانه بها، تمنُّعها عنه كان يلهب رغباته وشبابه المتدفق.

صاغرٌ يبدأ في توفير أكثر من فرصة لأعمال تتناسب مع زوجته، ترفضها هناء، أغلبها يدور في فلك العمل المكتبي كموظفة إدارية في الجامعة أو الهيئات الحكومية المختلفة.

ذات مساء كان زوجها الدكتور أيمن، ضيفًا على أحد البرامج التلفزيونية كمتخصص في مجاله العلمي، هناء تشاهد الحلقة بهدوء .. بعد دقائق من الحوار تنفعل، تتمنى أن تكون بديلًا لتلك المذيعة

صاحبة الابتسامة الفاترة، لو كانت في موضعها لهاجمت زوجها، من موقع القيادة في البرنامج، حتى إنها سبت المذيعة ولامتها على سطحيتها.

رغبتها في احتلال موقع المذيعة نبع من رغبتها في كشف زوجها، تود لو تكشف ما تبغضه فيه على الملأ كي تجد مَن يساندها في أن الحياة بينهما مستحيل استمرارها، لكن ما حدث أن تلك الرغبة حركت بداخلها قدرات خاصة لم تكن تعلمها من قبل.

في اليوم التالي، فوق سرير زوجها، تقدم كل ما تمتلكه من قدرات خاصة لزوجها بشكل جعله في حالة من الذهول والنشوة، بعدها تطلب منه أن يوفر لها فرصة العمل كمذيعة في التلفزيون.

يبتسم الرجل ولم يعلق، بعد إلحاح وطول جدال يوافق على مبدأ العمل كمذيعة، لكن ذلك أمر صعب التنفيذ، تمتدح قدراته ومكانته، يبتسم مثل طفل وهو يعدها بأنه لن يعدم الحيلة التي تمكنه من توفير هذه الفرصة لها.

بداخله يشعر بأن عمل زوجته كمذيعة سيكون واجهة اجتماعية لها بريقها تزيد من قدره بين أقرانه، من جهة أخرى، فهي من خلال عملها وعلاقاتها سوف توفر له الفرصة للظهور الدائم في وسائل الإعلام المختلفة.

عن طريق بعض المعارف وتقديم الكثير من الهدايا إلى سلف توفيق مراد رئيس قناة الأمل الفضائية، تتسلم هناء السعيد العمل كمذيعة،

Scanned by CamScanner

تعمل فترة تحت التمرين تتعلم طرق الإلقاء ومبادئ قواعد اللغة العربية وأصول البرتوكول و..

تستطيع، بما تملك من لباقة وقدرات خاصة وجمال حقيقي على جسد رائع، احتلال مكانة كبرى داخل القناة، بل خلال سنوات قليلة تستطيع أن تحتل مركزًا مرموقًا في الأوساط الإعلامية، أدركت أصول اللعبة حتى إن أكثر من قناة فضائية عرضت عليها العمل فيها وبأجور مغرية، كان ذلك من أسباب تألقها حيث ازدادت ثقتها بنفسها.

تقبل على الحياة، تنهل من تفاصيلها بقدر ما تستطيع مستغلة ما تتمتع به من حضور وقبول لتحقيق مكاسب ترتقي بها درجات السلم.

الحق يقال أن هناء لم تفرط في نفسها ذات يوم، إن كان ذلك تعففًا منها، فهو أيضًا لاعتزازها بنفسها، وصلت إلى حد تقديس الذات، جسدها .. جمالها أعز ما تملك، هذا الجسد ليس عرضة لأن يدنس بمثل هذه الأفعال من أجل الحصول على أي شيء مهما كان ثمنه، تعتز بجمالها لذا لم تقدمه لأحد غير زوجها، يكفي الآخرين ابتسامتها الرقيقة العذبة، تكفي روحها الجميلة التي ترفرف على مَن يتحدث معها،تحيطه بأنفاسها .. تغمره بنظراتها، فكان، وهذا أمر غريب، أن مَن يُجالسها لدقائق أو يتحدث معها حديثًا عابرًا يشعر بنوع من السعادة، قليلٌ جدًا مَن كان يطمع منها في أكثر من ذلك من أمثال ممدوح يعقوب.

تنطلق هناء بهذا الشكل في حياتها الجديدة كمذيعة، لكن هناك دائمًا شيئًا واحدًا يضع حدًا لمثل هذا الانطلاق .. زوجها الدكتور أيمن وبيت الزوجية، لذا قررت أن تحرك العلاقة الزوجية إلى ..

يُخرجها من شرودها العامل مصطفى وهو يخبرها بأن مكتبها الجديد جاهز ويمكنها الانتقال إليه الآن. تعلو أصوات المباركة مرة أخرى من الزملاء، وآيات السعادة ترفرف على المكان، تعود هناء بصعوبة إلى لحظتها تاركة ذكرياتها إلى حين، تحمل حقيبتها، تتوجه إلى مكتبها الجديد.

***

Scanned by CamScanner

32

تغيب عن قرية «البندارية» روحها التي كانت تتميز بها، لم يعد الفلاح يخرج بماشيته إلى حقله، يخشى عينًا حاسدة، يشترى احتياجاته من مكان بعيد كي لا يعلم عنه أحد ما يشتري، يغلق على نفسه بابه، يبذل ما يملك حتى لا تخرج رائحة طعامه. أحاديثهم تنهش الأعراض، تدق الرقاب، يركعون أمام أثريائهم.

يدرك ممدوح يعقوب ذلك، فيتخذ حال وصوله إلى قريته سيماء الأثرياء، يرتدي الثوب الفلاحي ويتوكأ على عصا من الأبنوس، ترسخت هذه الصورة عن الأثرياء في ذهنه أثناء مراحل نموه في قريته، خصوصًا عندما حاول والده أن يتمثل بهم، لكن العامة سخرت منه فكان يعود ساخطًا على الجميع ناقلًا سخطه هذا إلى زوجته وأولاده ومن بينهم ممدوح، الذي كان والده، وفي هذه اللحظات بالذات ينظر نحوه بعين الرجاء، لسان حاله يخبره بأنه ينتظر اليوم الذي يصبح فيه طبيبًا، وقتها .. مع الاحتياج المستمر من الجميع لابنه الدكتور .. لن

يسخر منه أحد إن هو ارتدى ثياب الصفوة، لكن ممدوح يخذله،لم يصبح طبيبًا.

نظرًا لوضع ممدوح يعقوب الجديد، ثروته التي ظهرت بوضوح، إضافة إلى ما عُرف عنه من اتصاله بكبار رجال الدولة، جعله ينال الكثير من الاحترام، زد على ذلك أنه كثيرًا ما كان يقيم الولائم، ضيوفه عمدة القرية وبعض أصحاب الأموال، ومن القاهرة مجرد موظفين تربطه بهم مصالح، يقول عنهم في الولائم فلان بك وعلان باشا، ارتفاعه بقدر ضيوفه يحتوي على ارتفاع شأنه بين أهل قريته.

لم يبخل أبدًا على هذه الولائم التي دائمًا ما يُحمل تكلفتها على العمولة التي يحصل عليها من أهل قريته حال تقديم خدمة لأي منهم، ولما كانت هذه الولائم تحتوي على ما لذ وطاب، فكان ضيوفه يبجلونه ويخشون انقطاع نفحاته.

في هذا اليوم يهبط القرية، يرتدي الزي الفلاحي، يتوكأ على عصاه الأبنوس ذات المقبض على هيئة رأس أفعى، يجلس في مقدمة المنزل، يُرسل في طلب حسام سعد.

ممدوح يشك للحظة أن حسام سيرفض الحضور ويطلب من الرسول أن مَن يريد الآخر يذهب إليه، لكن الثقة التي بثها بداخله المال ومعرفته لطبيعة حسام سعد جعلته يلغي هذا الخاطر وينتظر وصول الدكتور حسام.

Scanned by CamScanner

لحظات ويعود الرسول الذي يخبره بأن الدكتور حسام سوف يأتي بمجرد الانتهاء من توقيع الكشف على مريضة شابة، يبتسم ممدوح مهنئًا نفسه على حسن تدبيره واعتدال تفكيره، الآن أصبح من الذين يصدرون الأوامر.

يصل حسام وعلى وجهه علامات سعادة وبشاشة على غير المتوقع حتى إنه يحتضن ممدوح بشدة، يتذكران في سعادة أيام الدراسة وكم كان ممدوح مثالًا للطالب المتعاون وهذا ما كان يجعله، أي حسام، لا يبخل أبدًا في أيام الامتحانات، يفيض حسام في الحديث عن هذه الجزئية في إشارة إلى جميل سابق ويود لو ينال المقابل.

حالة حسام تلك، سهلت كثيرًا على ممدوح، يتعامل معه بنفس الحماس، يُعلن أنه كان نعم الصديق، الصداقة الحقيقية هي أفضل ما يخرج به الفرد خلال فترات حياته، يتذكر هذه الأيام بسعادة وما إن واتته الظروف أرسل في طلبه مباشرة.

بعد دقائق يرسم ممدوح على وجهه علامات الجدية وبسرعة يرسم حسام نفس الملامح على وجهه هو الآخر، يبدأ ممدوح حديثه إلى «صديقه» عن حياة المدينة وكونها طاحونة، على من يرغب فيها أن يكون يقظًا طوال الوقت وإلا سقط بدون عودة.

أفاض في الحديث عن تفاصيل عمله وأن السيد الوزير يعتمد عليه بشكل كامل حتى إنه لا يتخذ قرارًا إلا بعد استشارته، وهذا الأمر يعود

عليه بالإرهاق، فلا وقت لديه كي يعيش حياته الخاصة، هذا ما جعله لا يتزوج حتى اليوم.

يصمت قليلًا قبل أن يؤكد له أن هناك أعمالًا تخصه لا يعلم عنها أحد شيء نظرًا لموقعه الوظيفي الحساس، في كثير من الأحيان يتمنى أن يكون له صديق أو بالأحرى يكون له مدير أعمال يساعده في أعماله هذه ولو طلب أجرًا مضاعفًا لدفع له.

حسام ينصت إلى ممدوح باهتمام، يوافق على حديثه بالإيماءات والعبارات حتى إنه شعر بالأسى مما يعيش فيه ممدوح وغيره من الأثرياء.

وقعت كلمة الأثرياء على ممدوح وكأنها مفاتيح كنوز السعادة، يمد يده ليربت على كتف حسام معلقًا بأنه استدعاه اليوم ليكون شريكه في هذا الثراء، إنه في حاجة إلى مساعدته.

يصمت حسام لحظات في إشارة منه إلى أنه فوجئ بمطلب صديقه، يعلن أنه طوع أمره وبدون مقابل، هو بمثابة الأخ له، لكن كيف يتسنى له المساعدة وهو يعيش هنا في القرية وممدوح يعمل هناك خلف الوزير؟

تأتي المرحلة الثانية التي خطط لها ممدوح، يطلب من حسام أن يُقدر دخله المادي هنا وكل ما يحتاج إليه من مال إن هو انتقل للعيش في القاهرة وسوف يعوضه عن كل ذلك بشكل مضاعف.

لم يستطع حسام التحدث بشكل مباشر، يذهب خلف أفكاره، تغيرت ملامحه بشكل أدخل الشك إلى قلب ممدوح الذي أسرع

Scanned by CamScanner

كي لا يترك له فرصة الرفض، يخبره بأنه سوف يسهل له أمر الانتقال إلى القاهرة والالتحاق بأعرق المستشفيات ليكون إلى جوار كبار المتخصصين والأسماء اللامعة في عالم الطب وسوف يساعده في افتتاح عيادة خاصة له، بالإضافة إلى أنه سوف يتحدث إلى معارفه في القنوات الفضائية لإجراء المقابلات معه.

ينبهر حسام سعد .. يرتبك داخله لحظات .. في لحظة واحدة أمام عرض من شأنه تغيير حياته،يُعلق بكلمات غير واضحة في مجملها تنم عن موافقة غير صريحة، كي يهرب من الموافقة المباشرة يتساءل عن صداقات ممدوح في الوسط الإعلامي، هنا أفاض ممدوح في الحديث وهو يداعب مقبض عصاه، إنهم أكثر من أصدقاء وعلى رأسهم المذيعة الجميلة هناء السعيد.

يتدلى الفك السفلي لحسام سعد عند سماعه اسم هناء السعيد، تتزايد دهشته عندما يخبره ممدوح بأن هناء كانت عنده في شقته من عدة أيام، يداعب حسام ممدوح على هذه العلاقات السرية.

الواقع أن خيال ممدوح، لحظة أن قال أن هناء كانت معه في شقته، لم يصل إلى مقدار أن هناء كانت معه في علاقة حب خاصة، إنما قال ذلك من قبيل تأكيد صداقته لها، لكن إن كان حسام قد فهم الأمر على هذا المعنى فذلك أفضل، هنا يجد ممدوح الفرصة لينتقل إلى الحديث عن العلاقات الخاصة.

و كأنه غير معني بهذا الشأن، أو أنها تُثقل كاهله، يؤكد أن هذه العلاقات الخاصة متاحة، تُعرض عليه باستمرار من أجل تسيير الأعمال إلا أنه يرفضها بأدب، إلا إذا أجبرته الظروف، أو كانت الصديقة على قدر مذهل من الجمال مثل هناء السعيد، فهي بلا شك عرض لا يُرفض، ينتقل إلى شرح محاسن جسدها وتفاصيله، يستعين بكل التفاصيل التي يشاهدها في الأفلام الخاصة كي يُثير حسام سعد إلى أقصى درجة ممكنة، ما أن يلاحظ ذلك الخدر البادي على حسام وذوبانه حتى يميل عليه هامسًا:

- أقول لك سر كبير.
- فى بئر عميقة يا صديقي.
- السيد الوزير ..

بدأ يتحدث عن شخصية الرجل بوجه عام، يمجده ويضفي عليه صفات أسطورية، في النهاية وبنبرات يُحملها الكثير من الأسى «الحلو لا يكتمل» .. هذا الرجل على ما فيه من خصال حميدة على صعيد العلاقات الاجتماعية ينقصه جانب العفة والشرف .. يحدثه عن علاقات الرجل الشاذة .

لم يعترف ممدوح بأنه مَن يُمارس هذه العلاقة الشاذة، إنما جعل دوره كله منحصر في توفير الشباب اللازم لمثل هذا العمل، يُعقب مسرعًا بأنه لو لم يستجب لتم فصله من عمله، وما كان وصل إلى ما هو فيه الآن، ثم إنه إن لم يفعل ذلك فهناك آلاف غيره سيفعلونه.

Scanned by CamScanner

يرتاب حسام في الأمر، تغير ملامحه للحظات وهو يتخيل أن يكون مقصد ممدوح استغلاله لمثل هذه العلاقة مع الرجل، يعقب بصوت واهن:

- ماذا تطلب بالتحديد يا ممدوح؟!

هنا يفهم ممدوح سبب وجوم حسام، يضحك بشدة وهو يهز صديقه، لم يدنُ بفكره إلى ذلك على الإطلاق، يُعقب بأن الأمر لا يصل إلى هذه الدرجة، كل ما في الأمر أنه يريد صديقًا حقيقيًا له في القاهرة بالإضافة إلى أنه يود لو ينعم صديقه معه بهذه النعم المتوفرة تحت يده.

يطمئن حسام .. يُعلن موافقته، يطلب منه ممدوح أن يُقدم طلبًا للنقل إلى القاهرة، يُخبره برقم هذا الطلب ويترك الباقي له.

تمتد مائدة عامرة عليها الكثير من النعم التي تُذهب العقل، دليفري من أفخم المحلات في أقرب مدينة أتى محملًا بكل هذا، يتعمد ترك بصمة ثراء قوية داخل حسام، الذي يأكل بنهم حقيقي وسعادة يتنسم معها نعيم المستقبل القريب.

يخرج حسام بعد عناق حار وسعادة غامرة .. يجلس ممدوح وحيدًا، يفكر في المرحلة المقبلة يتصور نفسه بين كبار الدولة وخلفه تابعه حسام سعد.

يعود إلى القاهرة بعد اتصال من معالي الوزير يأمره بالعودة خلال ساعات، في طريق عودته يفكر في أكثر من أمر قد يحتاجه فيه معاليه،

عندما يفشل في الوصول إلى شيء مقنع يكف عن التفكير ويطلق صفير اللامبالاة الخاص به.

يذهب إلى العنوان الذي أخبره به معاليه عندما علم بوصوله، فيلا خاصة في بداية الطريق الصحراوي، أمام البوابة المحاطة بأسدين يقف مثل تمثال، يُغلق زجاج سيارته مفزوعًا، أسدان حقيقيان على جانبي البوابة، مسلسلين بسلاسل عظيمة لكنها طويلة بشكل يتيح لها فرصة التهام مَن يجرؤ على الاقتراب منهما. بعد دقيقة من الصمت يفيق على زئيرهما، يستخرج تليفونه ليتصل بمعالي الوزير يخبره بما يشاهد، يأتيه صوت الرجل ضاحكًا، بعد لحظة تفتح البوابة العظيمة بشكل آلي، صوت خافت يأتي عبر سماعات خفية يأمر الأسدين بالهدوء فيجلسان مثل قطط وديعة. يعبر بسيارته وما يزال بداخله خوف من المكان بالرغم من طمأنة معالي الوزير. يعبر الممر المخصص للسيارات حتى يشاهد معاليه يجلس بين مجموعة من الرجال أسفل برجولة تتوسط الحديقة المترامية الأطراف.

يغادر سيارته، يتوجه إليهم وهو يلتفت يمينًا ويسارًا خشية من أن يكون هناك أسد يتجول في المكان، وقبل أن يصل إلى البرجولة يسمع صوت زئير أسود .. نعم أسود .. يقف متسمرًا وهو ينظر ناحية الصوت فيشاهد قفصًا حديديًا بداخله عدد لا يقل عن عشرة أسود.

ما هذا المكان .. أي قوم يقومون بتربية الأسود في حديقة المنزل؟! هل هو في مصر ؟! يشير نحوه الوزير علامة الاقتراب، يذهب وقد

Scanned by CamScanner

شُل لسانه، يصافح الجميع في أدب جم وتساؤلات تملأ عينيه، يشير رجل أربعيني بأن يجلس ولا يخشى شيئًا، هي أسود مدربة على أن تكون أليفة طوال الوقت ما لم يأمرها صاحبها، يشير إلى نفسه، بأن تفعل ما يشاء، هنا يشير إلى رقبته علامة القتل. ينكمش ممدوح في مقعده فيتضاءل، يتمنى لو يفهم أي شيء، يتذكر نفسه من ساعات وهو مع حسام وسمات العظمة تعتليه. لن يعرف ممدوح اليوم، ولن يعلم مستقبلًا لاقتراب اليوم الرهيب، أن هناك عددًا لا بأس به من أعداء ذلك الرجل الأربعيني انتهت حياتهم ومُحِيَتْ من الوجود أجسادهم داخل هذا القفص.

يستكمل الحضور حديثًا يبدو أنهم كانوا قد بدأوه قبل مجيء ممدوح، بعدها يتحدث الرجل الأربعيني قائلًا:

- أتثق في هذا «يشير ناحية ممدوح» كي يقوم بعملية ضخمة مثل هذه؟
- أثق فيه ثقة عمياء .. أأتمنه على نفسي ..

يجيب بذلك معالي الوزير قبل أن يضحك بسعادة طفولية، ينفجر الرجل الأربعيني ضاحكًا ثم يتبعه الحضور، فقد فهموا ما يرمي إليه الوزير، إلا ممدوح الذي تلجمه دهشته، يُكمل الرجل الأربعيني حديثه لكن هذه المرة يتوجه ناحية ممدوح بكلماته، فيقول:

- مستعد يا ممدوح؟

يتلعثم ممدوح .. فتخرج كلماته مبهمة عبر صوت مبحوح:

- ما يؤمرني به معالي الوزير أمر يُنفذ في الحال.

- سوف تذهب عبر الحدود الجنوبية محملًا بمجموعة كبيرة من التماثيل والقطع الأثرية الفرعونية.
- أنا .. أذهب .. بها؟!

تعلو الدهشة وجه ممدوح بشكل جعل صاحب الأسود ينظر بعين شرسة نحو الوزير، يضحك الوزير كي يشجع ممدوح وهو يقول:

- سوف ينفذ ممدوح كل ما يؤمر به .. أليس كذلك يا ممدوح؟
- بالتأكيد معالي الوزير، لكني فوجئت بأمر ذهابي.
- الصفقة كبيرة ولن نتركها لأحد غريب..
- أمرك سيدي..

يهدأ صاحب الأسود، يُكمل بكلمات هادئة ضاغطًا على حروفها بشكل يوحي بأن ما سيقوله أمر لا يحتمل النقاش ولو للحظة واحدة فيقول:

- تذهب بالآثار عبر الحدود الجنوبية يا «دوحة» وتعود بنفس السيارة محملة بألف قطعة سلاح.

***

Scanned by CamScanner

33

لن ينجح أحد في السيطرة على قوم، أو حتى نشر ما يريد بينهم، إلا إذا كانوا يرغبون في ذلك .. لا تنمو البذور إلا في أرض تلائمها.

يتنشر «سيد المليجي» بين العاملين في القناة مستغلًا قدراته الخاصة في تحقيق خدمات مختلفة تتفق ومهاراته المتعددة، ينقل الأشياء كالأوراق والمكاتب، يقوم بإصلاح الأدراج والأبواب، لا يرفض أبدًا أن يحمل الخضار إلى المنازل .. ودائمًا ما يرفض المقابل المادي مما يجعل من أمامه يُجزل له العطاء على إخلاصه وقناعته.

يساعد ذلك على إزالة الفوارق بينه وبين الآخرين، لقد تغيرت أوضاعه وتحول من ذلك الشخص المعروف عنه أنه أحد أعضاء طائفة الإجرام، أو على الأقل أصحاب المشاكل، انتقل إلى طائفة تتميز بالهدوء والاستقرار، له معارف وزملاء في العمل على قدر من الأخلاق والنجومية، له صديقة «نعمة» تحافظ على عفتها، أصبح يتلقى مقابلًا ماديًا يساعده على المعيشة الهادئة، لكنَّ هذا لم يكن ليكفيه أبدًا،

إنه لم يدخل هذا المكان كي يكون مجرد عامل، تنتصر طبيعته الشاردة على رغباته المجتمعية، لذلك وبمجرد أن تستقر أوضاعه وتتعدد صداقاته، يقرر أن يبدأ في المرحلة التالية، ثم يبدأ التنفيذ.

فى هذا اليوم الذي يقرر فيه بدء خطته، يحمل فنجان القهوة، يدخل مكتب توفيق مراد بكل احترام، يضع الفنجان مع انحناءة بسيطة ثم يسحب الصينية إلى الخلف بشكل مائل حتى تسقط منها قطرات الماء العالقة على سطح المكتب، يفعل ذلك بشكل طبيعي جدًّا، ثم يمد يده في جيبه كي يستخرج منديلًا يجفف به قطرات الماء المتساقطة، يسحب المنديل بشدة متعجلًا ليصلح ما أخطأته يداه، تسقط من جيبه بعض الأوراق، فئات مالية ورقية ومعدنية، شريط حبوب زرقاء «فياجرا».

سقطت محتوياته أمام توفيق مراد بشكل عفوي واعتذر وهو يجمعها ويضعها في جيبه وينظف المكتب، يتأمله توفيق وهو يفعل ذلك، يتناول فنجان القهوة، يسند ظهره إلى الخلف، يسأل:

- فياجرا يا سيد؟
- لأ يا بيه.

يتصنع سيد الارتباك وهو يتحسس جيبه، يكتم أنفاسه لحظات كي يلهث وتحمر وجنتاه ليبدو أمام توفيق مراد ضعيفًا بشكل يستدر عطفه، بعد لحظات يجيب بهدوء منكسرًا بأن هذه الحبوب قد طلبها منه صديق وهو يتطوع لشرائها له مقابل ربح بسيط، يفعل ذلك كنوع من السعي خلف الرزق.

Scanned by CamScanner

هناك فئة من الناس لا يطلبون ما يريدونه في العلن، طلب بعض الأمور قد يقلل من شأنهم أمام الآخر، رغم ثقتهم في أن الآخر يفعل مثل ما يفعل هو، من هؤلاء توفيق مراد وكثيرٌ غيره يتمنون لو يحصلون على أشياء منها الفياجرا، أو قطع الحشيش مثلًا، لكنهم يخجلون من الإفصاح عن ذلك، لا يستطيعون الذهاب إلى الصيدليات لشرائها، لذا يستغل الفرصة اليوم، يشير إلى سيد بالاقتراب، يهمس طالبًا شريط الفياجرا الموجود معه، بسرعة يخرجه سيد من جيبه، يضعه أمامه، يرتد إلى الخلف مستئذنًا في الانصراف، يستوقفه توفيق وهو يسأله عن سعر الشريط، بعد عدة محاولات يفشل خلالها توفيق في إقناع «سيد» بالحصول على المال يقرر بأنه سوف يعوضه في المرة المقبلة ولن يقبل منه «علبة فياجرا» كاملة إلا بعد أن يأخذ ثمنها، يخرج «سيد» سعيدًا بما حققه من نجاح في هذه الخطوة.

نفس تفاصيل الحيلة ينفذها «سيد» مع آخرين في القناة، تنجح بنفس مستوى نجاحها مع توفيق مراد، يعتمد على عنصر الحرج من طلب تلك الممنوعات جهارًا، لا يقوم بحيلته إلا عندما ينفرد بالشخص الذي يختاره.

مع مرور الأيام يصبح سيد المورد لحبوب المتعة والسعادة الزوجية، في البداية يُضيف هامش ربح ضئيل، يزيده مع الأيام، لكن بشكل لا يثير الغضب ضده، بعد فترة يرتفع المبلغ إلى الضعف، ثم يطلب بقشيشًا أكثر بسبب المعاناة التي يواجهها في الحصول علي تلك

الحبوب بعد أن قلت في الأسواق رغم أنها في الواقع كانت تنتشر ويقل سعرها لكن لا أحد يتابع مثل هذا التطور على أرض الواقع.

كانت هذه باكورة أعماله الخاصة داخل القناة، تطورت فيما بعد إلى ما هو أكثر من حبوب الفياجرا، بدأ ذلك عندما يطلب منه توفيق علبة فياجرا كاملة على وجه السرعة، يبتسم سيد، يخبره أن هناك ما هو أفضل، يستخرج سيجارة محشوة بالحشيش معلقًا بأنه نوع فاخر، يتردد توفيق لحظة، يعدد سيد محاسن الصنف وأنه مزاج عالٍ وعليه فقط أن يجرب هذه المرة فقط، يتناول توفيق السيجارة بحرص، يضعها داخل علبة سجائره برفق.

يخرج سيد سعيدًا منتشيًا، كلما ينجح في خطوة مع توفيق مراد يزداد قوة، فيطبق هذه الخطوة مع الآخرين واثقًا من نجاحها الكامل، لا يخشى وشاية تسقطه عند رئيس القناة الأول في الحصول علي بضاعته.

ما كان يضمن له النجاح المستمر، حرصه التام على سرية تحركاته، يُشعر كل فرد بأنه يفعل ذلك من أجله هو، لا أحد على الإطلاق يعرف ذلك، الآخرون يرونه بالصورة السوية التي يريدها.

أما تعامل «سيد» مع النساء في القناة، كان له شكل آخر، يبدأ ذلك في يوم كان يريد أن يطلب فيه رضاء «نعمة» عنه، وذلك بعد إهانة خضرة لها في الشارع، فقد انقطعت عنه نعمة، يحاول أكثر من مرة، لكنها تمتنع عنه، تتجاهله بقلب حزين، باكية على حلم باستقرار لم يكتمل.

Scanned by CamScanner

فى هـذا اليـوم يشـتري لهـا مـن بوتيك فـي منطقتـة الشـعبية، عقد «اكسسـوار» .. بالرغـم من ثمنـه المنخفض إلا أنـه كان جميل الصنع، يشـتري علبـة قيمة ثمنها يماثل ثمـن العقد. تُدهش نعمـة بهديته، تلقي الهدية في حد ذاته حدثًا كانت تتمناه، لكنها تمتنع عن قبوله، سيد يدرك أنها سوف تقبله منه في المحاولة التالية والتي أجلها ليوم آخر.

أمام حجرة المكتب، يجلس سيد إلى جوار مصطفى، يتحدثون عن هـروب «خضرة» مـن الحارة، زوجها «جابر» يـكاد يفقد عقله، لا يعلم لهجرها سببًا، يخبره «سيد» أنه سـمع من الجيران أن جابر غير مكتمل الرجولة لذا هجرته خضرة.

يأخذهـم الحـوار إلـى مواضيع عديـدة، يمارس مصطفى سـلطات المعلـم علـى تلميذه، حتى هـذه اللحظة لم يُدرك ما وصل إليه «سـيد» مـن تعميق العلاقـات بينه وبين العامليـن في القناة، لقـد أصبح مصدر سعادتهم التي يخجلون من الإفصاح عنها.

يشـرد «سـيد» في بعض تفاصيل حياته، يتـرك مصطفى يتحدث بما يشـاء، ما إن يعود من شـروده حتى ألفه مسـتمرًا في إلقاء مواعظه، أراد أن يهـرب منـه، يُرهف السـمع إلـى الأصـوات الصادرة مـن الحجرة، كانـت لصفـاء هلال تتحـدث مع زميلات لهـا في أمر الحلـي وأدوات الزينة وعن أسعارها التي فاقت الوصف، يقف سيد، تاركًا مصطفى في دهشـته، يُخرج من جيبه العلبة التي تحتوى على العقد، يدخل الحجرة ملقيًـا التحيـة، ثم يعرض عليهن العقد، وقد أضاف إلى سـعره الأصلي

ثلاثة أضعاف، تتلقاه صفاء بإعجاب شديد، تُعلن عن رغبتها في شرائه، تخـرج نقودها لتقطع الطريـق أمام الأخريات، تغتـاظ زميلة لها،تطلب من سيد عقدًا آخر شريطة أن يكون أغلى من ذلك وأن يكون هذا غدًا.

لو حدث في هذه اللحظات، ورأين العقد كشيء عادي أو أن ذوقه لا يرقى إلى مستواهن لخرج سيد مكسورًا، لكن غريزة حب التملك لدى صفاء هلال وقفت في صف «سـيد» فاشـترته مباشـرة وكأنه صيد ثمين بشكل جعلهن يتأججن من نار الغيرة فيطلبن عقودًا وخواتم وأقراطًا..

يتوجه سـيد إلـى صاحبة البوتيـك، بضيق يحدثها عن أنه خسـر في العقـد، فـي الفترة المقبلة سـوف يشـتري منهـا كميات أكثـر لذا يجب عليها أن تخفض له الأسـعار وتتعامل معه بسـعر الجملة، كي يسـتطيع أن يحصل على هامش ربح مناسب. توافقه بسعادة، بل وتؤجل استلام الثمن حتى يُتمم عمليات بيعه.

يحمل سـلعه إلى السـيدات العامـلات في القناة، وقـد أضاف على سـعرها الأصلى عشرة أضعاف تقريبًا، تعلم من صاحبة البوتيك طريقة عـرض السـلعة وعدة ألفـاظ ترفع من شـأن سـلعه، تعلم أيضًا أسـماء لأحجـار كريمـة ونقوش بارزة وغائرة وتناسـق الألـوان وما يصلح من الملابس مع هذه السلع ..

وهكـذا انطلقـت بـه الأمـور داخل القنـاة يجنـي أرباحًـا من خلف بيعـه لحبوب الفياجرا أو السـجائر المحشـوة بالحشـيش أو من خلف الإكسسوارات الحريمي.

Scanned by CamScanner

تعود إليه «نعمة» بعد أن يخبرها برغبته الحقيقية في خطبتها، تغيرت طريقته في الحوار وطريقته في الملبس. لقد أصبح مرغوبًا والكثير يبحث عنه.

يشاهد مصطفى ذلك التطور مع الأيام، تأكله نيران الغيرة لاسيما أنه لم يعد يمارس دور المعلم، يشعر في قرارة نفسه أنه يزداد ضآلة كلما ازداد سيد انتشارًا، لذا يقرر أن يتخذ موقفًا وإن كان لا يدري بالضبط ما هو هذا الموقف، ولابد أن يكون شديدًا، وإن وصل الأمر إلى القضاء على مستقبل سيد .

***

34

تمتلئ السماء بالغيوم، يحل الظلام قبل موعده بساعات، تهرب الطيور إلى أوكارها، تنسحب الجماهير من الشوارع، تخرج الضواري تبحث عن فريسة. في هذه الأجواء الخانقة يخرج «مختار محفوظ» من القناة وقد شحب لونه، تتصاعد الدماء إلى رأسه بشكل كاد يجعل شعيراته الدموية تنفجر، لكنه يبذل جهدًا خرافيًا للحفاظ على ثباته الانفعالي ويتمسك بخيوط الهدوء، بعد صدور قرار ترقية هناء السعيد متخطية إياه.

ما أن يصل منزله حتى يدخل غرفته، يغلق بابها، يغرق في موجة غضب عارمة، حيث راح يمزق أوراقًا، يكسر زجاج النافذة، يركل أشياء بقدمه، يتنفس بصعوبة.

ينهار من شدة الإجهاد في شبه إغماءة، يدرك أنه لن يستطيع التزام الهدوء أكثر من ذلك، لذا أغلق حجرته عليه، إنه لا يرغب في أن يشاهده أحد على هذه الحالة خصوصًا أطفاله.

Scanned by CamScanner

تمر الأيام التالية، تسوء حالته يومًا بعد يوم، يتصل بهم في العمل طالبًا أجازة أسبوعين لظروف عائلية طارئة.

لم يجد متنفسًا لما يعتمل بداخله من نيران وحنق إلا مجموعته من الشباب من مُريديه، بعد أن يرفض مقابلتهم ثلاث مرات، يقابلهم بوجهٍ حزين، كأن سنوات العمر هرولت فجأة لتلقي بظلالها على وجهه.

عندما يشاهدوه على هذه الحالة،شعر كثيف،ذقن غير حليقة، تنتقل إليهم الروح الثائرة، تزداد هذه الروح اشتعالًا عندما لاحظوا انكساره، رفضه للواقع، زهده في تفاصيل الحياة، هو أحق أن يتقلد المناصب، لكن الجهلة يصعدون على أجساد الكفاءات، وهو كفء، سوف يقدمون أنفسهم فداء له.

كنوع من التخفيف على النفس يسرد لهم تاريخه الطويل، يضفي الكثير من القداسة على أفكاره وأعماله، لقد بذل كل شيء للوصول إلى هذا المستوى، هو الكفاءة التي لا مثيل لها، منصب مثل هذا الذي حصلت عليه هناء السعيد كان هو أولى به وهو أقل تقدير له، عدم حدوث ذلك دليل على انتشار الفساد في طول البلاد وعرضها وخراب الذمم.

لم يجد أي من الحضور ما يعلقون، إنهم لا يمتلكون شيئًا، بعد لحظات صمت يكسرها أحدهم متطوعًا بالمساعدة بما تملك يداه، فيسأل عن صاحب سلطة إصدار هذا القرار، يُجيب مختار بأنه قرار من رئيس مجلس الإدارة، لكن صاحب الاقتراح والتزكية هو توفيق

مراد بلا شك، وكأنه تذكر توفيق مراد فجأة، أفاض في الحديث عنه، رجل يفعل كل شيء وأي شيء من أجل تحقيق صالحه الخاص، لا يعدم حيلة في ابتكار طرق جديدة يحصل من خلفها على مكاسب خاصة، آخرها تلك الأرض التي حصل عليها في منتجع سكني بأسعار رمزية بينما سعرها الأصلي كان سعرًا خياليًا. كانوا يستمعون والغضب يرتسم على وجوههم وإن حدث وتواجد توفيق بينهم الآن، لأي سبب، لمزقوه إربًا.

هنا تخرج جملة شاردة من شاب صموت، عبارة ألهبت بقية المجموعة وكانت «ننتقم من توفيق مراد». تعلو الأصوات بين مؤيد ومستفسر حتى يهدأ الجمع وقد استقروا على مساعدة كبيرهم بالانتقام من توفيق مراد، لكن الوسيلة هي التي كانت محل خلاف.

وكأن الحديث عن الانتقام بداية فعلية له، فقد ابتسم مختار محفوظ وهدأ داخله قليلًا وهو يلحظ من أنصاره مؤازرة غير متوقعة، ولأن الأمر قد بدأ يتحول إلى مرحلة تتسم بالخطورة فقد آثر الهدوء.

حقيقة الأمر أن موقف الشباب أنبت داخل مختار سعادة حقيقية، إن كان قد خسر هذا المنصب، فقد اكتشف اليوم أنه اكتسب خلية تُقدم نفسها فداء لسعادته، يشعر بكم هائل من القوة يكتسبها من قوة مجموعته.

يتحول إليهم في الأيام التالية، يتحدث في مختلف الأمور، يُلقي ما في جعبته من أفكار متطرفة كان يخفيها، النزوات الخاصة، الرغبات

Scanned by CamScanner

المكبوتة، يُلبسها ثوب الفضيلة وأنها متطلبات فقراء هذا الوطن، لا يعدم وسيلة في تثويب أفكاره بالزي الديني الذي ما أن يتحقق حتى يكون سببًا في إدخال منفذه إلى جنات النعيم مع الشهداء والصديقين.

ينهي حديثه بأنهم، الشباب، الأمل في رفعة شأن هذه الأمة، يجب أن ينشروا هذه الأفكار الإصلاحية التي من شأنها إعادة الأخلاق والقضاء على الرذيلة وتحقيق العدالة الاجتماعية وإعادة توزيع رأس المال من خلال زكاة المال والصدقات. يُسمي الرذيلة بأسماء الأفراد مستخدمًا هناء السعيد وتوفيق مراد ونجيب سالم وأمجد رزق ..

مختار .. بوجه عام يستعين بهذه الأسماء للتدليل، هي التي يعرفها في محيط عمله، لكنه لم يكن يعلم أنه يعطي تعليمات وإشارات واضحة للقضاء على هؤلاء.

***

35

لم تكن هناك جملة تلح على تفكير أحد بقدر ما كانت هذه الجملة تلح على تفكير خضرة أو لوليا عزام، الجملة هي « مَن يبدأ كبيرًا يظل كبيرًا » لذا كانت لوليا دائمة التعامل من عل، وذلك من خلال أسلوب تعلمته سريعًا على يد صاحبة محل الكوافير والتي أصبحت صديقة شخصية لها، أو بالأحرى معلمتها، بشكل يومي تبثها أساليب التعامل، كيف تلبس، تتحرك، تمشي، تأكل، تضحك، تخبرها أن تحافظ على فعل كل ذلك بعفوية وتلقائية، تتاجر بجهلها عند الحاجة، تتصنع البلاهة إن تطلب الأمر، تجعل من كل فرد تتعامل معه معلمها الأول والأخير، مرشدها في هذه الغابة المفترسة سكانها. سوف تحصد الكثير، ففي مجتمعنا يصل هؤلاء.

بعد ما نشرته الصحف عنها، والذي فسرته هي على أنه أمر طبيعي، لأنها وضعت هذه الممثلة المتعجرفة في مكانها وحجمها الطبيعيين، وأنها، لوليا، استطاعت من خلال ثقافتها الفنية أن تضيف الروح إلى هذا المشهد الذي أثرى العمل، يؤكد حديثها عدم اعتراض أحد من

Scanned by CamScanner

صناع الفيلم على المشهد، بل وتصميم المخرج على عدم حذف المشهد من العمل.

يظل الحدث مثار جدل في الوسط الفني فترة طويلة، أمر غير جديد على الوسط أن تتحول أخباره وإن كانت تافهة إلى مادة للحديث والقيل والقال، في حال التكرار يضاف إليها ضعف حجمها الأصلي، كل ذلك بطبيعة الحال كان في صالح الفنانة الصاعدة «لوليا عزام».

عن طريق الريجيسير «علي الضبع» تستطيع الحصول على أرقام عدد من المخرجين والمنتجين، تتصل بهم أكثر من مرة، تعقد صداقات ينتج عنها العمل في المرحلة التالية.

بعد أن تركت خضرة المنزل، يبحث عنها زوجها جابر في كل مكان استطاع الوصول إليه، إلا أنه كان يعود في كل مرة منكسرًا، لم يخطر له على بال أنها هربت، كان تفكيره منحصر في اتجاه واحد فقط، أنها تعرضت لحادث ما، صدمتها سيارة، غرقت في النيل، اختطفها المنحرفون ليمارسون معها الرذيلة .. أي شيء إلا الهرب من منزله.

لم يستطع جابر في الأيام التالية الإجابة على أسئلة الجيران التي زادت مع الأيام بسبب الفضول من ناحية وبسبب مبلغ الجمعية التي قبضتها قبل اختفائها.

يدفع جابر المبلغ كاملًا، يؤكد للجميع أنها ما هربت، خضرة ما أخذت مالهم وسوف تعود إليه قريبًا، وكلما مر يوم ساءت حالته وقلت قدرته على المواجهة.

تُشعل بداخله نظرات الرجال على المقهى النيران، يتحاشى الجلوس معهم أو حتى المرور من أمام المقهى، يقتله تفكيره، يجافيه

النوم ولا رغبة لديه أن يتناول حتى كسرة خبز يقيم بها نفسه المترنحة من أثر جهد رهيب.

يرد على خاطره لحظة أن زوجته قد تركته وهربت، إن كان هذا واقعًا فسوف يقتلها، ولكن أين هي؟ يبحث في المستشفيات، أقسام الشرطة، يترك نشرة بأوصافها وعنوانه في هذه الأماكن، تمر الأيام بدون جدوى، إلى أن أتاه سيد المليجي ذات يوم ليخبره بأنه شاهد خضرة مع أحد المخرجين الشبان وهي خارجه من القناة الفضائية التي يعمل بها، يصفها على حالتها الجديدة بشكل مثير جعل الشك يدخل إلى قلب جابر، مؤكد هو يصف فتاة أخرى تشبهها قليلًا، لكنه لم يستطع الفرار من إلحاح تفكيره للتأكد من صدق حديث سيد، فما كان منه إلا أن ذهب إلى القناة الفضائية يرابط أمام مدخلها، يستمر على حالته تلك لعدة أيام كان يعود كل يوم وقد هزل جسده أكثر عن اليوم الفائت، ولكنه لم ييأس.

إن لم يكن جابر كامل الرجولة من ناحية علاقته بزوجته فإنه كان يستعيض عن ذلك بالقوة في مجالات أخرى وأهمها وضعه العام بين أهل الحارة، متجهم .. عنيف حال تعامله، ردوده قوية مقتضبة، لا يقدم خدمات لأحد، علاقاته الاجتماعية محدودة، هذا ما جعلهم لا يشكون مطلقًا في أن يكون هو سبب تأخير حمل زوجته طوال هذه السنوات، بل تعدى الأمر لأن يفعل ما يفعله الأزواج كي يوحي للجميع بأنه يمارس حياة طبيعية، كأن يستريح بعد عودته من عمله ثم يأخذ حمامًا، يصفف شعرة وهو ما يزال مبللًا، يخرج متوجهًا إلى المقهى تفوح منه رائحة الصابون وطراوة الماء، يتناول كميات من العصائر، أو يطلب من

Scanned by CamScanner

المطعم وجبات دسمة نظرًا لما يبذله من مجهود دائم .. إلى آخر هذه الأمور التي يتباهى بها أبناء الحارات فيما بينهم، يصل به الأمر ذات يوم أنه كان يتسامر مع آخرين وتطرق حديثهم إلى العلاقات الزوجية، يتحدث أحدهم عن أن مجهود العمل والهرمونات التي توغلت في الأطعمة والفاكهة، لم يعد يترك للرجال الفحولة الكاملة كالتى كانت موجودة قديمًا، يضيف آخر أن ممارسة الجنس مرة في الأسبوع تكاد تذهب بصحته، من قبل كان هناك من يتباهى بممارسة الجنس بشكل يومي أو يوم بعد يوم، هنا يتحدث جابر هامسًا وبشكل طبيعي أنه يمارس الحب مع زوجته بشكل يومي، وفي أيام عندما يكون المزاج رائقًا يمارس العلاقة مرتين وثلاث.

يُدهش الأصدقاء، يمعنون فيه النظر، تعلوهم أمارات الريبة، يحاول أحدهم في الأيام التالية أن يُقلد فحولة جابر، فيزيد عدد الممارسات في اليوم الواحد، يستطيع إتمام العملية مرتين متتاليتين، وبعد عدة محاولات في يوم تالٍ يصل إلى ثلاث مرات وكانت النتيجة هبوط حاد في الدورة الدموية نقل على إثرها إلى المستشفى ليتم إنقاذه، يعود بعد أسبوع إلى منزله مع تحذير شديد اللهجة من الأطباء بالاعتدال في التعامل مع هذه الأمور، يقرر بعدها عدم الذهاب إلى المقهى ومواجهة هؤلاء. كان كلما قابل جابر نظر إليه بغيظ وتمنى لو سنحت له فرصة يرتدي فيها طاقية الإخفاء ليشاهد بعينه كيف يمارس جابر العلاقة يوميًا وأكثر من مرة في بعض الأيام.

على مثل هذه الأمور كان جابر يعيش بين رجال الحارة، لم يعلم أن سره هذا قد اكتشفه أحدهم وهو سيد المليجي، اليوم وبعد هروب

خضرة قد تظهر الحقيقة المُرة التي أخفاها عن الجميع، حقيقة عجزه، وقتها سيقضي على سبب إفشاء سره، خضرة، ثم ينتحر، فلن يستطيع العيش دقيقة واحدة.

في الفترة التالية، العثور على خضرة كان شغله الشاغل، ليحول بينها وبين إفشاء سره، أو ليقتلها إن هي أصرت على فضحه، يترك تفاصيل الحياة كاملة، يُركز على هذا الهدف فقط.

خضرة لم تكن تعي من ذلك شيئًا، شغلتها حياتها الجديدة، حتى إنها لم تهتم .. أو لنقل .. لم تتذكر سيد المليجي يوم أن اصطحبها ذلك المخرج الشاب في لقاء تلفزيوني في القناة الفضائية التي يعمل بها سيد، الأضواء مبهرة تذهب بعقلها، تلقي بنفسها سعيدة إلى هذه الحياة الجديدة، ترفض، بل توبخ عقلها إن هو حاول تذكر ماضي أيامها، لو تمتلك ممحاة كونية تُمحى بها سنوات الشقاء تلك من صفحات الذاكرة، تمنت بشكل غريب أن تفقد الذاكرة تمامًا، أن تولد اليوم.

رغبتها كانت قوية بشكل ملحوظ، استطاعت، بشكل تُحسد عليه، أن تغلق بأقفال غليظة أبواب ذاكرتها، أن تطلق العنان لخيالها كي تشاهد «الوليا» فقط. لكن هل تستطيع الاستمرار .. هل تستطيع الاختفاء عن جابر إلى الأبد؟

****

Scanned by CamScanner

36

هي لحظة واحدة، أو فرصة واحدة .. تأتي حينما يحين وقتها .. في البدايات أو قد تتأخر حتى النهايات، لكنها آتية لا ريب، لحظة الانتقال .. فرصة العمر كما يطلقون عليها ..

تأتي هذه الفرصة حسام سعد، يقرر أن يستغلها الاستغلال الأمثل، ينهي كل أعماله في البندارية، يستقر في القاهرة مع صديقه ممدوح يعقوب الذي يوفر له كل أسباب العيش المريحة، في أيامه الأولى، لا يفارقه لحظة، يتجول به بين المطاعم والأندية والسهرات، حسام يسير في ركابه مفتونًا بكل شيء، لا يعترض مطلقًا على توجيهات ممدوح إلا أمرًا واحدًا كان دائم الاعتراض عليه، وهو أنه لن يذهب بصحبة ممدوح في أي مكان يتواجد فيه السيد الوزير خشية أن يرغبه، وقتها سيسبب رفضه الكثير من المشكلات هما في غنى عنه. في المقابل لم يكن ممدوح ليترك أمرًا مثل هذا ليحدث، فيفقد مصدر قوته، إنه لم يفكر مطلقًا في أن يعرض حسام على الوزير، لذا يقبل رفض حسام على أنه تلبية لرغبته.

بعد أن تستقر بهم الأمور، تهدأ دهشة حسام، وهنت حماسة ممدوح وتقمصه لدور الأستاذ، يبدأ خطاه إلى ما كان يصبو إليه، يستعرض الكثير من الأمور أمام حسام وكأنه يُخرج ما بداخله من هموم لصديقه، لكنه باستمرار لا يصل إلى حد التصريح المباشر بعمليات الآثار أو السلاح. يشرح الأمر على أنه يفتقد شيئًا ما، إنه يمتلك كل ما يحلم به أي شاب، لكنه ما يزال يشعر بهذا الفقد، لا يعلم كيف يكون الغد، لماذا تتوقف به سفينته عن هذا المكان، سفينته المحملة بالكنوز؟!

بعد أيام، يقرر حسام في شيء من الخجل، أن سبب حيرة ممدوح وعدم قدرته على تخطي هذه الدرجة التي يقف عندها من سنوات هو مستوى تعليمه المتوسط، إن حصل على الشهادة الجامعية تفتحت له أبواب شتى للانطلاق، الحصول على الشهادة الجامعية اليوم لم يعد يمثل مشكلة كما كان في الماضي، إنها اليوم تباع في الجامعات الخاصة أو حتى الحكومية من خلال المعارف والعمولات المادية المجزية والتي لن يبخل بها ممدوح بالطبع.

دُهش ممدوح من بساطة الفكرة وعبقريتها، يقرر أن يتقدم بأوراقه إلى الجامعة، يقدم الهدايا والعمولات والتسهيلات التي يمتلكها في الوزارة، لن يبخل بشيء يستطيعه في سبيل الحصول على الشهادة الجامعية، وقتها سيطلب من معالي الوزير أحد المناصب القيادية في الوزارة، مؤكد سيوافق، كلها سنوات ويصل إلى درجة وكيل الوزارة، يصل في أحلامه إلى مرحلة تنظيم الأوراق وترتيب العلاقات للوصول إلى كرسي الوزارة .

Scanned by CamScanner

الشكوى الثانية التي تؤرق ممدوح يعقوب هي الوصول إلى هناء السعيد، يصارح حسام بالحقيقة، يخبره بأنها فعلًا استعصت عليه، يفكر حسام في الأمر، ثم يُعرب عن صعوبته، على ممدوح أن يؤجله إلى حين حتى يحتل مرتبة أعلى تسعى هي وقتها إلى إرضائه، لكن ممدوح لم يقتنع بذلك، يطلب من حسام بشكل مباشر أن يجد له حلًا مناسبًا لهذه المشكلة، إنه يريد هناء السعيد بالذات واليوم قبل الغد وبأي ثمن.

فى اليوم التالي يُقبل حسام سعيدًا على ممدوح، لقد توصل إلى الطريقة التي تجعل هناء السعيد تحت أمره، خطة حسام تحتوي على عدة خطوات لم يسردها كاملة لممدوح، كي لا ينفذ ممدوح مخططه بعيدًا عنه.

الخطوة الأولى عبارة عن كارت من السيد الوزير موجه إلى توفيق مراد وعليه عبارة «الاهتمام بحامله». وهذا أمر يسير بالنسبة لممدوح، يأتي له بالكارت المطلوب والممهور بتوقيع معالي الوزير، يحمل حسام الكارت ويطلب مقابلة توفيق مراد الذي ما إن يعرف أنه من طرف الوزير حتى يقابله عند باب الحجرة ويجلسه بحفاوة.

يطلب حسام من توفيق أن يتيح له الفرصة لتقديم برنامج في القناة يكون مضمونه النصائح الطبية والتداوى بالأعشاب.

لم يكن مثل هذا الأمر صعبًا على حسام، أي معلومات طبية يقدمها في البرنامج ستكون مهمة بالنسبة للجماهير. يفكر توفيق مراد قبل أن يوافق معلقًا أن مثل هذا البرنامج فرصة لتقديم العلاج لغير القادرين من أبناء الشعب والذين لا يستطيعون الوصول إلى الأطباء، خاصة الأطباء ذوي الأجور المرتفعة، ذلك من خلال الاتصالات التليفونية

والرسائل القصيرة التي سوف تعود على القناة بهامش ربح كبير، الفقير يستطيع دفع جنيهات في الاتصال التليفوني بدلًا من فزيتة أحدهم، ما أكثر الفقراء وما أكثر المتعلقون بالأوهام، لتحصد مثل هذه القنوات الملايين.

يضمن نجاح البرنامج نجاح وشهرة حسام سعد، مما يرفع قيمته في الأوساط الطبية، كان هذا هو هدف حسام الخفي، أما هدفه الظاهر الذي أعلنه لممدوح يعقوب هو أن يكون قريبًا من هناء السعيد والتي ستتعامل معه بلا شك كطبيب، وقتها سيبذل حسام كل شيء لتكون هناء تحت أمر صديقه ممدوح.

فى الأيام التالية تبدأ مرحلة التجهيزات، يصدر توفيق قراره بتشكيل فريق عمل للبرنامج الجديد الذي سيكون بطله الدكتور حسام سعد، حسام يطلب بجرأة من توفيق أن يُسهل له مقابلة هناء السعيد كي تدربه على مواجهة الكاميرا، طريقة الأداء، وغير ذلك مما تتميز هي به ووصل بها إلى هذه النجومية، إنه يود لو تعلم هذه الأمور على يد توفيق مراد، لكنه يعلم مدى انشغاله، يتقبل توفيق الأمر، يرسل في طلب هناء السعيد، يتم التعارف حيث سيدخل البرنامج الجديد ضمن برامج الإدارة التي تولتها هناء مؤخرًا.

تتقبل هناء حسام بصفته طبيبًا سوف تستشيره، إنها لا تجد الوقت الكافي للذهاب إلى الأطباء بالإضافة إلى توفير المال. ثم إن تعامل حسام معها يتميز بالرقي، لقد استطاع بما يمتلك من ذكاء أن يضع نفسه

Scanned by CamScanner

في مكانة موازية لهذه الطبقة، يجلس بطريقة خاصة، يصافح بشكل مميز، يقدم الهدايا في وقتها، يوزع الابتسامات، يقدم النفحات للعمال.

لم يذكر حسام اسم ممدوح أبدًا أمام هناء السعيد، يدرك أن ذلك سيكون نهاية علاقته الناشئة بها. تبدأ حملة إعلانات عن البرنامج الجديد تقديم الدكتور العبقري «حسام سعد» الحاصل على عدة شهادات من أمريكا وعدد من الدول الأوروبية، كان هذا اقتراح «توفيق مراد» كنوع من الجذب للإعلانات، يتحقق له ما أراد، تتوافد الطلبات لحجز المساحات الإعلانية قبل بدء إذاعة البرنامج، يتم الاتفاق مع شركات الاتصالات من أجل توفير الخطوط وتوفير أرقام استقبال الرسائل القصيرة وذلك من خلال نسب مالية مرتفعة للقناة.

تتولى هناء السعيد كافة الأمور الخاصة بحسام سعد من حيث المظهر العام، الابتسامة على الشاشة، تخبره بأنهم يطلقون عليها «الطلة» .. تتحدث مثل معلم أمام تلميذ نجيب عن القبول عبر الابتسامة الحنون، الأخوية .. يجب أن يتلقى الصدمات بنفس الابتسامة العريضة .. بعد فترة وجيزة تجعل من حسام مقدم برنامج ناجح وليس طبيبًا متخصصًا.

ممدوح يعقوب يراقب على جمر يقض مضجعه حسام سعد، ينتظر تحقيق حلمه، يساعده من جانب آخر حيث الاتصال بالصحافة التي تنشر أخبار الدكتور حسام وعناوينه وأماكن تواجده، كي يرفع من شأنه داخل المجتمع، ارتفاع تابعه يرفع من شأنه بلا شك. فإذا شارك حسام في أي عملية جراحية يتم نشر الخبر مع الصور بأن الطبيب الشاب قد أجرى جراحة من أصعب العمليات الجراحية في البلاد.

خدمات مثل هذه يقدمها الصحفيون ببساطة، لا تكلفهم شيئًا في مقابل ما سيعود عليهم من مكاسب منها وصولهم إلى هذا الطبيب بلا مقابل، بالإضافة إلى ما يقدمه ممدوح يعقوب، حيث توفير الفرصة لإجراء الأحاديث الصحفية مع السيد الوزير، طبيعي أن يكون خلف هذه اللقاءات مكاسب أخرى بالنسبة لهؤلاء الصحفيين.

أيام قليلة تمر يتحول خلالها حسام سعد إلى أحد نجوم المجتمع، يرتفع سعره بشكل أسطوري، تطلب دار نشر كبرى تحويل حلقات البرنامج إلى كتاب ضخم يباع في الأسواق.

يطلب ممدوح من حسام أن يترك كل شيء ويهتم بأمر هناء السعيد، إنه يريدها في أقرب فرصة. أصبح حسام في وضع يمكنه من التمرد ضد ممدوح ووزيره، لكنه أجبن من أن يخطو مثل هذه الخطوة، بالإضافة إلى أنه كان يشتهي هناء السعيد، ومَن لا يشتهي هناء، لم يكن يحلم يومًا وهو في قريته بلقاء عابر معها في الشارع، اليوم أصبح على نفس المستوى، بل هو صاحب شهرة إعلامية مطلوبة ومدفوعة الثمن، خبرته الطبية تقدر اليوم بالكثير، يقصده نجوم المجتمع من الفنانين ولاعبي كرة القدم ورجال الأعمال، فلا غرابة بأن يشتهيها، بل لو طلبها لأتت ببساطة ويسر، لكنه يخشى ما في الغد، يريد أن يتذوقها مرة واحدة.

يقرر أن ينصب لها شركًا كي يحتويها، يمتص رحيقها ثم يتركها لرفيقه ممدوح يعقوب. الأمر بالنسبة له بسيط جدًا، يبتسم في سعادة، يقرر أن ينفذ خطته خلال أيام.

***

Scanned by CamScanner

37

كان طلب توفيق مراد من هناء السعيد إقامة حفل بمناسبة ترقيتها بمثابة الأمر، خصوصًا وأن نوعية الضيوف الذي كان يُصر على حضورهم الحفل من الأفراد الذين يضمنون له ترقيات ومكاسب أعلى مما هو فيه اليوم.

تدرس هناء الأمر بشكل جيد، لكنها تقرر ألا تكون أداة طيعة في يد «توفيق مراد» فأظهرت نوعًا من التمرد ظهر بمرور الأيام وعدم اتخاذها أية خطوات إيجابية بشأن الحفل، يستدعيها توفيق إلى مكتبه، يحدثها في الأمر بشكل مباشر، لم تجد فرصة للمراوغة، تقترح أن يقام الحفل مع الحفل السنوي للقناة، الذي يقام في يوم ميلاد القناة السنوي، بذلك يكون الحفل أكثر بريقًا، حجتها في ذلك، والتي يقتنع بها توفيق مراد، أنها لا تريد أن تخصص لها حفلًا بمناسبة ترقيتها كي لا تثير ضدها أحقاد الحاسدين، وهم كُثر، تقول ذلك وتغمز بعينيها مع ابتسامة زادتها جمالًا وإثارة.

المفترض أن يقام احتفال القناة بعد عدة أسابيع، هو موعد بالنسبة لتوفيق مراد متأخر جدًا، يوافق بعد أن يُقنع نفسه بأنه خلال هذه الفترة يكون قد استعد جيدًا وأعاد ترتيب أوراقه.

قبل أن تخرج هناء السعيد من مكتب توفيق مراد، تميل هامسة بأنها لاحظت نظرات حاقدة في أعين الكثيرين في القناة، لكنها لم تستطع تحمل نظرات «مختار محفوظ» على وجه الخصوص، لا سيما وأنها سمعت شائعة قد يكون مختار هو مصدرها، الشائعة تقول بأنها، هناء السعيد وهو، توفيق مراد، قد تزوجا عرفيًا.

يتفرسها توفيق لحظات، لا يعلم كيف داخله، ارتباك أم سعادة، أم روح مغامرة تتقمصه، يقف ليدور حول المكتب، يشرد لحظات، يتناسى الشائعة بشكل أظهره دعابة وهو يعلق:

- والله فكرة، هيا ننفذها ..

تشعر هناء بالحنق من حالة اللامبالاة التي يرسمها على وجهه، تظهر غضبًا مضاعفًا وهي تعلق:

- طبيعي أن يكون رد فعلك هكذا .. أما عندي فالأمر فظيع.

يعود توفيق إلى سيرته، يؤكد أنه يداعبها فقط، أما مختار صاحب النظرات التي تضايقها وصاحب الشائعة فلن يفلت من العقاب، يشد على يديها مؤكدًا ذلك إلى أن عادت هناء إلى سيرتها من البشاشة.

هناء .. منذ أن تمت ترقيتها وهي ترتاب في كل مَن حولها، نظراتهم نحوها تحمل ألف معنى، أحقادهم سهام تصيبها، خاصة ممن تعتقد

Scanned by CamScanner

أنهم أحق بهذا المنصب منها، على رأسهم «مختار محفوظ» .. ترغب في إقصائه عن طريقها بسرعة وبأي شكل، في هذه اللحظات تستغل احتياج «توفيق مراد» إليها، تطلب منه ذلك بجرأة شديدة، أرادت أن توغر صدره ضده فحدثته عن شائعة الزواج العرفي التي وصلتها من خارج القناة عن طريق مكالمة تليفونية ليلية من صديقة أرادت التقرب لها فحدثتها بشأنها من قبيل التحذير، إلا أنه قابل انفعالها ببروده المعتاد ثم تفاعل مع الموقف.

الآن تجلس هناء، وقد أصرت على معرفة ما سيفعله مع مختار محفوظ، يحدثها بهدوء أصحاب المهارة في فن الإدارة، بأن الأمر لابد وأن يتم بهدوء شديد، من بعيد، ليس من خلاله بشكل مباشر. يطلب منها أن تتركه عدة أيام، بعدها سوف تشاهد النتيجة بنفسها.

تغادر مكتبه بعد أن تشد على يديه في دلال، وهي تؤكد عليه ضرورة أن يكون ذلك قبل الاحتفال الكبير، يطمئنها، يعود إلى مقعده الوثير وما تزال حرارة يديها تسري في جسده، يجلس ليفكر في الأمر مليًا.

ما تطلبه هناء من إقصاء مختار عن طريقها هو أمر يسير، لكنه بالفعل يود لو يجعله في صورة تبدو منطقية، بعد دقائق قليلة، يرفع سماعة التليفون، يطلب الصحفي نجيب سالم، يرحب به بحفاوة وسعادة طفولية تتنافى تمامًا مع ما كان عليه مذ لحظات، يدير دفة الحوار بهدوء المحترفين حتى يجعله يسرد رأيه في برامج القناة، بعدها وبمهارة شديدة يوجهه إلى البرنامج الأهم في حياة مختار محفوظ.

نبرة صوت توفيق توحي بامتعاضه من البرنامج مما جعل نجيب يجاريه في الرأي معلقًا بأن هذا البرنامج لم يعد بالقوة التي كان عليها في البداية، من الأفضل رفعه من خريطة القناة، الغريب أن يكون هذا هو رأي نجيب سالم الذي لم يشاهد البرنامج من قبل، اللهم لقطات سريعة بالمصادفة، حينما يشعر بهذا الضجر البادي على صوت توفيق، يطلب منه أن يُوقف هذا البرنامج، يتصنع توفيق الأسى، يرغب في ذلك لكنه يتركه فقط من قبيل الشفقة، يدرك نجيب رغبة توفيق الداخلية، لكنه يحتاج إلى مَن يعزز هذه الرغبة، رأي قوي مثل رأيه يستند عليه الرجل لحظة دفاعه عن قراره، يقول بمنتهى الثقة:

- طريق النجاح لا يجب أن تتواجد فيه عثرات شفقة يا عزيزي.

قبل أن ينتهي الحوار يطلب من توفيق موافقته على خطوة جريئة سوف يقوم بها، يطلب من القسم الفني بالجريدة التعليق على هذا البرنامج بشكل نقدي شديد اللهجة، وسوف يكون ذلك على خلال أيام متعاقبة، وهناك أصدقاء في صحف أخرى ينتظرون إشارة، هنا يوافق توفيق من منطلق أن حرية النقد مكفولة للجميع.

بعد يومين كان هناك مقال شديد ضد برنامج مختار محفوظ، يطالب توفيق مراد بالتحقيق في الأمر وكأنها جريمة وليس مجرد رأي يحتمل الصواب والخطأ، يتعامل توفيق مع الأمر بشدة وكأن كارثة حلت بالقناة، مما جعل الكل يتجنب المناقشة معه، بعد أيام كانت اللجنة

Scanned by CamScanner

المشكلة للتحقيق في الموضوع قد تلقت الأوامر غير المعلنة بأن تدين مختار محفوظ، وتوصي في النهاية برفع البرنامج من الخريطة.

ينظر مختار لما يحدث بدهشة، وقوفه وحيدًا في الساحة بلا سند جعله يلتزم الصمت، لكنه الصمت الذي يخفي تحته بركانًا شديد الغضب، يستمر صمته عدة أيام إلى أن يأتي قرار رفع البرنامج.

تظهر هناء السعيد رفضها لم يحدث، لكنها سياسة قناة، ثم تغلق خلفها باب مكتب توفيق مراد فتتغير ملامحها الحزينة إلى سعادة حقيقية، تقدم آي الشكر، تُثني على مجهوده وحسن تصرفه في الأمر، تعده بأن تبذل قصارى جهدها كي تجعل من الحفل الكبير مسرحًا لمكاسب شخصية لم يسبق لها مثيل وإن قدمت في سبيل ذلك الكثير مما تملكه.

الأمر لم يكن في مجمله غير برنامج تم رفعه، وطبيعي أن يكون هناك آخر بديل، لكن لم تكن تلك الرسالة الحقيقية خلف ما حدث، الرسالة يستشعرها مختار منذ فترة، يعلم جيدًا أنهم يرغبون في إزاحته بشكل كامل، ولما كان هو أقرب إلى اليأس منه إلى الأمل، ضعف وهزال فقد العمر، زهد في كل شيء، فقد انسحب بهدوء شديد، يعود إلى منزله، يُغلق عليه بابه لمدة ثلاثة أيام، لم يتصل به أحد من زملائه معتقدين أنه يجب أن يبتعد كي تهدأ أعصابه، لكنها لم تهدأ مطلقًا، يُزيد من لهيبها مجموعة الشباب من مريديه عندما قاموا بزيارته وعلموا ما حدث له، كانت هذه بالنسبة لهم القشة التي قصمت ظهر البعير، والتي عجلت باليوم الأخير.

38

بدأت إعلانات الأعمال الفنية التي شاركت فيها لوليا عزام في الظهور على شاشات التليفزيون، كدعاية عن موعد العرض في دور السينما، ولما كانت إعلانات الأفلام تعتمد بشكل أساسي على اللقطات المثيرة جنسيًا أو الكوميدية التي تحتوي على إسفاف لإثارة المشاعر وجذب الجماهير، فقد أتاحت الفرصة لظهور لوليا، التي بدأت، بل وصُنّفت على أنها فنانة إغراء وإثارة، فظهرت في معظم إعلانات الأفلام .

يشاهدها جابر، يكذب عينيه، يفركها عدة مرات حتى يتيقن من الأمر، يؤكده الجيران وهم يطرقون بابه كأنهم عشروا عليها وأتوا بها،حتى سيد المليجي، أتاه ليخبره أنه كان صادقًا عندما شاهدها بصحبة شاب خارجة من القناة التي يعمل بها.

مع كل كلمة يتحدث بها أحدهم إلى جابر بشأن خضرة وما ظهرت به على الشاشات، وبعضهم كان يتحدث ولا يستطيع إخفاء شهوته،

Scanned by CamScanner

كان جابر يحترق مع كل كلمة، كل حرف هو بمثابة سكين يمزقه، يحترق داخله وعزمة على الانتقام منها أصبح أكيدًا حتى لو فقد حياته.

يُهمل جابر عمله ونفسه، يترك كل شيء خلفه، ينطلق بقوة ثور هائج، يبحث عن خضرة وسكين حاد لا يفارق جيبه، يتجول يسأل عنها في كل مكان يعلم أنه يجري فيه تصوير عمل فني، يسأل عن خضرة، لم يدرك في ثورته وغضبته أن لها اسم آخر، لوليا عزام، يستشهد بأدوارها في الأعمال الأخيرة، يقابله رجال الأمن بشدة مهددين إياه باستدعاء الشرطة، يعلمون أن هناك فئة مهووسة بالفنانات ويبحثون عنهم.

لم ييأس، حماسه دائم الاشتعال، ترك تفاصيل حياته كاملة، فلم يعد يذهب إلى المقهى أو يستقبل أحدًا في منزله، يخرج مع نزول الليل ليعود مع البدايات الأولى للصباح، يذهب في نوبات بين النعاس والإغماء، طال شعره وتشعث، دمت عيناه، كان في قرارة نفسه لا يريد أن يعيش، لم يعد يمتلك ما يعيش من أجله، حتى شرفه وبقايا السمعة الحسنة افتقدهما، إلا أنه قرر ألا يترك سبب شقائه ينعم بحياته، لابد من قتل خضرة أولاً ثم الانتحار. سوف يلقي بنفسه في النهر من أعلى كوبري قصر النيل، لقد شاهد أحدهم يفعلها من قبل. ترى هل ما فعلها قبله هجرته زوجته ولوثت شرفه مثله؟

لم يكن له صديق يفضي إليه بسرائر نفسه، لذا كان يتحطم مع مرور الوقت، لم يجد مَن يخفف عنه أو مَن يقول له بأنها هي المذنبة وأنها لا تستحق أبدًا أن يخسر نفسه من أجلها، لو أخبره أحد بأن أفضل عقاب

لها هو تركها تزداد غرقًا في مستنقعات الرذيلة، لارتاح الرجل. لم يستمع إلى مثل هذه الكلمات التي من شأنها أن تخفف عنه، إلى أن أتاه سيد المليجي ذات يوم ليهمس إليه بالخبر الذي سمعه اليوم في القناة، سوف يُقام احتفال كبير في القناة بعد أيام وسوف يحضره الوزير وكبار رجال الدولة ونجوم الفن ومن بينهم النجمة الصاعدة لوليا عزام «خضرة». سيد لم ولن ينسى ما فعلته خضرة معه ومع نعمة أمام المارة، ولن ينسى تجاهلها يوم أن زارت القناة كنجمة صاعدة، لم يتحدث مع نعمة عن تلك التغييرات التي حدثت في حياة خضرة، لكنه سوف يتحدث بكل شيء يوم سقوطها على أيدي جابر..

تظهر ملامح السعادة الشرسة على وجه جابر، فها هو أخيرًا يقترب من تحقيق هدفه، عليه الآن تدبير خطة محكمة للانتقام.

هناك وفي غرفتها المتواضعة في شقتها التي استأجرتها، تجلس لوليا عزام، ترتدي قميص نوم قصير وردي تتناثر عليه فراشات زرقاء وفيروزية، جسدها ما يزال يحتفظ بتفاصيل العذرية، لم يُدهس تحت عنفوان رجولة ونزوات العشق، عجز زوجها تركها جسدًا مشتعلًا باستمرار.

الآن تبتسم بسعادة وهي تشاهد نفسها في المرآة، مجرد إجراءات بسيطة مع بعض الكريمات والمساحيق أعادت لهذا الجسد روعته، فتنته، تلك الميوعة التي تعلمتها في الحوار والحركات لم تكن تجهلها، فقط كانت تخشى الإفصاح عنها في تلك البيئة التي كانت تعيش فيها.

Scanned by CamScanner

يرن هاتفها المحمول، توفيق مراد، تتركه حتى ينتهي الرنين، ليست المرة الأولى أو حتى العاشرة التي يطلبها فيها، في البداية كانت تجيبه في سعادة، يتطرق في أحاديثه معها إلى منحى جنسي، يعشق تلك العبارات والكلمات الفاضحة، رغم ظهوره بمظاهر أخرى في مواقف أخرى، تجاريه مرة وتجافيه مرات، لا يجب أن تكون صفحة بيضاء يخط عليها كل مَن يريد ما يريد.

تهاتف صديقتها صاحبة محل الكوافير، تخبرها بشأن توفيق مراد وأحاديثه الجنسية، تضحك الصديقة قائلة:

- لا يضر يا حبيبتي .. ليكن .. سجلي له تلك المكالمات .. سوف يأتي يوم نحتاج إليها.

تشهق لوليا رافضة ذلك، تخشى أن يُفضح أمرها ويأتي الفعل بنتيجة عكسية، لو علم توفيق ذلك لأعلن الحرب عليها وهو ليس سهلًا، بعد ساعة تنتهي المكالمة التي تطرقنا فيها إلى مناطق كثيرة، تأتي لوليا بمشروب دافئ، تتمدد على سريرها، تعجبها فكرة التسجيل لتوفيق مراد، سوف تجرب ذلك، لن يعلم أحد على الإطلاق ما ستفعله، سوف تحتفظ بالتسجيل في مكان خاص جدًّا، عليها فقط أن تستدرجه بهدوء، أن تشرح له كيف هي الآن وماذا ترتدي، سوف تخبره بأنها أضعف من أن تقاوم شراسته.. إنها تصرخ من فرط النشوة .. تتحول كتلة من اللذة المصهورة إن كانت بين يديه ذات يوم .. و..

وسوف يسقط لا شك.

***

39

يتفانى الكثير من أصحاب المناصب، لا لأن المسؤولية كبيرة وتتطلب ذلك، إنما لإثبات أنهم جديرون بهذا المنصب، حتى إن بعضهم يتفانى في إظهار عيوب ومساوئ منافسيه بغض النظر عن الارتقاء بتفاصيل عمله، ثم تأتي بعد مرحلة تثبيت الأوضاع مراحل أخرى خلفيتها الاستفادة القصوى.

نتيجة التواجد المستمر في العمل إبان مرحلة تثبيت الأوضاع تشعر هناء السعيد بشيء من الإرهاق، موقعها الجديد كان يتطلب منها جهدًا مضاعفًا لإثبات الذات، وكسر كيد الحاقدين على عتباتها، ينتج عن هذا الارهاق صداع مستمر.

تغلق باب مكتبها، تطلب من العامل، بعد أن يضع فنجان القهوة، ألا يزعجها أحد لمدة نصف ساعة مهما كان هو، يوافقها مخفيًا دهشته في صدره، تخلع نعليها، تسحب «الجيب» إلى أعلى قدر المتاح، تفرد ساقيها العاريتين فوق مقعد مجاور، تحتسي القهوة بهدوء.

Scanned by CamScanner

تتذكر بداية عملها كمذيعة ومحاولة إثباتها لذاتها لاحتلال موقع بين المذيعات اللامعات، لم يكن يؤرقها وقتها غير طلب زوجها أيمن لها كل مساء تقريبًا، يعاشرها إلى حد الإرهاق، بعد فترة استطاعت أن تعمل حتى وقت متأخر حتى ييأس من انتظارها وتهزمه جنود النوم فتسلبه قدراته.

حتى كان ذلك اليوم الذي يواجهها فيه بأنها تتهرب منه، وكان هذا ما تنتظره هناء، احتدام الخلاف بينهما، رفضها طلباته، هروبها منه، انشغالها المستمر في عملها، كل ذلك كان مصدره عقلها الباطن حتى تصل إلى ذروة الصراع.

يواجهها أيمن، بعيون متنمرة، معترضًا على عملها الذي أصبح يأخذها أغلب ساعات اليوم وتعود بعد انتصاف الليل أو قبيل الفجر مرهقة لا جدوى منها، تنظر إليه بعيون لبؤة غاضبة.. «لا جدوى» .. الجدوى من هناء السعيد تكون في فراشك فقط يا هذا..؟! لا جدوى لمثلي إلا أسفلك؟! تبًا لك ولكل مَن هم على شاكلتك. تماسكت والتزمت الصمت لحظات، تحاول بقدر الإمكان ألا تنهار وترتكب حماقة، يجب أن ينزلق هو إلى ذروة الانفعال ويطلب النهاية.

يثور أكثر أمام صمتها ونظراتها الناقمة، يطلب منها بشكل مباشر ترك العمل، الأولوية لبيت الزوجية لا العمل، هنا ضحكت هناء السعيد ساخرة وهي تستبدل ثيابها، تلقي بنفسها على السرير وهي تكتم سعادتها بداخلها، فها هي ترى بداية انفراج أزمتها، وأيمن هو أزمتها في هذه الأيام.

ترفض بهدوء شديد، قالت في تحدٍّ شديد:

- عملي هو الأول وبيت الزوجية الهش الذي تتحدث عنه، هو التالي في أولويات حياتي .

يتراجع مخذولًا، يجلس بجوارها فوق سرير شهد لذاته وروعاته، تتكمش هناء متحاشية يديه إن هو حاول لمسها، لكنه لم يفعل، فقط يحدثها عن المستقبل وأنها من المفروض أن تترك وسائل منع الحمل ليرزقا بالأبناء، تزداد سخريتها كي تتعقد الأمور أكثر، تقول:

- لا رغبة لي في أبناء يمثلون عقبة في طريقي.

بداخلها كانت تخشى أن تظلم أولادها إن هي أنجبت، تعلم أن عملها لن يتيح لها فرصة تربية الأبناء بالشكل الأمثل، يضاف إلى ذلك أنها لا تريد من أيمن أولادًا، لكنها بهدوء قالت بأن الأولاد «عقبة» .. تقول ذلك أمام رجل يحلم بأن يكون « أب « رجل ينتظر حمل أطفاله على صدره وتقبيلهم ومشاركتهم كل لحظات حياتهم، ثماره تنبت وتنمو أمام عينيه، قالت ذلك ساخرة، يصل إلى مرحلة الانفعال الشديد، يتحرك في الغرفة مثل أسد ثائر، تراه ضبعًا يترنح..

أخيرًا ينطق بالكلمة التي انتظرتها طويلًا، يقول مهددًا إياها:

- إن لم تتركي العمل سيكون الطلاق هو النهاية الحتمية لعلاقتنا.

هنا .. وبمنتهى الدهاء، تنهار هناء، تتصنع الدهشة الشديدة، مهما حدث بينهما لم يكن له الحق في أن ينطق بذلك، تتمسك بكلمته، أما وقد قالها فهي النهاية التي لا مفر منها، قالتها بحزم وهي تتوجه إلى حقيبة تجمع فيها ثيابها:

- ليكن الطلاق يا أيمن.

Scanned by CamScanner

تحـزم حقيبة ثيابها، ترتدي ثوبًا خفيـفـاعلى عجل، يتأملها زوجها مندهشًـا، كيف تصعدت الأمور بهذه السـرعة إلى تلك النقطة..؟! مثل طفـل بليد يتابعها لا يقوى على متابعة الحديث، لا يقوى على رفع يديه ليمنعها، ذراعاه مهدلان إلى جانبيه وكأن قد عَلِقَ بهما ثقل كبير. تخرج هناء بلا كلمات، تنطلق إلى أحد الفنادق.

يلقـي أيمن بجسـده فـوق حافة السـرير مع صوت صفـق الباب، لا يملـك القـدرة علـى التفكير بشـكل منتظم، رأسـه مقـر لماكينات حفر ودق عملاقـة، طنيـن يدق أذنيه، ماذا فعل؟ لم يجـدر به أن ينطق بكلمة الطلاق، كل الأمور من الممكن أن تُحل بهدوء، كان عليه أن يتماسـك بعض الشـيء، مؤكد سيجد حلًا يرضيها، تبًا لذلك العقل الذي يتوقف فـي لحظات غافلًا عن حقائق سـاطعة أمامه. بعد سـاعة يقـر أن يتركها الليلـة كي تهـدأ، وفي الغد يكون لـه معها حديث جديد، سـوف يكون ذلك الرجل الهادئ الباسـم، يتفقان على نظام لا يرهقها ولا يمنعها عن عملها، أما عن رغباته، سوف يجد طريقة لإرضائها.

في اليـوم التالي، وقبل أن يبادرها بالاتصـال، تهاتفه لتخبره أنها في تنتظر تنفيذ قراره الذي اتخذه بالأمس «الطلاق» .

كـم كانت صدمته، ما سـهر فيه ليلة ينظمه مـن كلمات وأفكار يتناثر في الهواء، يستمع إلى صوتها في التليفون وكأنها سيدة أخرى غير تلك التي عاشـرها من قبل، شرسة، ناقمة، وكأنها لا تتذكر لحظة واحدة مما كان بينهما.يتصـل بصديقـات وأصدقاء فـي محاولة لإقناعهـا بالعودة إليه، لكن موقفها ثابتٌ واضحٌ لا يتغير «الطلاق» ولا بديل عنه.

يقدم الكثير من التنازلات حتى إنه يوافقها على تحقيق كل رغباتها، سـوف يشـتري لها سـيارة جديدة، يكتب شـقة الزوجية باسـمها .. أي مغريات كانت تظهر أمامه .. لكنها كانت مصرة على موقفها.

حتـى كان ذلـك اليوم، كانـا يتحدثان عبر الهاتف، تهـدده بأنه إن لم يطلقها سوف ترفع ضده قضية خلع، وقتها تكون فضيحة له.

هنـا فقط يدرك أنهـا النهاية، يوافـق بعقل ذاهب وجسـد ذهبت عنه نضارتـه، مجهود التفكير والأرق في الأيام الماضية مائل جهد منتصف عمره المنصرم، يطلقها.

لم يطلب منها أن تتنازل عن أي شـيء، إنمـا أعطاها كامل حقوقها، يتعامـل معها بمنتهى الاعتدال علها تعـود إليه، لكنها لم تفعل .. تنطلق في حياتها .. يتلاشى أيمن في دوامات الحياة كأن لم يكن، لا تعلم عنه شيئًا حتى اليوم.

تفيـق من ذكرياتها علـى آلام الصـداع تتزايد، لم تجـدِ القهوة نفعًا، تتصـل بالدكتور حسـام سـعد كي تستشـيره فـي الأمر، يطلـب منها في رفـق أن تمر عليه فـي عيادته كي يفحصها بشـكل أدق، كانت تعتقد أنه سيخبرها باسم صنف دواء تشتريه وينتهي الأمر، لكنه يطلبها في عيادته، بعـد لحظـة تفكير توافقه، تخبره بأنها سـوف تمر عليه بعد سـاعتين من الآن، تتحـدث بهدوء كـي لا يزيد ألمها، تنهي الحوار، تمارس تفاصيل عملها على مضض حتى تنتهي، تحمل حقيبة يدها وترحل متوجهة إلى عيادة الدكتور حسام سعد. إلى مجهول لا تعلم تفاصيله.

Scanned by CamScanner

40

بسبب حالة عدم الاستقرار التي يعيشها ممدوح يعقوب، رغباته الداخلية في الانسلاخ عن معالي الوزير، جنونه بالسيطرة على هناء السعيد، بدأت علاقته بالسيد الوزير تفتر قليلًا، لم يعد فيها الحميمية المعتادة بينهما. يقابل ذلك رغبة عند معاليه، يود لو يبحث عن فتى آخر له مذاق جديد، سوف يُبقي على ممدوح للأزمات، وأيضًا لتفانيه في العمل، أصبح منخرطًا اليوم في تفاصيل الصفقات الخفية سواء في الآثار أو السلاح، وسوف يظل الورقة التي سيضحي بها معاليه في حال تعثرت الأمور وتُكشف أمره.

أكثر ما كان يشغل ممدوح هو الانتقال بحسام سعد إلى عالم آخر، يقدم له كل ما يستطيع، حتى يُصبح خلال أيام قليلة أحد نجوم المجتمع، في المقابل استطاع أن يتخذ منه العقل المدبر الذي يوجهه إلى عمليات ومراحل لم يكن يستطيع الوصول إليها بمفردة، من ذلك وصوله إلى هاني الغريب ابن عبدالقادر الغريب، ذلك عندما طلب

هاني الدكتور حسام سعد لعيادة والدته المريضة، يستطيع خلال هذا اللقاء أن يوطد صلته به، تتكرر الزيارة حتى تُشفى السيدة تمامًا، يتقرب أكثر منه بعدما يعطيه زجاجة صغيرة بها عقار خاص قوي المفعول، قطرات صغيرة منه تضاف إلى كوب عصير تعيد فتوة الشباب والتحليق في فضاء الكون، لا توجد له على الإطلاق أيُّ آثار جانبية، هو عقار طبيعي بشكل تام. يجرب هاني المنتج .. يشعر بشيء رهيب يحدث له، شيء مغاير تمامًا لكل ما حدث له من قبل حال تعاطيه منشط ما أو مقوي عام، يجعل حسام من زمرة المقربين إليه.

بعد أيام يطلب حسام تحديد موعد لمقابلة هاني وبصحبته صديق عزيز، يقصد ممدوح يعقوب. في هذا اللقاء يتم التعارف، يُقدم ممدوح على أنه العقل المدبر لكل تحركات معالي الوزير، هو الرجل الخفي، لكنه اليوم يود لو يستطيع دخول عالم الأعمال كما دخله من قبل أمجد رزق.

لم يكن ممدوح ممن يمتلكون القدرة على صياغة طلباته في قالب يبدو ظريفًا ومقبولًا، لذا كان حسام هو المتحدث الرسمي له، توزيع الأدوار جعل ممدوح يبدو في هيئة الرجل المهيب الصموت عميق الفكر، بالإضافة إلى المكانة التي اكتسبها حسام عند هاني، مما جعله يوافق على أن يتيح الفرصة لممدوح، ومعه حسام، في الوصول إلى نادي الكبار، بشرط الوحيد أن يكون شريكًا في المشروع بنسبة خمسين بالمائة، ولكل منهم ٢٥٪، لم يكن هناك وقت للتفكير، يعلن حسام موافقتهم مباشرة.

Scanned by CamScanner

الخطة التي رسمها هاني الغريب في اللحظات التالية، تتميز بالبساطة والهدوء، يتصل برئيس مجلس إدارة إحدى شركات التليفون المحمول، بعد عبارات الترحيب، يطلب منه السماح لصديقه المقرب «ممدوح يعقوب» بالحصول على حق توزيع كروت شحن الخطوط الخاصة بشركته لمدة عام يبدأ في أقرب فرصة، وعن رأس المال يطلب منه فرصة أسبوع واحد للسداد.

فى محاولة لتسهيل الأمر يجعل هاني نسبة الأرباح لصالح الشركة أعلى مما هي عليه بنسبة خمسة بالمائة، يوافق الرجل، أي نسبة مهما كانت فهي لصالحة، والأهم من ذلك هو كسبه عطف عبدالقادر الغريب وابنه والذي سيعود على شركاته بطبيعة الحال بمكاسب كثيرة، يشكره هاني ويُنهي المكالمة.

لم يفهم ممدوح الكثير من تفاصيل المهاتفة وما يرمي إليه الحديث، فكان التزامه للصمت شيء بديهي، لكن حسام يفهم، تظهر السعادة على ملامحه، يقف مبتهجًا ليتبادل أحضان التهنئة،هنا يفهم ممدوح أن الأمر فيه مكاسب كبرى، فيبتسم ويشكر هاني الغريب ويشد على يديه حد التقبيل، يحصل منه على كارت من كروت والده كي يذهب به إلى رئيس مجلس إدارة شركة المحمول في اليوم التالي.

بعد خروجهما يبدأ حسام في شرح الأمر ببساطة، شركة المحمول تبيع كروت الشحن بهامش ربح لا يقل عن ثلاثين في المائة، تأخذ هذه النسبة في الانكماش حتى تصل إلى الموزع الصغير لا تتعدى ٥٪،

ومعنى أن يحصل ممدوح على هذا التوكيل هو حصوله على نسبة لا تقل عن العشرين في المائة من نسبة الكروت، حتى هذه اللحظة كانت علامات البلاهة تظهر على وجه ممدوح، إنه يريد أرقامًا، يريد أن يعرف كم سيكسب؟

يبتسم حسام وهو يلقي له بالخبر، إذا حصلت على كروت شحن في الأسبوع بقيمة مائة مليون فتكون النسبة في هذا الأسبوع عشرين مليونًا، منهم عشرة لصالح هاني الغريب ووالده والمتبقي يتم توزيعه بينهما.

يكاد يطير فرحًا، إنها المرة الأولى التي تأتيه المكاسب بعيدًا عن معالي الوزير، من الآن يستطيع الاعتماد على نفسه والصعود إلى القمة بدون معاليه. الآن تأتيه المكاسب بالملايين بدون أن يدفع جنيهًا واحدًا.!! مجرد مكالمة تليفونية تفعل هذا ؟!

يمارس عمله في هذا المجال، كروت الشحن تخرج من الشركة، يتم توزيعها على كبار التجار في المحافظات ويتم تحصيل ثمنها مباشرة، تجار المحافظات يوزعونها على صغار التجار ويحصلون ثمنها أيضًا، الذي يتحمل عناء الانتظار حتى تتم عملية البيع بشكل تام هؤلاء التجار الصغار الذين يتعاملون مباشرة مع الجماهير.

مع نهاية كل أسبوع يقوم بتوزيع نسبة الأرباح، مجرد ساعة يحصل فيها على حمولة كروت الشحن، من شقته الخاصة التي استأجرها ليستخدمها مقرًا لأعماله الجديدة، يقوم بتوجيه السيارات إلى التجار

Scanned by CamScanner

في المحافظات ويتظر عودتهم بالأموال، يحمل المال، يسدد مستحقات الشركة ثم يوزع الأرباح.

مكاسب كثيرة ظهرت له بعد علاقته بحسام سعد، لكن طلبه الذي يؤرق نومه كان «هناء السعيد»، يأمل أن يحقق له حسام مطلبه، وإن كان يشك في ذلك، لكنه لم يكن يمتلك غير الأمل والانتظار، حتى كان هذا اليوم الذي يأتيه فيه اتصال هاتفي من حسام سعد، يحمل إليه مفاجأة لم يكن يتوقعها على الإطلاق.

***

41

كثيرًا ما نسعى بخطوات جادة على طريق يحمل على بُعد خطوات نهايتنا، لكننا نتحرك بهدوء، يبدو أن رغبات كامنة في الوصول إلى النهاية تسكننا، لا نشعر بها لأننا، وقت حدوثها، نكون قد عبرنا بوابة الخروج.

بمجرد أن يتم تحديد الموعد بين هناء السعيد، وحسام سعد، ينطلق الأخير في مخططه الذي آن له تنفيذه. وتُقبل هناء بخطى ثابتة إلى مكان اللقاء.

يأمر العاملين معه في العيادة بصرف المرضى نظرًا لانشغال الطبيب المفاجئ، سوف يأتي زائر على قدر كبير من الأهمية، لا يجب أن يكون أحد منهم هنا، وإن كان هذا السبب لإقناع المرضى على الرحيل، فكان أيضًا لإضفاء أهمية على طبيبهم، لقد أتوا فعلًا إلى الرجل الذي يقصده الكبار ويسعون إليه.

بعدها يأمر العاملين بالانصراف وتركه وحيدًا في العيادة، يقرر بأن اليومين التاليين أجازة مدفوعة الأجر لسفره إلى الخارج لتسجيل حلقات تليفزيونية في إحدى القنوات العربية.

Scanned by CamScanner

يمارس كل أنواع الترويض النفسي للوصول إلى حالة كاملة من الهدوء والابتسام، الساعة تقترب من الثالثة بعد الظهر، يتبقى على موعد هناء السعيد ساعة واحدة، الاتفاق كان في الرابعة، يشرد بعض الوقت يحاول تقييم الأمور، يُخرج ورقة، يكتب فيها سطرين ثم يطويها ليضعها في جيبه.

يتصل بممدوح يعقوب، يبشره باقتراب دخول هناء السعيد القفص، عليه أن يكون في العيادة في تمام الخامسة والنصف. لا يستطيع ممدوح التعبير عن مدى امتنانه لصديقه بينما تسري بداخله رعشة النشوة المخلوطة بخوف لا يدرك سببه، يحاول الابتسام ليعلن لنفسه اقتراب موعد احتساء كأس النصر، سوف يحتسيه على شرف جسد هناء السعيد، يحاول إطلاق ضحكة شيطانية تتناسب مع الموقف، تخرج مهزوزة كأنها خارجة من شريط صوتي معطوب.

تصل هناء في الموعد، يستقبلها حسام ببشاشة، يقدم لها مشروبًا مثلجًا، يعلل عدم وجود أحد بالعيادة بأنهم في وقت الراحة التي تبدأ من الثالثة وحتى السادسة مساء، لقد انتظر ولم يحصل على وقت الراحة من أجلها، تشكره بابتسامة عريضة، زادتها روعة، تبدأ في عرض شكواها، تصف أماكن الصداع، يتعامل معها حسام كمريضة حقيقية، يخفي نظراته لحظات، يسألها أكثر من سؤال عن العمل ونظام الطعام والنوم، في النهاية يقرر أن ما تعانيه ناتج عن الإرهاق وعدم الانتظام في النوم وتناول وجبات الطعام، هذا سينتقل بها إلى مرحلة خطرة

خصوصًا أنها تعاني كغيرها من النساء من الأنيميا بسبب ما يفقدنه من دماء في الدورة الشهرية.

يكتب لها روشتة العلاج، يشرح لها طريقة تناوله، خلال أيام سوف تشعر بتحسن ولن يعود لها هذا الألم إن هي التزمت بتعليماته.

بعدها يتوجه إلى دولاب جانبي به أصناف مختلفة من الأدوية، يُخرج أمبولًا صغيرًا مع سرنجة، يخبرها بأن هذه الحقنة مفيدة جدًّا، تأتيه كهدايا من شركات الأدوية التي توزع على الأطباء الهدايا كي يكتبون أدويتهم للمرضى.

يغرس الإبرة الحادة في لحم ذراعها الطري، تتألم مع شهقة خفيفة، يضغط ذراعها بيده الأخرى لئلا تفلت منه، يشعر برجفة تسري في جسده، الاقتراب من جني الثمار له لذة تعادل لذة تناوله، يتماسك وهو يعود إلى مقعده.

يتحدث معها في هدوء عن حلقات البرنامج الأخيرة، اتصالات كثيرة يتلقاها بشكل يومي حتى إن شركة التليفون المحمول عرضت عليه أن يسجل لهم إجابات للعديد من الأسئلة تستغلها الشركة في اتصالات المواطنين للاستفسار عن علاج الأمراض التي يعانون منها.

لم تكن هناء تنصت إليه، لقد اهتز بداخلها شيء ما، درجة حرارتها ارتفعت بشكل سريع، ستارة تُسدل أمام عينيها لتحجب عنها الرؤية بشكل تدريجي، تشعر بدوار رهيب، ثقل في أطرافها وجفونها و.. وغابت عن الوعي.

Scanned by CamScanner

حسام سعد حقنها في ذراعها بمخدر، هذا ما أدركته لكنه عجزت عن التصريح به في ذلك الجزء من الثانية التي سبقت سقوطها.

ما إن تغيب عن الوعي حتى يبتسم حسام في هدوء، تتغير ملامحه بشكل كبير، تتلاشى تلك الصورة التي كانت موجودة منذ لحظات، حتى لون بشرته يتغير، يترك مقعده متوجهًا إليها، يتحسسها في شوق، يحملها إلى سرير في حجرة جانبيه، يشعل جهازًا جانبيًا لتخرج منه موسيقى صاخبة، يأتي بمشروبه المفضل من ثلاجته الخاصة، يستخرج زجاجة صغيرة من حقيبة يده، يقطر منها عدة قطرات في كأسه، يرتشفه على أنغام موسيقاه الصاخبة، يتوجه إلى جسد هناء المسجى، كمن يبدأ عملية جراحية أجراها من قبل ألف مرة يتحرك، ينزع عنها ثيابها، قطعة قطعة .. برفق يتعامل .. يلملم اللذة عن كل شيء حوله، حتى يعريها تمامًا، يتأملها لحظات قبل أن يأتي بكاميرا يلتقط بها عدة لقطات لذلك الجسد من أكثر من زاوية .. يضع الكاميرا في حقيبته .. يخلع ملابسه ..

يمارس معها حتى يفرغ كل طاقته، يهبط لاهثًا وقد تناثر العرق على جبينه وصدره العاري، كمن يعود إلى الأرض بعد رحلة صاروخية إلى أرض الشيطان، يفيق .. يتأمل الجسد العاري أمامه بلا شهوة، ينظر في ساعة الحائط يجدها الخامسة، يرتدي ثيابه، يعيد إلى هناء ثيابها.

بعد دقائق من العمل تعود الأمور إلى سيرتها الأولى، يتصرف بهدوء وثقة شديدة، يضع الورقة التي كان قد كتبها قبل وصولها إلى جوار السرير، ينتقل إلى حجرة مكتبه، يجلس بهدوء ويشعل سيجارة

وينتظر، يمر الوقت ببطء شديد، تفكيره متبلد، متحجر عند اللحظة الحالية، لا يستشعر ذلك الانتصار الذي كان يتوقعه بعد تحقيق حلمه، يؤكد لنفسه أن روعة لحظاته الماضية سوف يستشعرها مستقبلًا، الآن هو مشغول بتنفيذ باقي مخططه.

يدق جرس الباب، إنها تمام الخامسة والنصف، ممدوح يعقوب، ممتقع،شاحب اللون، يمتص لعابه الجاف، يضحك حسام وهو يهزه من كتفه مخبرًا إياه بأن القطة في الداخل تنتظر على أحر من الجمر، ممدوح لا يتحرك، يتحسس خده المصفوع من قبل بشكل لا إرادي، يدفعه حسام وهو يشير نحو الحجرة التي تتواجد فيها هناء، ثم يخرج تاركًا العيادة لهما.

تأثير حقنة المخدر سوف ينتهي بعد نصف ساعة من الآن وهذا مالم يخبر به ممدوح الذي يدخل إلى الحجرة ليجد فريسته نائمة، يحدثها مرتبكًا، لم تجبه، يختبر تنفسها، يجده طبيعيًا فيفهم الأمر، لم يفكر، لقد سهل له صديقه المسألة بأن خدر فريسته كي يسهل قنصها، خير ما فعلت يا حسام، ينطلق لينزع عنه وعنها الثياب، يرتعد مأخوذًا بلذته المنتظرة، بنهم يُقبلها، يخشى مواجهتها، يقبلها من كل مكان في جسدها بعيد عن وجهها، الآن سوف يقضي وطره بدون أن تكون موجودة، أعجب بذكاء حسام الذي حقق له ما أراده، بدأ يلتهمها، تدق الساعة على الحائط دقاتها الست، تتحرك يد هناء، ترفع جفنيها في تثاقل.. و.. يفزع ممدوح.. يصمت وكأنه قد شُلَّ، ما يزال يعتليها

Scanned by CamScanner

وإن عـاد بجزعه إلى أعلـى، تدرك هناء الأمر .. ينتفض جسـدها، يعلو صراخها وهي تنهش بأظفارها وجه ممدوح.

يقفـز ممـدوح عاريًا، يقف في جانـب الحجرة مثل تمثـال، لا يعلم مـاذا يفعل، بصعوبة تسـحب هناء جسـدها مـن فوق السـرير، كتلة من الغضب المشـتعل، تجد نفسها عارية، تسحب ملاءة السرير لتواري بها جسدها، ينكمش ممدوح يعقوب أكثر، فجأة يتحرك ليهرب من أمامها، يبحث عن أي شيء يواري به نفسه، يجد فوطة معلقة أمام طرقة الحمام يأخذها وهو يرتد إلى الخلف.

كانت بين الانهيار والإصرار، أعلى صدرها عار، شعرها متناثر على كتفيها، تحمل دموعها ألوان مختلطة على وجنتيها، لم تشعر بنفسها إلا وهي أمام المطبخ، تدخل .. تعبث في أدراجه لتخرج حاملة سكين، هنا يسـقط ممدوح على ركبتيه يطلب منها المغفرة، هو يهذي بكلمات غير مفهومة، تقترب هناء شاهرة سكينها في وجهه، تقرر أن تكون أول طعنة في رقبته كي يفقد أي قدرة على المقاومة، ثم تنهال على جسده الحقير لتمزقه، سوف تقطع عضوه لتضعه في فمه .. تقترب أكثر ..

يصرخ حسـام وهو يرتد إلى الخلف في سـرعة فائقة لا يدري كيف فعلها، يتوجه إلى باب الشقة، يفتحه وليفر هاربًا.

حركتـه المفاجئة باغتـت هناء، يعـود إليها جزء من عقلهـا الغائب، تنظر إلى الخارج وإلى نفسها، تترك السكين، تعود إلى الحجرة، ترتدي

ثيابها على عجل، تمسـح وجهها. يلفت انتباهها ورقة مطوية إلى جوار السرير، تفردها بإعياء فإذا بها رسالة من الدكتور حسام كتب فيها:

الصديقة العزيزة هناء، يبدو أن الإرهاق مع حقنة المهدئ قد جعلاكِ تذهبين في نوم عميق لهذا أخذتك في هدوء إلى السرير وخرجت تاركًا المكان كله لتنعمي بنوم هادئ.

تحياتي إلى أن نلتقي.

المخلص حسام سعد

تطـوي هناء الورقـة، وضعتها في حقيبة يدهـا وخرجت من المكان الذي أتته تشـكو ألم الرأس لتخرج منه حاملة آلامًا لن تزول أبد الدهر، لقد تغيرت حياتها تمامًا، لا سبيل أمامها غير الانتقام ..

الانتقام مهما كان الثمن.

***

Scanned by CamScanner

42

تحقيق الغاية يحمل في طياته سعادة لا حدود لها، مهما كانت الصعوبات التي نلاقيها في سبيل تحقيق هذه الغاية، سعادة الإنجاز والنجاح تطغى على كل شقاء. هذا ما كان عليه فؤاد هاشم عندما ينتهي من كتابة أول مجموعة قصصية.

للمرة الأولى، لا يعلم لماذا، تقرأ له زوجته ما يكتبه وتناقشه فيه بشكل هادئ متزن، يأخذ برأيها في بعض الجزئيات ويناقشها برؤيته الخاصة في جزئيات أخرى، لم يكن يشغله رأي زوجته أكثر مما شغله اهتمامها ورؤيتها الخاصة.

ينظر نحوها في إعجاب حتى إنها ترنو بخجل، نعم .. هي تمتلك قدرة على الحوار وتبادل وجهات النظر، يتأملها أكثر .. زوجته جميلة بالفعل .. يتذكر بداية إعجابه بها وزواجهما، كيف تلاشت نظرات الإعجاب مع مرور الزمن؟ كيف يتحول الجمال والحب إلى عادة ؟!

يندهش أكثر وهو يتذكر نظرات إعجابه بأخريات في الشارع والعمل، زوجته أحق بتلك النظرات، يقترب منها في رفق، يمسك

براحتيها بين يديه، يقبلهما، يتحرك بداخله حب حقيقي، ذلك الحب الكامن بين الأزواج لا تظهر قوته إلا عند الكبوات، لكنه خامل طالما عم الهدوء، عجيب أمر البشر.

يقرر فؤاد .. ويناقش زوجته في ذلك .. أن يعيشا الحب بشكل مستمر. توافقه بسعادة حقيقية وهي تؤكد ثناءها على ما كتبه، تشجعه على محاولة نشره في كتاب، هو يستحق أن يكون أحد الأدباء المشهورين.

يترك مجموعته القصصية، يأخذ بيد زوجته ليقضيا ساعة عشق، تحوطهما زهور الغرام محملة بروائح لا يعلمان مصدر روعتها، يذوبان ثم يعودان، ترفرف عليهما آيُ السعادة الحقيقة، ما أروع ممارسة الحب في رحاب علاقة مقدسة مثل الزواج.

لا يعلم فؤاد سبب تلك الحالة التي ينتقل إليها بصحبة زوجته خلال الأيام التالية، يمارسان تفاصيل حياتية كانا يمارسانها سابقًا، لكنها اليوم لها روعة غير مسبوقة، قد تتشابه الأفعال، لكن المذاق يختلف باختلاف جوهر صاحب الفعل حال إصداره أو تلقيه الإشارات.

عمومًا تحتويه الحالة الجديدة بكل تفاصيلها، يمسك بقلمه ليكتب، يُبدع مثل فنان حقيقي ينحت أو يرسم لينتج لوحة فنية رائعة، كلماته هادفة .. تعبيراته متميزة .. يعالج قضايا إنسانية، يغوص في أعماق النفس البشرية، يستخرج منها لآلئ.

يعرض على بعض الأصدقاء إنتاجه الأدبي، يلاقي استحسانًا يعادل ثناء زوجته من قبل، طاقة إيجابية عظيمة تملؤه .. يتوجه إلى بعض

Scanned by CamScanner

الأندية الأدبية، يقدم إنتاجه لعدد من النقاد، بعضهم لم يهتم، والبعض الآخر ينظر نحوه بنظرات جعلته يخشى الخوض في هذا المجال ولو أن الظروف أتاحت له الخروج بلا عودة لفعل، إلا أن أحدهم يتناول العمل على مضض، يعده بأن يقرأ، يضرب له موعدًا للقاء بعد أسبوع.

فؤاد على يقين بأن هذا الناقد قد أخذ الأوراق ليخفف عنه وقع الصدمة الأولى، لن يقرأ كلمة، وإن قرأ لن يكلف نفسه عناء الاتصال، يسمع الكثير عن النقاد وتعاملهم مع الأدباء من علٍ، يملكون سياط جلد لا أيادي رحمة، يندهش .. هل خُلق النقد لاستخراج كل المساوئ وتأويل كل المعاني ولم يخلق لمدح ما يستحق من الأعمال!!

الحقيقة الفعلية أن ذلك الناقد ما أخذ أوراق فؤاد إلا تخفيفًا عنه، لكن يشاء القدر أن يشعر هذا الرجل، في اليوم الرابع، بنوع من الملل حال انتظاره لزوجته التي ذهبت إلى السوق لشراء الخضروات، أراد أن يسحب كتابًا يُمضي فيه وقته، وقعت يده على أوراق فؤاد، يأخذها بتكاسل رهيب وهو يمط شفتيه ليستطلعها.

بعد لحظات يزيد تركيزه، ينتقل من ورقة إلى أخرى، يجد بين يديه نصًّا يدل على أن صاحبه يحترف الأدب منذ فترة طويلة، يستمر في القراءة حتى النهاية. عدد قليل من الملاحظات الصغيرة جدًّا لو نفذها فؤاد لأصبح ضمن قائمة العمالقة في مجال الأدب. يكتب الناقد هذه الملاحظات على هامش الأوراق، في الموعد ذهب لمقابلة فؤاد هاشم.

***

43

ما قبل اليوم الأخير

يتكاثر المارة، تزدحم السيارات على غير العادة، شباب يقفون عند الناصية القريبة، أصوات الضحكات الممزوجة بأغاني شبابية تأتي من المقهى القريب، تعبر فتاة منفعلة وهي تتحدث عبر هاتفها النقال توبخ صديقها على تأخره وترفض العودة إلى المقهى.

هذا ما يلحظه ممدوح يعقوب وهو يتلصص من خلف البوابة الحديدية، يشعر بانقباض رهيب، يسيل عرقه غزيرًا، يتسحب إلى الشارع عاريًا إلا من فوطة صغيرة يحاول أن يلف بها وسطه، يُوقف تاكسي، يتأمله الرجل بدهشة، يُغريه بمبلغ خيالي إذا هو أوصله إلى شقته الخاصة في نهاية شارع الهرم، لا يحتاج الرجل إلى كثير من الذكاء كي يدرك أن هذا العاري خرج لتوه من شقة عاهرة وأن هناك من يطارده، يقرر استغلال الموقف، يطلب مبلغًا كبيرًا، يوافق ممدوح مؤكدًا أنه سوف يعطيه ضعف ما طلب.

Scanned by CamScanner

في الطريق يفكر فيما حدث، حظه السيئ هو الذي جعل هناء تفيق، يعيد الأمر إلى قلة نسبة المخدر، أو إلى عدم استجابة جسد هناء لهذه المادة المخدرة، أو لأنه مارس الجنس معها بنوع من الشدة، ذهب بتفكيره إلى أي شيء إلا أنه لم يشك في حسام سعد لحظة واحدة.

يصل شقته، يتبعه السائق، ينفحه ما وعده به، يغلق بابه، يدخل إلى الحمام مباشرة، يقف تحت الماء يتمنى لو يفيق من ذلك الكابوس، بعد دقائق يرتدي ثيابًا أنيقة، للمرة الأولى يدرك قيمة ملابسه، هي شيء عظيم بالفعل، يتوجه إلى المطبخ، يعب عصيرًا ومأكولات ومشروبات مختلفة، كان يشعر بخواء داخلي رهيب.

يتصل بحسام ليشرح له ما حدث، يتلقى الأخير الخبر ضاحكًا معلقًا بأن هذا يكفي اليوم، لن تقاوم بعد ذلك، الصعوبة دائمًا في الخطوات الأولى، لكنه قد فعلها واقتحمها، لن يضرها اقتحامات أخرى وقد تطلب منه الزواج.

يهدأ ممدوح قليلًا، لو سارت الأمور مستقبلًا بهذا الشكل لكانت خطوة عظيمة حقًّا، لكنه لم يكن يدري ما كانت تفكر فيه هناء السعيد في هذه اللحظات.

***

يجلس سيد مع نعمة في مكان منعزل على شاطئ النيل يداعبها، تتمنع، ترفض محاولاته المستمرة في الوصول إليها، تطلب منه الصبر حتى الزواج، أمر مثل هذا كان يجعله يقترب منها أكثر، يثق في أخلاقها.

يتحدثان كثيرًا عن ماضيهما والأزمات التي واجهها كل منهما، يتحدث سيد عن المغامرات التي يعتبرها ضربًا من البطولة بينما كانت تراها نوعًا من التشرد، لكنها لم تكن تمتلك القدرة لإعلان ذلك.

في الأيام التالية سيد يحمل إليها ما لديه من مال كي تشتري كل ما تشاء لتجهيز عش الزوجية، يستأجر شقة ويكتب عقد الإيجار باسمه هو، ثم يعطيها المفتاح لتذهب إليها في الوقت الذي تريده لتجهزها.

كلما جمع مبلغًا حمله إليها في الكافتيريا، لم تكن تعلم المصدر الحقيقي لهذا المال، كل ما كانت تعرفه عنه هو تجارته البسيطة في قطع الحلي أو ما يحصل عليه كنوع من البقشيش على أعماله.

لكنها لم تكن تعلم أن له أنشطة أخرى حيث توزيع الحبوب وقطع الحشيش ولفات البانجو، وصل به الأمر إلى أنه استطاع أن يوفر لطالبي المتعة الليالي الحمراء في أماكن كان يعرفها من قبل، من مثل هذه الأمور كان سيد يحصل على أمواله.

***

يحاول مصطفى عوض أكثر من مرة أن يلفت نظر توفيق مراد إلى نشاط سيد المريب، لكن توفيق كان يغض الطرف ويأمره بأن يترك سيد وشأنه، إلى أن يقرر مصطفى أن يكشف سيد متلبسًا، يبدأ في مراقبته.

سيد كان من ناحية كثير الشكوك .. كثير الحيطة، ومن ناحية أخرى كانت نظرات مصطفى تفضحه.

Scanned by CamScanner

يفهم سيد ما يرمي إليه مصطفى، يداعبه .. يوهمه بأشياء خطيرة، سيد يفعل ذلك كنوع من التسلية، كقط يداعب الفأر قبل يلتهمه، أوهمه ذات يوم بأنه يحتاج إليه في توصيل طلب إلى الأستاذ فؤاد هاشم، يغريه بمبلغ كبير من المال، اختيار سيد له وضخامة المبلغ المالي مقابل سهولة الخدمة جعلاه يشك، يتحسس اللفافة فإذا بها تحتوي على نبات عشبي، يصرخ داخله من الفرحة، لقد أتته فرصة القضاء على سيد بدون أي عناء، إنها لفافة بانجو بلا شك.

في البداية يغضب مصطفى جدًّا من فؤاد هاشم، يقول في نفسه: «حتى أنت يا فؤاد؟!» كي يوقع سيد في الحفرة يحمل اللفافة أمام البعض، يتحدث بصوت مرتفع بأنه لن يسير في طريق الضلال والفسق ولن ينحرف في طريق سيد، سوف يكشف الحقيقة، يلتف حوله البعض والفضول يقتلهم، يأخذ اللفافة إلى توفيق مراد وعلى وجهه علامات الانتصار، يخبره بأنه ضبط هذه مع سيد وليشهد عليه فلان وفلان.

يتناول توفيق مراد اللفافة وهو في حيرة من أمره، إنه يغض الطرف عن سيد ولكن الآن وقد افتضح أمره فكيف يتغاضى عن الأمر، لن يبقي عليه، سوف يطرده خارج القناة.

يفتح توفيق اللفافة وإذا بها نبات الكركدية الأحمر، ينفجر توفيق بين الضحك والغضب، ينهر مصطفى ويصفه بأنه «كبر وخرف» يستدعي سيد ليحمل لفافته، سيد كان يقف في الخارج غارقًا في الضحك هو ومن حوله بعد أن أخبرهم بالحقيقة.

لكن مصطفى لم ييأس، بل يزداد إصراره عن ذي قبل للانتقام من سيد، يتذكر مثل قديم سمعه من أحد المارة «سمن كلبك يأكلك».. لكنه اليوم يُقسم أن يأكله هو.

***

شعور مختار محفوظ بالانهيار كان عظيمًا، يشعر دائمًا أنه ذو مكانة خاصة، يجب أن يُعامل معاملة خاصة، هو صاحب مستوى فكري وثقافي متميز، منصب رئيس القناة هو أقل ما يستحقه، مثله يجب أن يتم اختياره في الوزارة، لكنه زمن المسخ، يحظى فيه الجهلة أصحاب الألسن البغبغانية بالمناصب ويُداس أصحاب الفكر والرؤى بالأقدام.

اليوم يحدث هذا، يتحول إلى شيء نكره، ببغاء ذات ريش مزركش تدعى هناء تحتل منصبًا هو أحق به، يزداد حنقه، يرفض كل ما حوله، لو تمكن ذات يوم من اعتلاء كرسي له نفوذ لأباد كل ببغاوات الأرض.

تنتقل هذه الحالة الانفعالية إلى مريديه من الشباب الذين قرروا الانتقام من أجل الثأر لزعيمهم وأبيهم الروحي مختار محفوظ.

تمر الأيام على مختار ولا أنيس له، حتى رغبة الشباب في التسرية عنه لم تكن تجد الصدى المناسب بداخله، ذلك الشيء الذي انكسر بداخله يرى استحالة عودته إلى ما كان، يزيد حالة الحنق بداخله عدم اتصال أحد من القناة للاطمئنان عليه، يدرك ألّا ولاء من أحد، حتى صفاء هلال، يمقتها بشدة في هذه اللحظات، كم قدم لها من خبرات وثقافات ليرتفع بها إلى مصاف المذيعات المحترفات..

Scanned by CamScanner

أوف .. يزفر بشدة ..

فى الأيام التالية تتزايد حدة الأحداث، لم يستطع كبح جماح مجموعته، يسكت راضيًا عن توعدهم ورغبتهم في الانتقام.

الحقيقة أن رغبة المجموعة في الانتقام كانت أكيدة نظرًا لما يتعرضون له من قهر على مختلف المستويات، لكل فرد منهم أسبابه الخاصة التي تدفعه إلى الانتقام، لم يكن ينقصهم سوى السبب الذي يقنعون به داخلهم المستعر، لم يكن ينقصهم سوى تحديد الهدف وبعدها يكون الانطلاق .

فى جملة يذكر فيها مختار عن أنهم في القناة قد قرروا أن يكون احتفال هناء بمنصبها هو يوم الاحتفال بعيد ميلاد القناة، وسيكون حفلًا كبيرًا وسوف يحضره علية القوم ونجوم المجتمع.

تخرج المجموعة من عند مختار وقد وصلوا إلى الذروة، لقد أتتهم الفرصة التي طال انتظارها، يتفقون على مقابلة سرية في منزل أحدهم بعد منتصف ليل الغد، لن يخبروا مختار محفوظ بأي تفاصيل إلا بعد إتمام العملية.

***

تهبط هناء السعيد من عيادة الدكتور حسام سعد، تجر قدميها وكأن ثقلًا عظيمًا مربوطًا بها، شاردة كانت، تشعر بخواء رهيب، تتداعى صور حياتها الماضية أمام عينيها مثل فيلم سينمائي صامت، لا تعلم لماذا تكاثرت الصور الباكية، تتذكر طفولتها في الشوارع، أمها الباكية

التي تصارع الفقر بأظفار هشة، حياتها الجامعية، زواجها .. عملها كمذيعة .. طلاقها .. تفاصيل كثيرة تتذكرها وهي تهبط درجات السلم.

تقرر الانتقام من ممدوح يعقوب وممن يتصدى له وإن كان معالي الوزير شخصيًا، سوف تمزقه إربًا، لن تقضي عليه مرة واحدة، إنما تقتله على درجات، ألف مرة لو استطاعت، من البداية وهي تصده، لا تريده، كان عليه أن يدرك ذلك، رفضها له كان بمثابة رحمة به، أما وإن تجرأ وتخطى كل الحدود واعتلاها فقد عجل بنهايته، ولن تكون نهاية رحيمة بأي حال.

تصل أرض الشارع، تملأ صدرها بالهواء وكأنها تدرك للمرة الأولى وجود الهواء من حولها، تتذكر حسام، تتصل به، رغم محاولتها المستميتة للتماسك إلا أن صوتها يخرج ضعيفًا، يرحب بها حسام بهدوئه المعتاد، يسألها وقد زينت حروف كلماته ابتسامة عريضة:

- هل استمتعتِ بنوم هادئ ؟ وهل تلاشى ألم الرأس؟

لم تخبره بتفاصيل ما تعرضت له، إنما سألته:

- هل هناك علاقه بينك وبين ممدوح يعقوب؟!

يجيبها كمن يقرر أمر بديهي معروف لدى الجميع، بشكل يجعل شكوكها تتلاشى مباشرة، يقول:

- نحن من قرية واحدة وهذه الشقة كانت تابعة لممدوح وقد استأجرتها منه لفتحها كعيادة. لماذا يا هناء هانم؟!

- لا شيء .. مجرد سؤال .. مع السلامة.

Scanned by CamScanner

تُنهي المكالمة وقد استنتجت أن ممدوح يعقوب يراقبها وقد استغل فرصة تواجدها في الشقة، مؤكد أنه يمتلك مفتاحها، ثم فعل ما فعل.

قرار الانتقام كان واضحًا لا رجعة فيه، لكنها بدأت تعيد ترتيب أوراقها، تقرر أن يكون قتل ممدوح يعقوب أمرًا بعيدًا عنها تمامًا، لابد أن تكون بعيدة عن الشبهات .

فى اليوم التالي توصلت إلى خطة محكمة للتخلص من ممدوح يعقوب، سوف تقترب منه بحجة أن ما حدث بينهما أصبح أمرًا واقعًا، عليه أن يُصلح الخطأ بالزواج، تقابله خلال الأيام القليلة المتبقية على الحفل الكبير أكثر من مرة، في مكان بعيد عن الأنظار، يجب ألا يعلم بعلاقتهما أحد، حتى إذا ما نفذت خطتها كانت بعيدة عن الحدث كل البعد.

في اليوم التالي تتصل به، ما إن يسمع صوتها حتى يصمت متوجسًا خيفة، بل يداخله رعب حقيقي بالرغم من أن عقله يصدر إشارات بأنه في موقف القوي وهي الضعيفة التي تتصل به، تستطيع بما تمتلك من مهارة في الحوار أن تُهدئ من روعه، تتصنع اللامبالاة، ليست فتاة عذراء تبكي فقد عذريتها، كان عليه أن يؤكد محبته لها بطلبها بشكل رسمي، مؤكد أنها كانت ستوافق على ذلك، فهو صاحب مكانة مرموقة، أما الآن وقد حدث ما حدث، فهي تتصاع للأمر الواقع، توافق على أن ترتبط به ولو إلى حين ثم ينفصلا، ذلك كي تشعر براحة داخلية،

كي تتسم العلاقة بالشكل الشرعي، أخيرًا بعدما يبدي موافقته تطلب منه ألا يخبر أحدًا بما تم الاتفاق عليه، خاصة حسام سعد.

فى بداية اتصال هناء يرتبك ممدوح جدًّا، في وسط المهاتفة يهدأ داخله، في نهايتها تعتريه الدهشة، كيف تغيرت الأمور بهذا الشكل؟ لقد رجحت كفته بشكل كبير، يتذكر كلمات حسام من قبل حينما أكد له بأنها سوف تأتيه راكعة إن هو مارس معها الجنس مرة واحدة، يصفق بيديه مثل طفل حظي بدمية، سعادته وصلت ذروتها حتى إنه يرقص في الصالة مثل قرد وحيد في قلب غابة.

***

يبدأ توفيق مراد في الإعداد للاحتفال الكبير، يقوم بحصر الدعوة على كل من يجد من خلفه مصالح تعود عليه بالنفع، يختار أمجد رزق، عدد من رجال الصحافة وعلى رأسهم نجيب سالم، كبار رجال الدولة الذين يتواجدون في مناطق صنع القرار وعلى رأسهم عبدالقادر الغريب وابنه هاني الغريب، السيد الوزير وتابعه ممدوح يعقوب وتابع تابعه الدكتور حسام سعد، من نجوم الفن عدد من المطربين والنجمات ومن بينهم النجمة الصاعدة صاحبة الجسد الفاتن لوليا عزام تلك التي حصل منها على وعد بقضاء ليلة حمراء في مكان يختاره هو شريطة أن يكون على البحر مباشرة، كانت تشعل قلبه باختيار مثل هذا المكان المنعزل كنوع من الإغراء على ليلة تكون فيها الأكثر شراسة وغنجًا.

Scanned by CamScanner

ما كان يلحظه في الأيام التالية هو صمت هناء السعيد وغياب نظرة الإقبال على الحياة التي كانت تتميز بها، لكنه يفسر الأمر على أن ذلك بسبب المنصب الجديد والحفل الذي تتكفل بمصاريفه كاملة، يستدعيها ذات يوم،يحاول تشجيعها، يقرر أن صرف مكافأة من القناة شهرين لتكون عونًا لها، لكن ابتسامتها لم ترجع إليها، يحدثها عن تفاصيل كثيرة من المفترض أن تكون في الحفل. لم تسمع إنما كانت توافقه بإيماءات من رأسها وذهنها شارد في التخلص من ممدوح يعقوب.

طريقة خلاصها منه غاية في البساطة، سوف يساعدها على ذلك توفيق مراد نفسه، تبتسم .. تطلب أن يكون ضمن مشروبات الحفل البيرة وبعض الخمور التي يجب أن تكون متاحة في يوم مثل هذا.

يُعجب توفيق بالفكرة، فإن طلب أحد الكبار الخمور لن يكون هناك الوقت الكافي لإرسال من يأتي بها، لذا يجب أن تكون متوفرة ومثلجة لضمان سرعة وصولها، سوف تكون من ضمن مفاجآت الحفل.

بعد أن تخرج هناء، يستدعي سيد المليجي ليكلفة بمهمة شراء الخمور والاحتفاظ بها داخل القناة بعيدًا عن أعين الجميع إلى أن يطلبها هو شخصيًا منه، عليه أن يوفر الثلج والكؤوس والمزات، هذه هي مهمته في يوم الاحتفال.

***

بعد أيام، وقبيل الاحتفال بقليل، تتصل صفاء هلال بمختار محفوظ كي تطمئن عليه، يجيبها بجفاء كانت تتوقعه، لكنها تُقسم له بأنها ما

تأخرت عليه في الاتصال إلا لتترك له فرصة الراحة الذهنية الكاملة، لا يشعر لماذا هدأ بمجرد أن سرت بداخله كلماتها، يقنع نفسه بأنه يتجاوب معها بدافع التعرف على آخر الأخبار داخل القناة، تحدثه عن التجهيزات الكبرى للاحتفال المنتظر بعد أيام قليلة، بعد دقائق تسأله بدلال عن موعد عودته للعمل، يُظهر امتعاضه وهو يجيبها بأنه لم يقرر بعد، حتى الحفل لن يحضره، هنا تعترض صفاء بشدة وتطلب منه الحضور، يجب أن يكون أقوى من الجميع، الاحتفال فرصة للتواجد بمظهر الفارس القوي الذي لم يتأثر بما فعلوه.

أيضا فرصة للتواجد مع النخبة، أصحاب الحيل، فقد يكلفوه بأعمال جديدة تعوضه عما خسره، أما ابتعاده فلن يجني من خلفه أي مكسب، لن يشعر أحد بغيابه، ففي هذه الأيام لن يطلبك أحد مطلقًا لمصلحتك أنت، لن يطلبك إلا إذا كانت هناك مصلحة له، لكل ذلك يجب أن يسعى كل فرد خلف مصلحته ومن لم يفعل ذلك سوف يخسر كل شيء ولا يلومن إلا نفسه. يقتنع مختار محفوظ بوجهة نظرها، قبل أن تنتهي المهاتفة يعدها بأنه سوف يحضر الاحتفال، وسوف يرتدي سترة أنيقة تعادل ما سيرتديه معالي الوزير وإن كلفته الكثير.

***

تعددت اللقاءات بين هناء السعيد وممدوح يعقوب، يعتذر كثيرًا عما بدر منه لكن حبه لها كان السبب في ذلك وأنه سوف يعوضها بكل ثروته، سوف يضعها تحت تصرفها بعد الزواج الذي توقع له أن يكون

Scanned by CamScanner

حديث الناس، حفل الزفاف سيكون حفلًا أسطوريًا، هدية زواجهما عقد لا يقل ثمنه عن المليون جنيه، سيدفع لرجال الصحافة الكثير كي تتصدر أخبار زفافهم الصفحات الأولى، تُظهر له الكثير من علامات الإعجاب وأنها أخيرًا غيرت نظرتها له.

قبل الاحتفال بيوم، تحصل على مادة سامة شديدة المفعول، سوف تضعها له في كأس تقدمها له في الحفل بدون أن يلحظها أحد.

سوف يموت خلال دقائق في قلب الحفل الصاخب، التحريات المستقبلية سوف تشير إلى أن سبب الوفاة هو المادة السامة، المشتبه فيهم جميعًا هم الموجودين في الحفل، الصفوة .. لن يجرؤ أحد على استدعائهم للتحقيقات.

***

فى هذه الليلة التي تسبق الحفل الخاص بالقناة لم يستطع جابر النوم مطلقًا، يجلس فوق سريره يشاهد خضرة في عدة أوضاع، عارية .. تجلس فوق أفخاذ السادة .. تتأرجح من فرط شهوتها .. تُخرج له لسانها سخرية .. يتزايد غضبه فيقبض بشدة على سكينه التي لا تفارقه.

يقرر ألا يقتلها حال صعودها، الرقابة في بداية اليوم شديدة، الكل مترقب، يجب أن ينتظر حتى نهاية الحفل حيث تكون الرقابة قد قلت ونسبة الانتباه شبه معدومة، بالإضافة إلى الظلام وحركة الشوارع، كل الظروف أجبرته على أن ينفذ مخططه بعد الحفل، سوف يتخذ مكانًا بالقرب من المبنى لا يبرحه إلا لقتل خضرة .

44

اليوم الأخير

يشعر فؤاد هاشم بدفعة قوية كان من نتيجتها أن أقبل على الكتابة بروح جديدة، ذلك بعد أن التقى بذلك الناقد الذي أثنى على أسلوبه وأوضح له النقاط القليلة حتى يتزن العمل، يبشره بأنه ما إن يقوم بهذه التعديلات ويصدر عمله الأدبي الأول، سيكون أحد الأسماء البارزة في قائمة كبار الكُتاب.

تنعكس حالته النفسية الممتزجة بروحة النقية على صحته وهيئته بوجه عام، تتفتح خلايا جسده حتى إن بشرته أصبحت أكثر نضارة، عيناه اكتسبتا بريقًا ولمعة جعلت زوجته تتمسح فيه مثل قطة بيضاء وهي ترى فيه ذلك الحبيب.

الغريب على نفسه في تلك الأيام هو رؤيته لكل شيء حوله، لقد شاهد الكون من زاوية أخرى، زاوية الجمال، لم يعد يشاهد القبح،

Scanned by CamScanner

حتى سوءات البشر كانت تستدعي ابتسامة شفقة مع دعوات بنقاء سريرتهم مستقبلًا.

يقرر أن تكون هذه مدرسته الأدبية، رؤية الجمال حتى في القبح قد نجد ولو القليل جدًّا من الجمال، أو نشاهد نقيضه .. لن يسلط قلمه لإبراز المساوئ فقط، إنما سوف يتحدث عن المساوئ من أجل القضاء عليها طارحًا الإيجابيات والجماليات، سوف يستند إلى تلك الروعة الكونية التي خلقها الله حولنا في كل مكان.

فى صباح اليوم المقرر للحفل يتصل به أحد الناشرين، يريد مقابلته اليوم بناء على توصية من الناقد الذي قرأ مجموعته القصصية ورشحها للنشر، كاد فؤاد أن يطير من فرط سعادته، عمله مطلوب للنشر؟!

سوف يذهب إلى الناشر اليوم وإن كان ذلك سببًا في عدم حضوره الحفل من بدايته، سوف يلحق بهم في منتصفه أو قبل نهايته أو لا يذهب إليه، نعم .. لن يذهب .. من اليوم يقرر أن يتحرك في هذا الطريق الجديد الذي يشعر بأنه ما خلق إلا له، يرتدي أفخر ثيابه، يتوجه إلى لقاء الناشر سعيدًا مثل عصفور يغرد منتشيًا بأول أيامه محلقًا في الهواء.

***

يتوافد الضيوف على القناة، كل منهم يرتدي الثياب الرائعة، السيارات الفارهة تتهادى لتقف أمام المبنى ويهبط منها أحدهم ثم يأخذها السائق إلى الجراج الخاص بالقناة .

فى استقبالهم هناء السعيد وتوفيق مراد، هناء ترتدي القليل من قطع الثياب السوداء التي تُظهر بياض جسدها، جزء كبير من ساقيها يبدو بجرأة مما يجعل مَن يصافحها لا يرفع عينيه إلى أعلى، إلا القليل الذي يدرك أن في الأعلى كنوز أخرى عليه إدراكها.

ممن لفتوا الكثير من الأنظار حال وصوله «الوليا عزام» التي لم تكن ترتدي من الثياب إلا ما يُظهر أنوثتها الطاغية، تغيرت بشكل مثير، جسدها كله إغراء واستطاعت أن تبرز مفاتنه بشكل يذهب بالألباب.

خلفها مباشرة يصل السيد الوزير وتابعه ممدوح يعقوب، ثم حسام سعد وكل العاملين في القناة وكل من وجهت إليه الدعوة وأخيرًا وصل عبدالقادر الغريب وابنه هاني وصديقه أمجد رزق .

***

منذ الصباح الباكر ومجموعة مريدي أو أتباع مختار محفوظ يجتمعون لدراسة خطتهم للمرة المائة، يراجعون كافة التفاصيل، يتحسسون معداتهم وأدواتهم التي سوف يستخدمونها مساء هذا اليوم، لا مجال للفشل، يرتدون ثيابًا غير تلك المعهودة بالنسبة لهم، يصففون شعورهم بطريقة مختلفة، بعضهم يهذب لحيته لتماثل لحى الموضة، في الموعد المقرر للحفل يخرجون لا قبلة لهم غير قناة الأمل الفضائية.

حقائبهم تحتوي على كميات عظيمة من المواد المتفجرة، قاموا بتصنيعها وأكثروا فيها المواد الملتهبة والمواد الحارقة، انتقامًا وتشفيًا.

Scanned by CamScanner

الخطة التي تم وضعها بسيطة للغاية، أفضل العمليات تتم إن اتخذت أيسر الطرق وأسهلها، تلك الطرق البسيطة لا تخطر على بال الجهات الأمنية التي سوف تؤمن الحفل، لن يتوقع أحد أن يذهب شخص يحمل في يده حقيبة متفجرات ويسير هكذا بمنتهى البساطة.

خطتهم تقضي بأن ينتشروا حول المبنى، كل منهم يحمل حقيبته، في لحظة متفق عليها يترك كل منهم حقيبته وقد أعدها للانفجار بعد دقيقة واحدة، دقيقة تكفي لأن يبتعدوا عن المبنى ولا تكفي لأن يكتشف الأمر.

***

تمر الدقيقة الأخيرة مثل دهر، داخل القناة تعلو الموسيقى، تتداخل الأضواء ذات الألوان المختلفة، مزيج من الضحكات والآهات، يرقصون .. يتجاذبون .. يتنافرون .. منهم من يحتسي كأسه في هدوء، مَن يتابع، مَن يلهث .. يعقدون الصفقات .. مزيج رهيب ومخيف.

سيد المليجي يتفانى في تقديم زجاجات الخمر وقطع الحشيش أو السجائر المحشوة مسبقًا، يحصل على مبالغ مالية لم يحلم بمثلها من قبل، يطلبه الكبار للعمل معهم في مكاتبهم.

مصطفى يدور في المكان ليحمل المخلفات وعلى وجهه سعادة طفولية، طالما هؤلاء سعداء فمن المؤكد أن كل شيء على ما يرام، سوف يعود إلى زوجته بالكثير من خيرات الحفل.

مختار محفوظ ينتحي جانبًا يراقب ما يحدث في صمت، في صراع بين الإقبال والإحجام حتى تجذبه صفاء لتراقصه، يرفض في البداية ثم يطاوعها.

خلسة .. تقدم هناء كأسها إلى ممدوح يعقوب الذي يحتسيه بسرعة وكأنه يؤكد لها ولاءه، سوف يكون طوع أمرها.

كلمات سريعة بين معالي الوزير وعبدالقادر الغريب حول صفقة عظيمة من السلاح تصل إلى البلاد خلال أيام قليلة، جهود عبدالقادر في تسهيل مرورها إلى داخل البلاد يقابله عدة ملايين، لكنه يتساءل عمن يشتري مثل هذه الكميات من الأسلحة، يضحك معالي الوزير، يغمز بعينيه ويده تمسح على ذقنه، يفهم عبدالقادر أنهم أصحاب اللحى. ثم يجمع بين أصدقائه أصحاب الأسود وبين عبدالقادر الغريب، في مثل هذا الصخب تعقد الصفقات.

أمجد زرق مع هاني الغريب وبينهم الفاتنة لوليا فؤاد، لن يجرؤ أمجد على قطف ثمرتها قبل هاني، لذا كان يتفانى في تمهيد الأجواء لأن تكون لوليا اليوم ملكًا لهاني وله ما يشاء بعد ذلك.

توفيق مراد يدور بين الحضور، مرة سيدًا ومرات خادمًا، يضحك .. يداعب .. يعقد صفقات .. يحظى بوعود لا نهائية.

نجيب سالم وقلمه بارز في جيب سترته، يتحرك بين الجميع وكأنه يؤكد تواجده، هو عين ترصد بغيهم، من الآن كل ما يطلبه سوف

Scanned by CamScanner

ينفذ، لا يعلمون أن كاميرات تنتشر في المكان ترصد كل أحاديثهم .. حركاتهم .. فجورهم.

فتيات كثيرات ترقصن مع أتباع السادة، يملؤون المكان، يتزايد الصخب مع تزايد تصاعد الأدخنة مع قرع الكؤوس.

حراس الأمن .. السائقون .. العمال .. السائسون .. الجميع مبهور بما يحدث .. يقتربون .. يتمسحون كي ينالوا بعضًا مما في أيدي السادة.. يصل منهم مَن يصل .. يفشل البعض.

***

دقيقة واحدة يتحرك فيها الجميع في اتجاه واحد، يتركون الساحة خاوية بشكل يسمح لمجموعة مختار محفوظ من الانتشار حول المبنى.

تشهد الدقيقة التالية ارتفاع الموسيقى والضحكات داخل المبنى .. لحظات وتختلط أصواتهم بصوت انفجارات رهيبة تهز الأرض، ينهار المبنى بأكمله مصدرًا أصواتًا مفزعة.

تتحول الضحكات إلى صرخات .. الرقصات إلى صراع للفرار .. لكن .. لا مفر ..

تتصاعد الانفجارات .. ألسنة اللهب تصعد إلى عنان السماء .. الأحجار وشظايا الزجاج تنتشر في الفضاء قبل أن تتساقط محدثة دويًا رهيبًا .. السيارات الفارهة في الجوار تشتعل .. تتحول إلى قنابل هي الأخرى بما تحتوي عليه من مواد بترولية. ترتفع عن الأرض ثم تعود كتلة مشتعلة، تظل النيران تأكلها ولن تتركها غير هياكل حديدية قاسية.

ألسنة اللهب تشق الظلام الذي يشمل المكان، أجيجها ولظاها يصم الآذان، دقائق تحولت فيها المنطقة إلى ساحة حرب، تفجيرات في كل مكان، صراخ .. آهات ..

تهدمت حوائط المبنى وتداعى معظمه، تلاشت معالمه، بقايا متناثرة لجدران كانت منذ لحظات تحجب عن الأنظار ما بداخلها، ملطخة بدماء بألوان تتداخل مع ألوانها السابقة، لوحات دموية في كل مكان، مقاعد محطمة متناثرة، قطعها في أوضاع مختلفة، تُشكل غابة متشابكة، تلتهم النيران بعضها، تحرق الدماء التي تغرقها. تصيب الشظايا والركام المتطاير كل مَن في الجوار، من بينهم جابر زوج خضرة أو لوليا عزام، يصاب بقذيفة حجرية في ساقه، يضيع صراخه بين فوضى وصخب المكان.

قطع من أجساد في كل مكان، بقايا جسد تحوطه بقايا سترة سوداء، ذراع في جانب يبدو من أسفل الأنقاض وساعة ذهبية مهشمة ما تزال في معصمه، من بعيد تسيل الدماء من بطن امرأة يختلط ثدياها بلحمها المهترئ، لم يتبقَّ من وجهها غير شعر طويل معجون بالتراب والدم، بجوارها جسدان .. بقايا جسدين كانا يرتبان منذ قليل مَن منهما سوف يحظى بنعيم هذا الجسد أولًا ومَن التالي.

شظايا الزجاج الحادة في كل مكان، تشق الأجساد، قطع الحجارة ما تزال تتساقط، تختلط الأتربة بالدماء، بسيل من الخمور والعصائر، قطع من أطعمة مختلفة بين الحطام.

Scanned by CamScanner

رؤوس مهشمة تحت قطع خرسانية، قطع من الأجساد في كل مكان ما تزال تنتفض ببقايا روح تنسحب راحلة.

***

فى الأيام التالية تأتي الجرافات لتلقي بالمخلفات التي تحوى بقايا أجساد بشرية إلى قلب سيارات عملاقة، ترحل السيارات بحمولتها إلى عمق الصحراء .. تلتقط الطيور لجارحة ما تصل إليه .. تحوم الغربان في المكان، تسقط بذرة قرمزية اللون من مخالب أحدهم، يهطل المطر ليوراري المخلفات في قلب الرمال وبقايا الصخور ..

تنمو شجرة هائلة تمتص غذاءها من بقايا أجساد مدفونة ..

شجرة محملة بثمار عظيمة في انتظار قطافها ..

* ملتقى *

رضا سليمان

Scanned by CamScanner

ما قبل اليوم الأخير

رضا سليمان

الوجوه مرآة تعكس على صفحتها ما تحمله القلوب، لكن .. وجوه كثيرة تعلمت ألا تكون مرآة، وجوه تدربت على التحول، على التغير، وجوه استطاعت عبر تدريب طويل أن تمتلك القدرة على التلون مثل حرباء، تظهر بأى لون ألفت نفسها بداخله، مهما كان لون البيئة المحيطة بها تلونت به فى الحال.

قلوب حائرة، صراع مرير، قتل و خيانة، عشق و آهات .. كيف تعيش فئة تُعرف نفسها بالصفوة قبل اليوم الأخير؟

رضا سليمان. كاتب مصري، ولد عام 1972حصل على ليسانس الآداب قسم الإعلام جامعة الزقازيق، يعمل حاليًا مخرجًا بالإذاعة المصرية شبكة البرنامج العام، له العديد من المسلسلات والبرامج الدرامية الإذاعية تأليفًا وإخراجًا أشهرها أوراق البردي، قطوف الأدب من كلام العرب، همسة عتاب. محاضر مادة فن الكتابة و الإخراج الإذاعى بكليات و أقسام الإعلام. حصل على العديد من الجوائز الأدبية والفنية منها جائزة كتاب اليوم الأدبي، جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة، جائزة زايد الذهبية للإبداع ، جائزة الإبداع الذهبية في مهرجان تونس للإعلام العربي، جائزة الإذاعيون يبدعون. صدر له المسرحية الكوميدية: آدم تو، و روايات: عمدة عزبة المغفلين. مطلب كفر الغلابة. ماريونت، وحى العشق. ظلال الموتى. شبه عارية.

سما للنشر والتوزيع

المجموعة الدولية للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف

Khalid El Sherif

جميع حقوق الطبع للناشر

Scanned by CamScanner